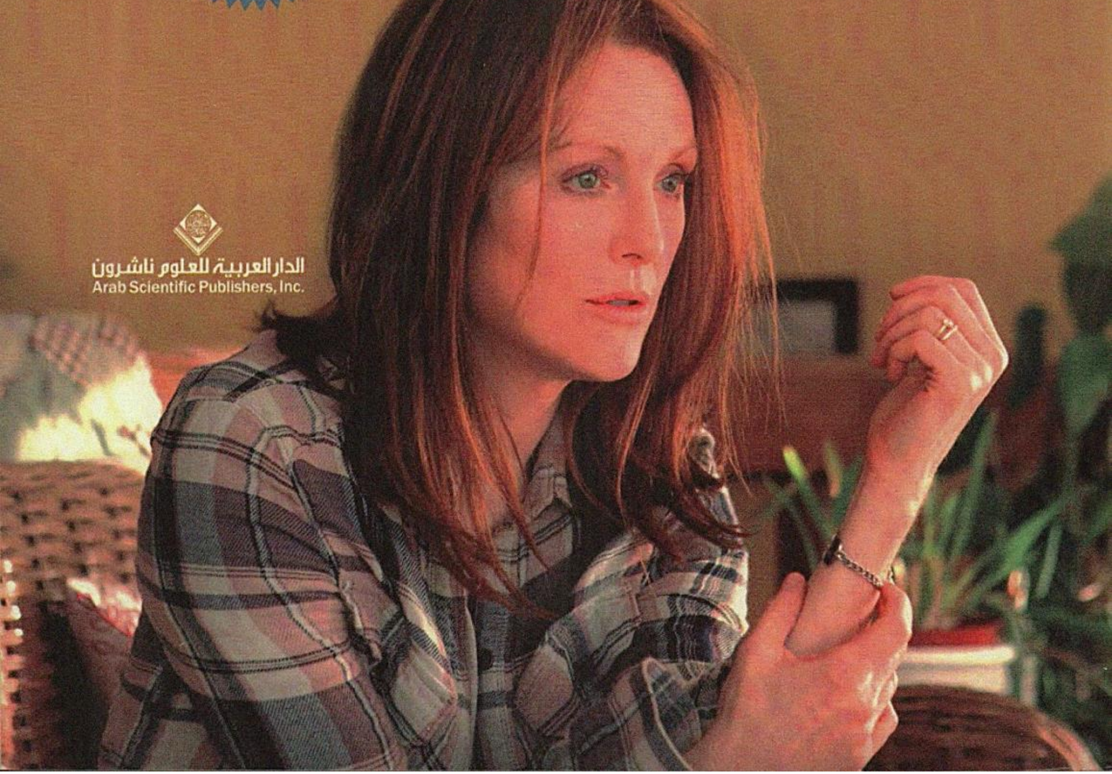
ليـزا جينوفـا
LISA GENOVA

لاتـزال أليـس
STILL ALICE

روايـة

تُرجمت هذه
الرواية إلى 31 لغة
وتحوّلت إلى فيلم سينمائي
رائع فاز بجوائز الأوسكار
والغولدن غلوب
والبـافـتا



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

لاتزال أليس

STILL ALICE

ليزا جينوڤا

LISA GENOVA

ترجمة

أفنان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Still Alice
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
GALLERY BOOKS
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى
2016 م – 1437 هـ

ردمك 978-614-01-1608-5

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **سامح خلف**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

حتى في ذلك الوقت، أي قبل أكثر من عام، كانت هناك عصبونات في رأسها بالقرب من أذنيها تموت بهدوء شديد، لدرجة أنها جعلت من المستحيل بالنسبة إليها أن تسمع صوت استغاثتها. قد يظن البعض أن هذا المرض غدر بها، وجعل العصبونات نفسها تفتعل أحداثاً تقودها إلى دمارها الذاتي. وسواء أكانت تلك جريمة جزيئية أو انتحاراً للخلايا، فقد عجزت عن تحذيرها مما سيحدث لها قبل أن تموت.

أيلول 2003

جلست أليس إلى طاولة مكتبها في غرفة نومها، وذهنها مشتت بصوت الضجيج الذي يحدثه زوجها جون وهو يتحرك بصخب بين غرفة وأخرى في الطابق الأرضي. كان يجب عليها أن تنهي نقداً تكتبه لبحث مقدم إلى مجلة علم النفس المعرفي قبل سفرها بالطائرة، ولكنها قرأت لتوها الجملة نفسها ثلاث مرات عبثاً ومن دون أن تستوعب معناها. كانت الساعة تشير إلى السابعة والنصف حسب ساعة المنبه المتقدمة عشر دقائق على الوقت الحقيقي. ومع ذلك، استطاعت أن تخمن من الوقت التقريبي، ومن السرعة المتزايدة لحركته أنه يهمُّ بمغادرة البيت ولكنه نسي شيئاً ما ولم يكن قادراً على العثور عليه. ربتت بقلمها الأحمر على شفتها السفلى، وراقبت الأرقام على الساعة، وانتظرت القادم الذي لا مفر منه.

«آلي».

ألقت قلمها على المكتب وهي تتنهد. وعندما نزلت إلى الطابق السفلي، وجدته راكعاً على ركبتيه في غرفة المعيشة وهو يتحسس المكان تحت وسائد الأريكة.

فسألته قائلة: «أهي المفاتيح؟».

«بل النظارة. من فضلك، لا تلقي علي محاضرة؛ فأنا متأخر».

تتبعت نظرته المنفعلة التي وجهها إلى رف الموقد حيث أعلنت الساعة الأثرية المعلقة هناك، والتي تتميز بدقتها، أن الساعة هي الثامنة صباحاً. ومع ذلك، فكرت في أنه يجب عليه عدم الوثوق بها. فالساعات في بيتهما نادراً ما كانت تعرف الوقت الحقيقي من اليوم. وقد تعرضت أليس للخداع في كثير من الأوقات في الماضي بسبب وجوهها التي تعلوها سيماء الصدق المزيف، إلى أن تعلمت منذ وقت طويل أن تعتمد على ساعة يدها وحدها. ومن المؤكد أنها شعرت بنفسها

تعود إلى الماضي عندما دخلت المطبخ، حيث أصرت ساعة المايكروويف على أن الوقت لا يتعدى السادسة واثنتين وخمسين دقيقة فقط.

نظرت إلى سطح طاولة المطبخ الملساء الخالية من أي شيء، ووجدت المفاتيح هناك بجانب الوعاء المخصص لوضع الفطر والذي كان ممتلئاً بالرسائل غير المفتوحة.لم تكن تحت شيء ما، ولا خلف شيء ما، ولا يحجبها أي شيء عن النظر العادي. فكيف يمكنه، وهو الرجل الذكي العالم، ألا يرى شيئاً يقبع تحت ناظرَيه مباشرة؟

بكل تأكيد، اعتاد الكثير من أغراضها الخاصة على الاختباء بعبث في أماكن خفية لا تخطر على بال، ولكنها لم تعترف لزوجها بهذا قط، ولم تشركه بالبحث عنها. فقبل بضعة أيام فقط، أمضت صباحاً جنونياً– وجون غافل عن ذلك لحسن الحظ– وهي تبحث في أنحاء البيت كافة، ثم في مكتبها عن شاحن جهاز البلاك بيري. ثم استسلمت وتوجهت إلى المتجر واشترت شاحناً جديداً، ولكنها اكتشفت في وقت متأخر من تلك الليلة أن شاحنها القديم موصول بالمأخذ الكهربائي إلى جوار السرير حيث كان ينبغي لها أن تبحث في المقام الأول. تمكنت على الأرجح من أن تلقي باللوم في ما يجري معها على توليها مهامّ متعددة كثيرة، وشدة انشغالها، وتقدمها في السن.

وقف زوجها في المدخل وهو ينظر إلى النظارة التي تمسكها بيدها، ولكن ليس إليها هي.

فقالت أليس وهي تبتسم: «في المرة القادمة، حاول أن تتظاهر بأنك امرأة وأنت تبحث عن شيء ما».

«سأرتدي إحدى تنانيرك. من فضلك، كفّي عن هذا يا آلي، فأنا حقاً على عجلة من أمري».

فقالت له وهي تسلمه النظارة: «تشير ساعة المايكروويف إلى أنه لا يزال لديك متسع من الوقت».

«شكراً».

انتزع النظارة من يدها وكأنه عداء في سباق، وتوجّه فوراً إلى الباب الأمامي.

فسألته من الخلف وهي تتبعه بنظرها على طول الممر: «هل ستكون هنا عندما أعود إلى البيت يوم السبت؟».

«لست أدري. فلدي يوم حافل للغاية في المختبر يوم السبت».

أخذ جون حقيبته وهاتفه ومفاتيحه عن طاولة الردهة.

ثم قال: «أتمنى لك رحلة سعيدة. أعطي ليديا قبلة كبيرة مني، وحاولي ألا تتشاجري معها».

لمحت انعكاس صورتهما على مرآة الممر. رأت رجلاً طويل القامة، مميز المظهر، له شعر بني مختلط بالشعر الأبيض، ويضع نظارة، وإلى جانبه امرأة صغيرة الحجم ذات شعر مجعد، يداها مشبوكتان أمام صدرها، وكل منهما متأهب لخوض الجدال العقيم نفسه الذي لا جدوى منه. فصرّت أسنانها وابتلعت لعابها مؤثرة عدم القفز.

وقالت له: «لم نر بعضنا بعضاً منذ فترة. من فضلك، هلّا تحاولت أن تأتي إلى البيت».

«أعرف هذا. سأحاول».

طبع قبلة على خدها. ورغم لهفته للمغادرة، إلا أنه تلكأ قليلاً في تلك القبلة للحظة تكاد لا تدرك بالحس. ولولا معرفتها له حق المعرفة، لربما أضفت صفة الرومانسية على تلك القبلة، ووقفت هناك وهي مفعمة بالأمل ظناً منها أن لسان حاله يقول: **أحبك. وسأفتقدك**. ومع ذلك، بينما كانت تراقبه وهو يهرع مبتعداً على طول الشارع وحده، أيقنت في قرارة نفسها أن لسان حاله في حقيقة الأمر يقول لها: **أحبك، ولكن من فضلك لا تغضبي إن تغيبت عن البيت يوم السبت.**

اعتادا المشي مع بعضهما بعضاً إلى حرم جامعة هارفرد صباح كل يوم. ومن بين الأشياء الكثيرة التي عشقتها في ما يتعلق بعملهما معاً في هذه الجامعة التي لا تبعد سوى ميل واحد عن بيتهما، كانت رحلتهما المشتركة اليومية أكثر ما تحبه. فقد اعتادا التوقف كل صباح عند مقهى جيري ليشتريا له فنجاناً من القهوة السوداء ولها فنجاناً من الشاي بالليمون المثلج أو الساخن حسب الطقس، ثم متابعة طريقهما إلى الجامعة وهما يتجاذبان أطراف الحديث عن أبحاثهما ومحاضراتهما وعن

قضايا تتعلق بالأقسام التي يعملان بها، وأولادهما ومخططاتهما لتلك الأمسية. وفي بداية زواجهما، كانا يمشيان وقد أمسك كل منهما يد الآخر. فكانت أليس تستمتع بالحميمية الهادئة التي تنطوي عليها تلك النزهات الصباحية معه قبل أن تأتي المتطلبات اليومية لوظيفتيهما وطموحاتهما، فتترك كلًّا منهما في غاية التوتر والإرهاق.

ومع ذلك، بدآ منذ بعض الوقت يمشيان إلى هارفرد منفصلين. إذ بدأت أليس خلال الصيف تعيش فترة مختلفة عن روتينها المعتاد. وباتت تحضر مؤتمرات عن علم النفس في روما ونيو أورلينز وميامي، وتعمل في لجنة امتحانية لمناقشة إحدى الأطروحات في برينستون. أما في الربيع، فقد احتاج قسم الخلايا الذي يعمل فيه جون إلى المزيد من الاهتمام في ساعة مبكرة كل صباح، ولكنه لم يكن واثقاً من أن أياً من طلابه سيأتي بشكل منتظم، لذا فضّل أن يفعل ذلك بنفسه. لم تستطع أن تتذكر الأسباب التي سبقت ربيع ذلك العام، ولكنها أدركت أنها كلها بدت في ذلك الوقت منطقية ومؤقتة لا غير.

عادت إلى البحث المتروك على مكتبها وهي لا تزال مشوشة الذهن. وشعرت أنها تتوق إلى ذلك الشجار الذي لم تخضه مع جون حول ابنتهما الصغرى ليديا. ترى، ما الذي سيضره لو دعمها لمرة واحدة؟ بذلت جهداً سريعاً في مراجعة بقية البحث، وهو ليس مستواها النموذجي المعتاد، ولكنها وجدت أن ذلك سيفي بالغرض نظراً إلى حالتها الذهنية المشوشة وقلة الوقت لديها. فأنهت تعليقاتها واقتراحاتها للمراجعة، ثم وضعت البحث في المغلف وختمته وهي تشعر بالذنب؛ لأنها مدركة أنها ربما أغفلت خطأ ما في تصميم الدراسة أو شرحها. وشتمت جون في سرّها لأنه من تسبب في أن تصبح نزاهتها في العمل موضع شبهة.

أعادت ترتيب حقيبة سفرها التي لم تكن قد أفرغتها بعد من رحلتها الفائتة، وهي تتطلع قدماً للتقليل من أسفارها في الأشهر القليلة التالية. إذ لم يتبقَّ لديها سوى بضع محاضرات وجِّهت لها الدعوة لحضورها في الفصل الدراسي الخريفي. وكانت قد حددت موعد معظمها أيام الجمعة؛ لأنه يوم لا تدرّس فيه. ففي اليوم التالي، وهو يوم جمعة، كانت ستلقي كلمة ضيفة الشرف لاستهلال سلسلة حلقات

دراسية في علم النفس المعرفي في جامعة ستانفورد. وبعد الانتهاء من ذلك، اعتزمت أن تذهب لزيارة ابنتها ليديا التي أوصاها جون بألا تتشاجر معها، ولكنها رفضت أن تقدم له أي وعود قد لا تستطيع أن تفي بها.

عثرت أليس على طريقها إلى قاعة ستانفورد كوردورا عند ناصية شارع كامبوس درايف ويست وبنما درايف بسهولة. بدا المبنى بكسوته الخارجية المصنوعة من الجص، وسطحه المصنوع من التراكوتا، والمناظر الطبيعية المحيطة به لعينيها هي القادمة من الساحل الشرقي وكأنه منتجع في البحر الكاريبي وليس مبنى أكاديمياً. وصلت إلى هناك مبكرة بعض الشيء، ولكنها غامرت بالدخول على أية حال، ظناً منها أن هذا سيمنحها الفرصة لتستغل الوقت المتبقي وتجلس على المدرج الهادئ لتلقي نظرة أخيرة على الكلمة التي ستلقيها.

وقد تفاجأت حين دخلت لأن القاعة ممتلئة كلّها. ووجدت فيها حشداً متحمساً يحيط بطاولة «البوفيه المفتوح»، ومنهمكاً بتناول الطعام بعدوانية وكأنه سرب من طيور النورس على شاطئ البحر. وقبل أن يتنسى لها التسلل إلى الخارج من دون أن يلاحظها أحد، صادفت جوش؛ وهو زميل قديم من زملائها في هارفرد، ورجل محترم رغم الغطرسة البادية عليه. فاعترض طريقها وقدماه مثبتتان على الأرض بإحكام وهما متباعدتان بعض الشيء، وكأنه يستعد للانقضاض عليها.

سألت أليس وهي تبتسم بعبث: «أكل هذا من أجلي أنا؟».

«ماذا؟ نحن نأكل بهذا الشكل كل يوم، ولكنّ اليوم مخصص لأحد أساتذة علم النفس التطوري لدينا. فقد تم تثبيته في وظيفته بالأمس. إذاً، كيف تسير أمورك في جامعة هارفرد؟».

«جيداً».

«لا أصدق أنك لا تزالين فيها بعد كل تلك السنوات. ينبغي أن تشعري بالملل هناك، وأن تفكري في الحضور إلى هنا».

«سأعلمك إن حدث هذا. كيف تسير أمورك؟».

«إنها رائعة! ينبغي أن تأتي إلى مكتبي بعد انتهائك من إلقاء كلمتك، وأن تطّلعي

على بياناتنا النموذجية الأخيرة. لا بد أنها ستدهشك للغاية».

فقالت له وهي ممتنة لوجود عذر تتملص به منه: «آسفة، لا أستطيع ذلك. فلدي رحلة بالطائرة إلى لوس أنجلوس يجب علي اللحاق بها».

«آه، يا لسوء الحظ! لقد كانت آخر مرة قابلتك فيها في مؤتمر علم النفس التجريبي. يؤسفني أنه فاتني حضور العرض الذي قدمته».

«حسناً، سيتسنى لك سماع قسم لا بأس به منه اليوم».

«هل تعيدين صياغة خطاباتك في هذه الأيام؟».

وقبل أن تتسنى لها فرصة الرد عليه، دخل غوردون ميلر، وهو رئيس القسم وبطلها الخارق الجديد، وأنقذها عندما طلب من جوش أن يساعده في تقديم الشراب. فكما هو الحال في جامعة هارفرد، إن تقديم الشراب تقليد متبع في قسم علم النفس في جامعة ستانفورد لكل أعضاء الكلية الذين وصلوا إلى مركز رفيع في مهنتهم، وهو التثبيت. ليست هناك معالم كثيرة تعلن عن التقدم من منصب إلى منصب في مهنة الأستاذ الجامعي، ولكن التثبيت أمر شديد الأهمية، ويحسب له ألف حساب.

عندما أمسك الجميع بكؤوسهم، وقف غوردون على المنصة، ونقر على «المايكروفون»، وقال: «هل يمكنني أن أحظى بانتباه الجميع للحظة؟».

فتردد صدى ضحكة جوش الصاخبة في أرجاء المدرج قبل أن يتابع غوردون كلامه.

«اليوم، نحتفل بتهنئة مارك على تلقيه التثبيت الوظيفي. إنني واثق من أنه في غاية البهجة بفضل هذا الإنجاز المميز. نخب الإنجازات الرائعة الكثيرة التي لا تزال بانتظاره! نخب مارك!».

«نخب مارك!».

نقرت أليس كأسها بكؤوس الأشخاص الواقفين حولها، ثم عاد الجميع بسرعة لاستئناف مهمتهم في الشرب والأكل والنقاش. وعندما أتى المدعوون على جميع الطعام المقدم في الصواني، وأفرغوا آخر قطرات الشراب من الزجاجة الأخيرة، اعتلى غوردون المنصة مرة أخرى.

«إن تفضّل الجميع بالجلوس، فسنبدأ كلمة اليوم».

ثم انتظر بضع لحظات إلى أن بدأ الحشد المكون من خمسة وعشرين شخصاً بالاستقرار في أماكنهم والتزام الهدوء.

«اليوم، يشرفني أن أقدم لكم أول متحدثة لهذا العام. إنها الدكتورة أليس هولاند، وهي أستاذة مرموقة في قسم علم النفس بجامعة هارفرد. على مدى السنوات الخمس والعشرين الماضية، حققت أبحاثها المتميزة العديد من المعايير الهامة في علم النفس اللغوي. وكانت وَلا تزال رائدة في مجالها بأسلوبها الموحد والمنضبط في دراسة آليات اللغة. نحن نشعر بالامتياز لوجودها هنا لتتحدث إلينا عن التنظيم العصبي والمفاهيمي للغة».

تبادلت أليس مكانها مع غوردون، ونظرت إلى الجمهور المتطلع بفارغ الصبر لبداية خطابها. وبينما هي تنتظر أن يكف الناس عن التصفيق، فكرت في تلك الإحصائية التي تقول إن الناس يخشون التحدث أمام الآخرين أكثر مما يخشون مواجهة الموت بحد ذاته. أما هي، فقد كانت تحب ذلك، وتستمتع بكل اللحظات التي ينطوي عليها تقديمها أمام الجمهور، كما تهوى التدريس والأداء ورواية القصص وإدارة أي جدال محموم، كما أنها لطالما عشقت الشعور بتدفق الأدرينالين في جسدها والإثارة الناجمة عنه. وكلما كان الرهان عالياً بدا الجمهور مثقفاً أو عدوانياً. بعثت التجربة برمتها إثارة كبيرة في نفسها. لقد كان زوجها جون مدرساً ممتازاً، ولكنّ إلقاء الخطب غالباً ما أزعجه وحتى أرعبه، وهذا ما جعله يتعجب من شجاعة أليس وجرأتها في الإقدام عليه. ربما لم يكن على الأرجح يفضل الموت، ولكنه يفضّل العناكب والأفاعي بكل تأكيد.

«شكراً لك يا غوردون. اليوم، سأتحدث عن بعض العمليات العقلية التي تشكل الأساس لتنظيم اللغة واكتسابها واستخدامها في حياتنا».

ورغم أن أليس قامت بتقديم فحوى هذه الكلمة بالتحديد مرات لا حصر لها، إلا أنها لم تدعُ ذلك إعادة صياغة. إذ ركز صلب الكلمة التي ألقتها على التعاليم الرئيسة لعلم اللغويات، والكثير منها هي التي اكتشفتها بنفسها. واستخدمت لسنوات في خطاباتها عدداً من الصور، ولكنها شعرت بالفخر ولم تشعر بالخزي

أو الكسل؛ لأن هذا الجزء من كلمتها وتلك الاكتشافات التي حققتها ظلت تثبت صحتها متغلبة على عامل الزمن. وشكلت إسهاماتها أهمية في مجالها، ودفعت في سبيل تحقيق المزيد من الاكتشافات القادمة في المستقبل. وبالإضافة إلى ذلك، من المؤكد أنها شملت تلك الاكتشافات المستقبلية.

واصلت حديثها من دون الحاجة إلى النظر إلى ملاحظاتها. وكانت تبدو في غاية الاسترخاء والحماسة، بينما تتدفق الكلمات من فمها بلا عناء. ومع ذلك، بعد مرور أربعين إلى خمسين دقيقة على بداية عرضها، شعرت فجأة بأنها عالقة.

«تظهر البيانات أن الأفعال الشاذة تتطلب الوصول إلى الـ...».

وفجأة، شعرت أنها ببساطة عاجزة عن تذكر الكلمة المناسبة لما تريد التعبير عنه، وتملكها إحساس بما تريد قوله، ولكن الكلمة بحد ذاتها راوغتها وتهربت منها. فقد اختفت من دون أثر، لدرجة أنها لم تعد تعرف حتى الحرف الأول منها، أو ما يشبه لفظها، أو عدد المقاطع الصوتية فيها. ولم تكن حتى على طرف لسانها.

خطر ببالها أن ذلك ناجم عن تأثير الشراب. فهي في الأحوال العادية لم تعتد على احتساء الشراب قبل إلقاء كلمتها. وحتى لو أرادت أن تلقي خطابها في أكثر الأجواء لا مبالاة، فلطالما حرصت على أن تبقي ذهنها نشيطاً قدر المستطاع، ولا سيما من أجل جلسة الأسئلة والأجوبة في الختام، والتي تكون مليئة بالمواجهات والنقاشات الغنية غير المعد لها. ولكنها اليوم لم ترغب في أن تسيئ إلى أحد، وشربت أكثر بقليل مما ينبغي لها شربه، ولا سيما لأنها وجدت نفسها عالقة مرة أخرى في نقاش عدائي لا طائل منه مع جوش.

ربما يكون السفر على متن الطائرة هو ما سبّب لها ذلك. وبينما راح عقلها يفتش في زواياه عن الكلمة، وعن سبب منطقي يجعلها تنساها، تسارعت دقات قلبها واحمر وجهها ارتباكاً. لم تنسَ كلمة قطّ في حياتها أمام الجمهور، ولكنها لم تصب بالفزع من قبل أمام الجمهور أيضاً؛ فقد وقفت أمام حشود أكبر وأكثر إخافة من هذا. أمرت نفسها أن تتنفس وتسترخي وتنسى الأمر، وأن تمضي قدماً وكأن شيئاً لم يكن.

استبدلت الكلمة الضائعة بتعبير غامض وغير مناسب، وتخلت عن الفكرة التي

وصلت إلى منتصفها، وتابعت إلى الصورة التالية. بدت لها فترة الصمت الخرقاء أشبه بوقت امتدّ إلى الأبد ولا نهاية له، ولكنْ بينما هي تتفقد وجوه الحاضرين لترى إن لاحظ أحد الفجوة العقلية التي ألمت بها، لم يبدُ على أحد الفزع أو الإحراج أو الانزعاج بأي حال من الأحوال. وعندئذ، رأت جوش يهمس للمرأة الجالسة بجانبه، وجبينه مجعد بعض الشيء وهناك ابتسامة طفيفة على وجهه.

وبينما هي على متن الطائرة وهي تهبط، خطرت الكلمة ببالها أخيراً: **قاموس**.

انتقلت ليديا للعيش في مدينة لوس أنجلوس منذ ثلاث سنوات. ولو أنها التحقت بالكلية بعد تخرجها من المدرسة الثانوية مباشرة، لأصبحت متخرجة منذ ربيع العام الفائت، ولجعلت أمها أليس شديدة الفخر بها. لطالما اعتبرت أليس ليديا أشد ذكاء من أخويها الأكبر منها، واللذين التحق أحدهما بكلية الحقوق والآخر بكلية الطب.

وبدلاً من دخول الكلية، سافرت ليديا في البداية إلى أوروبا. تمنت أليس أن تعود ابنتها إلى الديار بعد أن توصلت إلى إحساس أكثر وضوحاً حول ما تريد أن تدرسه، ونوع الكلية التي تريد الالتحاق بها. ولكنّ ليديا بدلاً من ذلك، قالت لوالديها لدى عودتها إنها عملت لفترة من الزمن بالتمثيل في دبلن، وإنها وقعت في الحب. وأعلنت أنها تريد الانتقال إلى لوس أنجلوس في الحال.

كادت أليس تفقد صوابها. ومما زاد من حدة إحباطها وغضبها أنها أدركت مدى إسهامها في حدوث هذه المشكلة. فلأن ليديا كانت الابنة الصغرى بين ثلاثة أولاد لأبوين يعملان طوال الوقت ويسافران بشكل منتظم، ولأنها كانت تلميذة مجتهدة على الدوام، فقد عمد كل من أليس وجون إلى إهمالها إلى درجة كبيرة، وسمحا لها بالتمتع بفسحة كبيرة جعلتها تعيش في عالمها الخاص، ومنحاها الحرية لتتخذ قراراتها بنفسها، وتجنّبا أشكال التحكم كافة المفروضة على الأولاد الذين في مثل سنها. وخدمت حياة أبويها المهنية كمثال ساطع لما يمكن جنيه حين يضع المرء لنفسه أهدافاً نبيلة ومتفردة بشكل خاص، ويسعى وراءها بشغف، ويعمل

بجدية لتحقيقها. وقد فهمت ليديا نصيحة أمها عن أهمية الحصول على شهادة جامعية، ولكنها كانت تتمتع بالثقة والتهور الكافيين لترفض ذلك رفضاً تاماً.

وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن وحدها المتحمسة لذلك القرار الطائش. فأكبر شجار نشب بين أليس وجون أتى بعد أن أدلى بدلوه حيال الموضوع قائلاً: **أظن أن هذا رائع. إذ سيظل بوسعها الالتحاق بالكلية في وقت لاحق من حياتها إن قررت أنها تريد ذلك.**

تفقّدت أليس جهاز البلاك بيري لتتأكد من العنوان، ثم رنت جرس باب الشقة رقم 7 وانتظرت. وبينما هي على وشك أن تقرع الجرس مرة أخرى، فتحت ليديا الباب.

قالت ليديا: «أنت مبكرة يا أمي».

فتفقدت أليس ساعتها، وقالت: «إنني في الموعد المحدد».

«قلت لي إن رحلتك ستصل عند الساعة الثامنة».

«بل قلت الخامسة».

«إن الموعد مدوّن لدي في دفتري هو الثامنة».

«ليديا، إن الساعة تشير إلى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة. وها أنا هنا!».

بدت ليديا حائرة وفزعة؛ وكأنها سنجاب يواجه سيارة مسرعة باتجاهه على الطريق.

«آسفة، تفضلي».

ترددتا كلتاهما قبل أن تعانقا بعضهما بعضاً، وكأنهما على وشك أن تؤديا رقصة تعلّمتاها حديثاً، وهما غير واثقتين من الخطوة الأولى أو ممن يجب عليها تولي القيادة. أو إنها ربما رقصة قديمة، ولكنهما لم تؤدياها معاً منذ وقت طويل، فشعرتا أنهما لم تعودا تتذكران الإيقاع.

استطاعت أليس أن تشعر بعظام العمود الفقري لليديا وأضلاعها من خلال قميصها. وبدت لها شديدة النحول، ولاحظت أن وزنها يقل عشرة باوندات عما تتذكره. فتمنت أن يكون ذلك قد حدث نتيجة للانشغال، وليس نتيجة اتباع حمية

غذائية صارمة. بشعرها الأشقر وطولها الذي يبلغ خمس أقدام وستة إنشات– وهي أطول من أليس بثلاثة إنشات– بدت ليديا متميزة وسط هيمنة النساء الإيطاليات والآسيويات القصيرات في كامبريدج. ولكن، في لوس أنجلوس، بدت غرف الانتظار في كل تجارب الأداء مليئة بنساء يبدون على شاكلتها بالضبط.

«أعددت حجوزات للساعة التاسعة. انتظري هنا، سأعود في الحال».

مدت أليس رأسها، وأخذت تتفحص المطبخ وغرفة المعيشة من حيث تقف في المدخل. وكان الأثاث على الأرجح من محلات بيع الأثاث المستعمل، أو من تلك القطع التي يعطيها الآباء لأولادهم. فأتى أشبه بخليط من القطع مثل: كنبة برتقالية وطاولة قهوة كلاسيكية الطراز، وطاولة طعام وكراسٍ مستوحاة من مسلسل برادي بانش. وبدت الجدران البيضاء مجردة بالكامل؛ إلا من ملصق للممثل السينمائي مارلون براندو معلق فوق الكنبة. وفاحت في الهواء رائحة سائل منظف قوية، وكأن ليديا بذلت جهداً في اللحظات الأخيرة لتنظف المكان قبل وصول أليس.

في الواقع، بدا البيت شديد النظافة بشكل مبالغ فيه؛ فلا أقراص كمبيوتر ملقاة في الأنحاء، ولا كتب ولا مجلات مرمية على طاولة القهوة، ولا صور على الثلاجة، أو أي شيء يوحي باهتمامات ليديا أو حسها الجمالي في أي مكان. ففكرت في أنه من الممكن أن يكون مكاناً يعيش فيه أي شخص، وليس شخصاً محدداً. وعندئذ، لاحظت أليس خلفها وجود كومة من الأحذية الرجالية على الأرض إلى يسار الباب.

قالت لها عندما عادت من غرفتها والهاتف المحمول في يدها: «حدثيني عن زميليك بالسكن».

«إنهما في العمل».

«أي نوع من الأعمال هو؟».

«أحدهما يعمل ساقياً، والآخر يقدم الطعام».

«ظننت أنهما كليهما ممثلان».

«إنهما كذلك».

«فهمت. ما اسماهما مرة أخرى؟».
«دوغ ومالكوم».
لمعت الفكرة للحظة خاطفة في بال ليديا، ولكن أليس استطاعت أن تلاحظها. وأدركت ليديا أن أمها قد لاحظتها. فقد احمر وجه ليديا عندما ذكرت اسم مالكوم، لذا أشاحت بوجهها بسرعة بعيداً عن ناظرَي أمها.
قالت ليديا: «لم لا ننطلق الآن؟ لقد قالوا إن بوسعهم أخذنا مبكراً».
فقالت أليس: «حسناً، ولكنني أريد أن أستخدم الحمام أولاً».

وبينما راحت أليس تغسل يديها، تأملت المنتجات الموضوعة على الطاولة: سائل منظف للوجه من ماركة نيتروجينا، ومرطب للبشرة من «الماركة» نفسها، ومعجون أسنان بالنعناع، ومزيل عرق رجالي، وعلبة من الفوط النسائية. فكرة للحظة وتذكرت أنها لم تحض طوال الصيف. ترى، هل حصل ذلك في شهر أيار؟ إنها ستبلغ الخمسين في الشهر القادم، لذا لم تشعر بالفزع. لم تنتبها حتى الآن أي هبات ساخنة أو مشاكل تعرق ليلية، ولكن ليست كل النساء في سن اليأس تصيبهن هذه الأعراض؛ وهذا جيد تماماً بالنسبة إليها.

جلستا بجوار إحدى الطاولات في الخارج على الرصيف في آيفي، وهو مطعم حديث في مركز مدينة لوس أنجلوس، وطلبتا كأسي شراب.
سألت ليديا: «كيف هي أخبار بحث والدي العلمي؟».
لا بد أنها تحدثت مؤخراً مع والدها. أما أليس، فلم تسمع منها أي كلمة منذ آخر مكالمة هاتفية أجرتاها معاً في يوم الأم الفائت.
«لقد فرغ منه، وهو فخور جداً بإنجازه».
«كيف حال آنا وتوم؟».
«إنهما بخير. هما مشغولان ويعملان بجد. إذاً، كيف التقيت دوغ ومالكوم؟».
«لقد حضرا إلى مقهى ستاربكس ذات ليلة وأنا أعمل».
حضر النادل، فطلبت كل منهما وجبة عشائها وكأس شراب أخرى. تمنت

أليس أن تتمكنا من إذابة التوتر الحاصل بينهما، والذي شعرت به ثقيلاً وسميكاً، ومن خلفه تكمن محادثتهما الرقيقة والهشة كالورق الشفاف.

سألتها: «إذاً، كيف تعرفت إلى دوغ ومالكوم؟».

فقالت ليديا: «لقد أخبرتك للتو. لماذا لا تستمعين إلى أي شيء أقوله لك؟ لقد حضرا إلى ستاربكس ذات ليلة وسمعتهما يتحدثان عن حاجتهما إلى زميلة في السكن».

«ظننت أنك تعملين نادلة في أحد المطاعم».

«إنني كذلك. فأنا أعمل في ستاربكس خلال الأسبوع، كما أنني نادلة في المطعم ليلة السبت».

«لا يبدو أن هذا يفسح لك الكثير من الوقت للعمل بالتمثيل».

«إنني لا أعمل في أية أدوار في الوقت الحالي، ولكنني أحضر دروساً عملية، وأقدم الكثير من تجارب الأداء».

«أي نوع من الدروس؟».

«تقنية مايسنر لتعليم التمثيل».

«وما هي التجارب التي تقومين بها؟».

«التلفزيون والطباعة».

تأملت أليس كأس شرابها، وشربت ما بقي فيها بجرعة كبيرة، ثم لعقت شفتيها وقالت: «ما هي خطتك هنا بالضبط يا ليديا؟».

«لست أخطط للتوقف عما أفعله، إن كان هذا ما تعنينه بسؤالك».

بدأت كؤوس الشراب التي احتستاها تحدث مفعولها بهما؛ ولكن ليس بالاتجاه الذي أملته أليس. وبدلاً من ذلك، أحدث الشراب تأثير الوقود الذي أحرق تلك القطعة الشفافة من الورق، تاركاً التوتر بينهما واضحاً ومجرداً على حاشية محادثة عائلية ومألوفة ولكنها خطيرة.

«لا يمكنك أن تعيشي هذه الحياة إلى الأبد. هل ستستمرين بالعمل في ستاربكس عندما تبلغين الثلاثين من عمرك؟».

«لن يحدث هذا قبل ثماني سنوات! هل تعرفين ما الذي سأفعله خلال ثماني

سنوات؟».

«نعم. في وقت ما، يجب عليك أن تتحلي بالمسؤولية. يجب عليك أن تكوني قادرة على تحمل نفقات أشياء مثل التأمين الصحي والرهن العقاري وادخار التقاعد...».

«لدي تأمين صحي. وربما أحصل عليه بصفتي ممثلة. فهناك أناس يفعلون هذا كما تعلمين، وهم يجنون أموالاً أكثر من دخلك أنت وأبي مجتمعين».

«المسألة لا تتعلق بالمال وحده».

«إذاً، بماذا تتعلق؟ بأنني لم أصبح نسخة منك؟».

«أخفضي صوتك».

«لا تقولي لي ما يجدر بي فعله».

«لا أريدك أن تصبحي نسخة مني يا ليديا. إنني فقط لا أريدك أن تحدي من مجالات اختيارك».

«إذاً، تريدين أن تقومي بالاختيار بدلاً مني».

«كلا».

«هذه أنا، وهذا ما أريد فعله».

«ماذا؟! أتريدين تقديم القهوة للزبائن؟! ينبغي أن تدرسي في الكلية، وأن تمضي هذا الوقت من حياتك في تعلم شيء ما».

«إنني أتعلم شيئاً ما! ولكنني لا أقوم بمجرد الجلوس في صفوف جامعة هارفرد وأنا أكابد للحصول على درجة ممتاز في العلوم السياسية. إنني ملتحقة بصف جاد لتعليم التمثيل لخمس عشرة ساعة في الأسبوع. كم ساعة تدريسية في الأسبوع يأخذ طلابك؟ اثنتي عشرة؟».

«ليس الأمر مماثلاً».

«ولكن والدي يعتبره كذلك، فهو يدفع مالاً مقابل حصولي عليه».

قبضت أليس بيديها على حاشية تنورتها، وأطبقت شفتيها على بعضهما بعضاً.

فأضافت ليديا: «أنت لم تريني وأنا أمثّل من قبل قط».

أما جون فقد رآها. فقد سافر وحده ذات مرة في الشتاء الماضي ليراها

وهي تؤدي دوراً في مسرحية، ولكنّ أليس لم تستطع أن تتفرّغ للحضور بسبب تراكم الكثير من المهام المستعجلة المطلوبة منها. وبينما هي تنظر إلى عيني ليديا المفعمتين بالألم، لم تستطع حتى أن تتذكر تلك المهام المستعجلة التي عطلتها عن حضور مسرحية ابنتها. لم يكن لديها أي موقف معادٍ لمهنة التمثيل بحد ذاتها، ولكنها اعتقدت أن ممارسة ابنتها الفردية لها بدون تعليم تعد تصرفاً طائشاً. وإن لم تلتحق بالكلية الآن وتحصل على قاعدة علمية أو تدريب رسمي في مجال ما، وتحصل على شهادة جامعية، فماذا ستفعل إن لم تنجح بمهنة التمثيل؟

انتابت المخاوف أليس من أن تجد ابنتها نفسها عالقة في حياة غير مثمرة ومليئة بالندم والحسرة. فنظرت إليها ورأت فيها الكثير من الطاقة الضائعة والوقت المهدور عبثاً.

«أنت لا تصغرين في السن يا ليديا. والحياة تمضي بسرعة كبيرة».

«أوافقك الرأي».

وصل الطعام، ولكنّ أياً منهما لم تلمس شوكتها. جففت ليديا عينيها بمنديلها القطني المطرز يدوياً. لطالما خاضتا غمار المعركة ذاتها مراراً وتكراراً؛ فأمدّ ذلك أليس بالشعور بأنهما تحاولان أن تهدما جداراً إسمنتياً برأسيهما المجردين. أيقنت أن تلك النقاشات لن تثمر أبداً، ولن ينتج عنها سوى الأذى لهما كلتيهما، بل ستتسبب بخراب دائم. تمنت لو أن ليديا تستطيع أن ترى الحب والحكمة الكامنين في كل ما تريد منها أن تفعله في حياتها. وتمنت لو أنها تستطيع أن تمد نفسها عبر الطاولة وتعانق ابنتها، ولكن حال بينهما الكثير من الصحون والكؤوس وسنوات من البعد والفراق.

تسببّت حركة مفاجئة على بعد بضع طاولات في تشتيت انتباههما. ولمعت فلاشات بضع كاميرات، وتجمع حشد صغير من الندل والزبائن حول امرأة فيها بعض الشبه من ليديا.

سألت أليس: «من هذه؟».

فقالت ليديا بلهجة يبدو فيها كل من الإحراج والشعور بالتفوق أتقنتها منذ أن كانت في الثالثة عشرة من عمرها: «أمي، هذه الممثلة جينفير أنيستون».

تناولتا عشاءهما، وتحدثتا عن بعض المواضيع الآمنة مثل الطعام والطقس. أرادت أليس أن تكتشف المزيد عن علاقة ليديا بمالكوم، ولكنْ بدا لها أنّ جمر مشاعر ليديا لا يزال متقداً، فخشيت أليس من أن تشعله مرة أخرى. لذا، دفعت الفاتورة وغادرتا المطعم، ولكنهما ظلتا غير راضيتين.

«أرجو المعذرة يا سيدتي».

نظرتا إلى الخلف، ووجدتاً نادلاً يلحق بهما على الرصيف.

قال النادل: «لقد نسيت هذا».

توقفت أليس وهي تحاول أن تفهم كيف وصل هاتفها إلى يد النادل. فهي لم تتفقد بريدها الإلكتروني أو التقويم في المطعم. تحسست حقيبتها، فلم تجد الهاتف. لا بد أنها أخرجته منها عندما أخرجت محفظتها لتدفع الحساب.

«شكراً لك».

رمقتها ليديا بنظرة تساؤل، وكأنها تريد أن تقول شيئاً عن موضوع آخر غير الطعام والطقس، غير أنّها آثرت السكوت، وتابعتا السير إلى شقتها بصمت.

«جون؟»

انتظرت أليس في الممر الأمامي ممسكة بيد حقيبتها. وكانت هناك نسخة من مجلة هارفرد موضوعة على قمة كومة من البريد غير المفتوح مرمية على الأرض أمامها. راحت الساعة في غرفة المعيشة تتكتك فيما الثلاجة تئزّ. سطعت شمس العصر الدافئة على ظهرها، بينما شعرت بالهواء في الداخل بارداً وكامداً وكئيباً؛ وكأنها دخلت بيتاً مهجوراً.

أخذت البريد ومشت إلى المطبخ وهي تجر حقيبتها على عجلتيها خلفها، وكأنها حيوان أليف ومطيع. لقد تم تأجيل رحلتها بالطائرة، ووجدت أنها متأخرة في الوصول حتى بالنسبة إلى ساعة المايكروويف غير الصحيحة. وهكذا، حظي جون بيوم سبت كامل للعمل.

نظرت إلى آلة الرد على الهاتف، فوجدت الضوء الأحمر ساطعاً وكأنه يحدق إليها. تفقدت الثلاجة، فلم تجد أي ملاحظة. لا شيء.

وقفت في المطبخ المظلم وهي لا تزال ممسكة بمقبض الحقيبة، وتأملت الوقت وهو يمضي على ساعة المايكروويف. وبدأ الصوت الموحي بخيبة الأمل والتسامح في رأسها يخفت إلى حدود الهمس، بينما أخذ صوت آخر أقوى يتعاظم ويرتفع. فكرت في الاتصال به، ولكن ذلك الصوت القاسي رفض الاقتراح على الفور، ورفض أن يلتمس له أي عذر. فكرت في أن تقرر ألا تأبه لأمره، ولكن الصوت وهو يتسرب الآن إلى كامل جسدها ويتردد صداه في بطنها ويهتز في كل من أصابع يديها أصبح قوياً جداً، وكاسحاً إلى درجة أنها لا يمكنها تجاهله.

لماذا شعرت بالانزعاج إلى هذا الحد؟ لقد كان يخوض تجربة علمية، وليس بوسعه أن يتركها ليعود إلى البيت. لا بد أنها مرت بظروفه نفسها مرات لا حصر لها. فهذا هو عملهما، وهذه هي طبيعتهما. نعتها الصوت المتردد في رأسها بالغبية والحمقاء.

لاحظت وجود حذاء الجري الخاص بها على الأرض بجانب الباب الخلفي، ففكرت في أن الجري سيجعلها بلا شك تشعر بتحسن، وأن هذا هو ما تحتاج إليه.

لقد كانت بطبيعة الحال تجري كل يوم. وظلت لسنوات عديدة تتعامل مع الجري كما تتعامل مع الأكل والنوم؛ أي كنشاط يومي حتمي، حتى بات يعرف عنها أنها تستطيع تدبير وقت للجري في منتصف الليل أو حتى في وسط عاصفة ثلجية عارمة. ومع ذلك، لقد أهملت هذه الحاجة الأساسية خلال الأشهر القليلة الفائتة بسبب كثرة انشغالها. وبينما هي تربط شريط حذائها، قالت لنفسها إنها لم تزعج نفسها بأخذه إلى كاليفورنيا لأنها أدركت أنه لن يتسنى لها الوقت الكافي للقيام بذلك. وفي الواقع، فقد نسيت أن تضعه في الحقيبة.

عندما انطلقت من بيتها في شارع بوبلار، سلكت الطريق نفسه الذي اعتادت المشي فيه على طول جادة ماساتشوستس، وعبر ساحة هارفرد نحو ميموريـال، ثم على طول طريق تشارلز إلى جسر هارفرد، لتعود أدراجها مرة أخرى. وهذه مسافة تتجاوز خمسة أميال بقليل، أي إنها رحلة مدّتها خمس وأربعون دقيقة. لطالما جذبتها فكرة الجري في ماراثون بوسطن، ولكنها في كل سنة كانت تقرر أنها لا

تملك متسعاً من الوقت للتدرب على اجتياز مسافة كتلك، ولكن ظل يخطر ببالها أنها قد تقوم بهذا يوماً ما. ونظراً إلى تمتعها بحالة جسدية ممتازة بالنسبة إلى امرأة في مثل سنها، تخيلت نفسها تواصل الجري بقوة، إلى أن تتجاوز العقد السادس من عمرها.

وجدت الأرصفة مزدحمة بالمارة، ورأت السيارات تملأ التقاطعات؛ مما أبطأ من سرعة القسم الأول من جولتها عبر ساحة هارفرد. فقد بدت الساحة في ذلك الوقت من يوم السبت مليئة بحشود تتشكل وتدور في الأنحاء في زوايا الشارع، وتنتظر إشارات المرور، وتتجمع خارج المطاعم بانتظار شغور الطاولات، وفي طوابير دور السينما بانتظار التذاكر، وقرب سيارات مركونة في الصف الثاني بانتظار انفراج غير متوقع. تطلبت الدقائق العشر الأولى من جريها مقداراً كبيراً من التركيز الخارجي لتتمكن من شق طريقها عبر كل ذلك، ولكنها حالما اجتازت طريق ميموريـال إلى نهر تشارلز، باتت حرة للجري براحتها في خطوات كبيرة وواسعة.

استدعت تلك الأمسية المريحة بسمائها الصافية الكثير من النشاط على طول النهر. ومع ذلك، فالمنطقة المعشوشبة بجانب النهر بدت أقل ازدحاماً من شوارع كامبريدج. وعلى الرغم من السيل الثابت من محبي الجري، والكلاب وأصحابها، والمشاة، وراكبي الدراجات، والنساء اللواتي يدفعن عربات أطفالهن، لم يتملك أليس سوى إحساس غامض بما يجري حولها؛ وكأنها سائقة متمرسة على طريق يمتد أمامها بلا نهاية. وبينما هي تجري على طول النهر، لم تعد مدركة لأي شيء سوى وقع خطوات حذائها الرياضي وهو يضرب الرصيف بإيقاع متناغم مع أنفاسها المتسارعة. ولم تعد تتذكر جدالها مع ليديا، ولم تعترف بهيجان معدتها المضطربة، ولم تفكر في جون، بل قامت بمجرد الجري.

كعادتها في كل مرة، توقفت عن الجري في طريق عودتها حالما وصلت إلى متنزه جون فيتزجيرالد كينيدي؛ وهو عبارة عن مساحة من المروج المشذبة والمتاخمة لطريق ميموريـال. شعرت أن رأسها بات أكثر صفاء، وأن جسدها استرخى واستعاد شبابه، فبدأت تمشي إلى البيت. بدا طريق متنزه جي إف كي

متداخلاً مع ساحة هارفرد؛ من خلال ممر لطيف تحفه المقاعد بين فندق تشارلز ومدرسة كينيدي.

في الجهة الأخرى من الممر، وقفت عند تقاطع شارع إليوت وبراتل مستعدة لاجتياز الشارع عندما أمسكت امرأة بذراعها بقوة مفاجئة، وقالت لها: «هل فكرت في الجنة اليوم؟».

رمقت المرأة أليس بنظرة ثاقبة وثابتة. كان شعرها طويلاً، وذا لون الليفة وقوامها. وكانت قد علّقت على صدرها لوحة إعلانية مصنوعة يدوياً كُتب عليها: **أمريكا، توبي عن آثامك وعودي إلى رشدك**. لطالما شاهدت أشخاصاً مثلها في ساحة هارفرد، ولكنْ لم يخاطب أحدهم أليس بحديث مباشر وحميم بهذا الشكل من قبل.

وعندما لاحظت انفراجاً في سيل السيارات، قالت: «آسفة». وهربت إلى الجانب الآخر من الشارع.

أرادت أن تتابع سيرها، ولكنها وقفت مسمرة في مكانها، فهي لم تعد تعرف أين هي. نظرت مرة أخرى إلى الجانب الآخر من الشارع، ورأت المرأة ذات الشعر الغريب تلاحق امرأة آثمة أخرى على طول الممر. تأملت الممر والفندق والمتاجر والشوارع المتعرجة بشكل غير منطقي، وأدركت أنها موجودة في ساحة هارفرد، ولكنها لم تعد تعرف طريق العودة إلى البيت.

حاولت مرة أخرى بأسلوب أكثر تحديداً. فرتبت الأماكن في ذهنها: فندق ساحة هارفرد، ملاعب إيسترن ماونتن، الإخوة ديكنز، شارع ماونت أوبورن. كانت تعرف كل هذه الأماكن. فقد وطئت قدماها أرض هذه الساحة لأكثر من خمس وعشرين سنة، ولكنها عجزت بشكل ما عن تكوين خريطة ذهنية تخبرها أن مكان سكنها قريب. شاهدت لافتة دائرية عليها حرف T أمامها مباشرة، تحدّد مكان مدخل قطارات ريد لاين وقطار الأنفاق، ولكنها وجدت ثلاثة مداخل أخرى في ساحة هارفرد، لذا لم تستطع أن تحدد أياً منها هو المدخل الذي تريده.

بدأت دقات قلبها تتسارع والعرق يتصبب منها، فأكدت لنفسها أن تسارع نبضاتها وزيادة تعرقها استجابة طبيعية وملائمة للمجهود الذي قامت به أثناء

الجري. ولكن، بينما هي واقفة الآن على الرصيف، بدت لها دلالة على الفزع.

حثّت نفسها على السير وهي تشعر أن ساقيها الضعيفتين قد تتخاذلان من تحتها في أية لحظة، ولدى أية خطوة حائرة. أكّدت لنفسها أنها لا تزال تستطيع القراءة والتمييز، ولكنّ أياً من هذا لم يخدمها. فقد بدا كل شيء من حولها خارجاً عن أي سياق منطقي.

مختلف أنواع الضجيج الذي لا يطاق كان يصدر عن الناس والسيارات والحافلات. كل ذلك أخذ يتدافع حولها، ويحيط بها، ويسيطر عليها من كل جانب، فأغمضت عينيها، وأصغت إلى صوت تدفق دمها ونبضها خلف أذنيها.

همست لنفسها قائلة: «من فضلك كفّي عن هذا».

فتحت عينيها، ومن دون سابق إنذار، عاد كل شيء حولها إلى سياقه الطبيعي. وفهمت بشكل تلقائي أنه كان بوسعها أن تنعطف إلى اليسار عند الزاوية، وتتجه غرباً في شارع ماس آفي؛ فتنفست الصعداء لأنها لم تعد تائهة على بعد ميل واحد من البيت. ولكنّ هذا لا يخفي حقيقة أنها تاهت فعلاً ومن دون أي تفسير على بعد ميل واحد من بيتها. وهكذا، مشت بأقصى سرعة ممكنة، ومن دون أن تجري، متوجهة إلى البيت.

انعطفت إلى شارعها، وهو عبارة عن طريق سكني على بعد شارعين من ماس آفي. وبينما هي تضع كلتا قدميها على الأرض وترى بيتها أمام عينيها، شعرت أنها أكثر أماناً، ولكنها لم تشعر بالأمان المطلق بعد. أبقت عينيها على باب منزلها الأمامي وساقاها تتحركان، وهي تعد نفسها بأن بحر القلق الذي تتلاطم أمواجه بغضب في داخلها سيتلاشى حالما تصل إلى المدخل الأمامي وترى جون؛ إن كان في البيت.

«جون؟».

ظهر عند عتبة باب المطبخ ووجهه غير حليق، ونظارته موضوعة على شعره الأشعث، وهو يمص مصاصة حمراء، ومرتدياً قميصه القطني الرمادي الجالب للحظ. لا بد أنه ظل صاحياً طوال الليل. وكما وعدت نفسها، تلاشى قلقها كله، ولكنها وجدت أن كل شجاعتها وطاقتها قد تسربتا معه، تاركتين إياها هشة وضعيفة

ولا تريد سوى أن تنهار بين ذراعيه.

سألها قائلاً: «أهلاً، كنت أتساءل عن مكانك، وأوشكت أن أترك لك رسالة على الثلاجة. كيف مضت الأمور؟».

«ماذا؟».

«في ستانفورد».

«آه، جيدة».

«وكيف حال ليديا؟».

فعاد إليها شعورها بالخيانة والأذى بسبب ما جرى بينها وبين ليديا، وبسبب عدم وجوده في البيت عندما حضرت، وبسبب الرعب الذي ألم بها عندما تاهت في طريق العودة إلى البيت. وفجأة، بات ذلك الشعور يحتل الأولوية لديها؛ رغم أنها قبل قليل فقط شعرت أن الجري ساعدها على طرده والتخلص منه.

«أنت قل لي».

«تشاجرتما».

اتهمته قائلة: «أنت تدفع أقساط دروس التمثيل التي تحضرها!».

فأجاب وهو يمص ما تبقى من مصاصته الحمراء بفمه المصبوغ باللون الأحمر: «آه، انتظري، أيمكننا أن نتحدث في هذا الموضوع لاحقاً؟ ليس لدي الوقت الكافي لمناقشته الآن».

«تفرّغ له يا جون. أنت تدعمها هناك من دون أن تخبرني. كما أنك لم تكن هنا عندما عدت إلى البيت...».

«وأنت لم تكوني في البيت عندما عدت. كيف تشعرين بعد الجري؟».

لاحظت التبرير البسيط الذي تضمنه سؤاله المبطن. فلو أنها انتظرت قليلاً، ولو أنها اتصلت به، ولو أنها لم تفعل بالضبط ما أرادته عندما ذهبت للركض، لأمضت الساعة الأخيرة معه. فوجدت نفسها مضطرة إلى أن توافقه الرأي.

«بحال جيدة».

«إنني آسف. لقد انتظرت أطول مدة ممكنة، ولكن يجب علي فعلاً أن أعود إلى المختبر. لقد أمضيت يوماً رائعاً حتى هذه اللحظة، وحققت نتائج مذهلة،

ولكننا لم ننته بعد. يجب علي أن أحلل الأرقام قبل أن نبدأ بالعمل مرة أخرى في الصباح، ولكنني أتيت إلى البيت فقط لأراك».

«إنني بحاجة إلى التحدث معك الآن».

«هذا ليس خبراً جديداً حقاً يا آلي؛ فنحن دائماً على خلاف في ما يتعلق بليديا. ألا يمكن لهذا الموضوع أن ينتظر إلى أن أعود؟».

«كلا».

«هل تريدين أن تتكلمي معي وأنا في طريقي إلى هناك؟».

«إنني لست ذاهبة إلى المكتب؛ فأنا بحاجة إلى البقاء في البيت».

«يجب أن تتحدثي الآن! يجب أن تبقي في البيت! لقد أصبحت فجأة كثيرة المتطلبات إلى حد مريع. هل هناك شيء آخر يجري؟».

أصابت عبارة **كثيرة المتطلبات** نقطة حساسة لديها. فقد وجدتها مرادفة للكلمات: ضعيفة، ومعتمدة على غيرها، ومثيرة للشفقة، وتذكرت والدها الذي بذلت قصارى جهدها طوال حياتها كي لا تصبح نسخة عنه.

«إنني خائرة القوى وحسب».

«عالجي الأمر بنفسك. يجب أن تخففي أعباءك».

«ليس هذا ما أنا بحاجة إليه».

انتظر منها أن تتوسع في شرح كلامها، ولكنها التزمت الصمت لوقت طويل.

«استمعي إليّ، كلما أسرعت في الذهاب، أسرعت في العودة. خذي قسطاً من الراحة، وسأعود إلى البيت في وقت متأخر من هذه الليلة».

ثم طبع قبلة على رأسها المبلل بالعرق، وخرج من المنزل.

وبينما هي واقفة عند مدخل الباب حيث تركها وحدها من دون أحد لتعترف له أو تبثه خبيئة نفسها، شعرت بالتأثير العاطفي الكامل لما جرى لها في ساحة هارفرد يكتسحها؛ فجلست على الأرض، واتكأت على الجدار البارد وهي تراقب يديها ترتجفان في حضنها وكأنهما ليستا لها، وحاولت أن تركز على تهدئة أنفاسها كما فعلت وهي تجري.

وبعد دقائق من الشهيق والزفير، شعرت أنها هدأت أخيراً بما يكفي لتحاول

أن تجد تفسيراً منطقياً لما حدث لها للتو. فكرت في الكلمة التي تاهت منها خلال إلقائها كلمتها في ستانفورد، وبدورتها الشهرية المنقطعة، فنهضت وشغّلت كمبيوترها المحمول، وبحثت في محرك البحث غوغل عن «أعراض انقطاع الطمث».

ظهرت أمامها لائحة مخيفة ملء الشاشة: هبات ساخنة، وتعرق ليلي، وأرق، وإرهاق شديد، وقلق، ودوار، وعدم انتظام ضربات القلب، واكتئاب، وانزعاج، وتقلبات مزاجية، وارتباك عقلي، وفقدان الحس بالزمان والمكان، وضعف في الذاكرة.

فقدان الحس بالزمان والمكان، وارتباك عقلي، وضعف في الذاكرة. اتكأت على كرسيها، ومررت أصابعها بين خصلات شعرها الأسود المجعد، ونظرت إلى الصور المعروضة على رفوف المكتبة التي تصل من الأرض إلى السقف، وكلها مليئة بصور ليوم تخرجها ورقصتها مع جون في ليلة زفافهما وصور الأولاد وهم صغار وصورة عائلية من زفاف آنا. عادت إلى اللائحة التي قرأتها على شاشة الكمبيوتر، وأدركت أن ما يجري لها شيء طبيعي؛ أي مجرد مرحلة جديدة في حياتها كامرأة، وأن الملايين من النساء يتكيفن معه كل يوم. فلا شيء يهدد الحياة ولا شيء غير طبيعي.

دوّنت ملاحظة لتذكر نفسها بأخذ موعد مع طبيبها لتجري فحصاً دورياً. فكرت في أنه ربما ينبغي لها أن تأخذ علاجاً بديلاً لهرمون الإستروجين. قرأت لائحة الأعراض للمرة الأخيرة: قابلية للانزعاج، وتقلبات في المزاج. تذكرت ازدياد سرعة غضبها من جون مؤخراً. لا بد أن كل ذلك يحتسب من الأعراض. فأغلقت جهاز الكمبيوتر وهي تشعر بالرضى.

جلست في مكتبها المظلم لبعض الوقت وهي تصغي إلى سكون بيتها الهادئ، وأصوات حفلات الشواء لدى الجيران. وتنشقت رائحة شواء البرغر. ولسبب ما، لم تعد تشعر بالجوع. فتناولت حبة فيتامينات متعددة مع القليل من الماء، ثم أفرغت حقيبتها، وقرأت بضع مقالات من مجلة علم الإدراك، ثم أوت إلى فراشها.

في وقت ما من بعد منتصف الليل، عاد جون إلى البيت أخيراً، فأيقظها الشعور

بوزنه على السرير. ولكنها التزمت السكون، وتظاهرت بأنها لا تزال نائمة. فلا بد أنه شديد الإرهاق نتيجة السهر طوال الليل والعمل طوال النهار. وفكرت في أنه بوسعهما التحدث عن ليديا في الصباح. وقررت أن تعتذر عن تصرفها بحساسية زائدة ومزاج متقلب في الآونة الأخيرة. جعلتها حرارة يده على خصرها، وأنفاسه الدافئة على عنقها تغط في نوم عميق وتشعر أنها بأمان.

تشرين الأول 2003

قالت أليس وهي تفتح باب مكتبها: «لقد سبّب لي ذلك عسر الهضم».

فقال دان وهو يبتسم ابتسامة عريضة من خلفها: «تلك الشطائر المكسيكية ضخمة».

صفعته أليس بخفة على ذراعه بدفتر ملاحظاتها. كانا قد حضرا لتوهما حلقة بحث أثناء الغداء استمرت ساعة من الزمن. وكان دان طالباً في السنة الرابعة لمرحلة ما بعد التخرج، ويتميز بعضلاته المفتولة وجسده النحيل وشعره الأشقر القصير وابتسامته العريضة الموحية بالثقة. من الناحية الجسدية، لم يكن يبدو شبيهاً بجون بأي حال من الأحوال، ولكنها وجدته يتمتع بالثقة بالنفس وحس الفكاهة؛ مما يذكرها عادة بجون حين كان في مثل سنه.

بعد بضع بدايات فاشلة، تمكن دان أخيراً من استهلال بحث أطروحته، فجعله نجاحه هذا بحالة نشوة لاحظتها أليس بكل حنان، وهي تأمل أن تتطور إلى شغف دائم. فمن الممكن لأي شخص أن يغريه البحث عندما تظهر النتائج، ولكن المهم في الموضوع هو أن يحبه؛ حتى عندما تأتي النتائج مختلفة والأسباب مضللة.

سألته وهي تتصفح الأوراق على مكتبها بحثاً عن مسودة بحثه التي نقحتها: «متى ستغادر إلى أتلانتا؟».

«في الأسبوع القادم».

«يمكنك على الأرجح أن تتقدم بها بحلول ذلك الوقت؛ فهي جيدة الصياغة».

«لا أصدق أنني سأتزوج. يا إلهي! إنني كبير في السن».

عثرت على البحث وأعطته إياه، وقالت: «من فضلك، بالكاد يمكن القول إنك كبرت. فأنت لا تزال في مقتبل العمر».

جلس على كرسيه وراح يقلب الصفحات، ثم يقطّب جبينه عندما يصل إلى

الملاحظات التي كتبتها أليس بالقلم الأحمر في الهوامش. وكان قسم المقدمة والمناقشة الجزءين اللذين ساهمت فيهما أليس بعلمها الحاضر والعميق أكثر من غيرهما، وذلك من خلال استكمالها لعمل دان، وملئها الفراغات في سرده، وتوليدها صورة أكثر قرباً للمكان والكيفية التي تنطبق من خلالها هذه القطعة الجديدة من اللغز في علم اللغويات الحالي والتاريخي ككل.

قال دان وهو يشير بإصبعه إلى ملاحظة مكتوبة باللون الأحمر: «ماذا تقول هذه الملاحظة؟».

«التأثيرات التفاضلية للانتباه الضيق مقابل الانتباه الموزع».

سألها قائلاً: «ما هو المرجع لهذا الكلام؟».

سألت نفسها وهي تغمض عينيها بإحكام قائلة: «آه، ما هو؟». وانتظرت أن يظهر اسم الكاتب وسنة العمل ويطفوَا فجأة على سطح ذاكرتها، وقالت: «أترى؟ هذا ما يحدث عندما تتقدم في السن».

«من فضلك، أنت أيضاً بالكاد كبيرة في السن. لا تقلقي. سأبحث عنه بنفسي».

من بين أكثر أعباء الذاكرة بالنسبة إلى أي شخص يعمل بمهنة علمية معرفةُ تواريخ نشر الأبحاث، وتفاصيل التجارب العلمية، وأسماء الأشخاص الذين قاموا بإجرائها. لطالما أثارت أليس دهشة طلابها وزملائها بترديدها سبع دراسات مرتبطة بظاهرة معينة عن غيب، بالإضافة إلى ذكرها أسماء مؤلّفيها والسنوات التي نشرت فيها. وكان معظم الأساتذة الكبار في قسمها يتمتعون بهذه المهارة. في الواقع، نشأت منافسة ضمنية بينهم لمعرفة من منهم يمتلك أكبر نشرة ذهنية كاملة يسهل الوصول إليها لمكتبة مجالهم العلمي. ومع ذلك، لطالما أظهرت أليس تفوقها على الجميع في أغلب الأحيان.

أعلنت قائلة: «إن الدراسة هي للعالم ناي إم بي بي، عام 2000».

«لطالما دهشت من قدرتك على القيام بهذا. حقاً، كيف تستطيعين أن تحتفظي بكل هذه المعلومات في رأسك؟».

فابتسمت متقبلة إعجابه، وقالت: «سترى. فكما قلت لك، أنت لا تزال في البداية».

راح يتصفح بقية الصفحات وملامحه تدل على الاسترخاء، ثم قال: «حسناً، إنني أعترف، هذا يبدو جيداً جداً. شكراً جزيلاً لك. سأعيده لك غداً!».

وخرج من مكتبها بنشاط. بعد أن أنجزت أليس مهمتها، عادت إلى لائحة مهامها المكتوبة على أوراق ملاحظات لاصقة صفراء معلقة على الخزانة فوق شاشة كمبيوترها المحمول مباشرة.

محاضرة علم الإدراك (أنجز)
حلقة بحث على الغداء (أنجز)
بحث دان
إريك
عشاء ذكرى ميلادها

وضعت علامة صح تدل على الرضى بجانب «بحث دان».

إريك؟ ما الذي يعنيه هذا؟

وكان إريك ويلمان رئيس قسم علم النفس في هارفرد. ترى، هل أرادت أن تخبره شيئاً ما، أو تريه شيئاً، أو تطلب منه طلباً؟ هل رتبت لاجتماع معه؟ عادت إلى تقويمها: الحادي عشر من تشرين الأول، إنه يوم ذكرى ميلادها، ولكنْ لا شيء عن إريك. إريك. **كم ذلك عويص!** فتحت صندوق بريدها، ولكنها لم تجد شيئاً من إريك. تمنت ألا يكون الأمر مستعجلاً، وتملكها الانزعاج، ولكنها أيقنت أنها ستتذكر في نهاية المطاف هذا الشيء الذي له علاقة بإيريك، فرمت لائحة التذكير- وهي الرابعة لذلك اليوم- في سلة القمامة، وأخرجت واحدة أخرى، وكتبت:

إريك؟
الاتصال بالطبيب.

بدأت اضطرابات الذاكرة من هذا النوع تلوح أمامها بشكل متكرر؛ مما سبّب لها الكدر والانزعاج. فقد ظلت تؤجل اتصالها بطبيب الصحة العامة لأنها ظنت أن هذا النوع من حوادث النسيان سيختفي ببساطة مع مرور الوقت. وتمنت أن تتمكن

من معرفة شيء مطمئن عن هذه المرحلة سريعة الزوال من أحد معارفها، وبالتالي أن تتجنب زيارة الطبيب بشكل كلي. ومع ذلك، لم يكن من المرجح أن تتمكن من فعل هذا؛ لأنّ كل زملائها الذين في مثل سنها من الرجال. فاعترفت لنفسها أن الوقت قد حان على الأرجح لتسعى وراء الحصول على نصيحة طبية حقيقية.

مشى جون وأليس معاً من كامبريدج إلى إيبولاي في ساحة إينمان. وفي الداخل، شاهدت أليس ابنتهما الكبرى آنا وهي جالسة إلى إحدى الطاولات مع زوجها تشارلي، وكلاهما يرتديان بذلتين زرقاوين مثيرتين للإعجاب. ارتدى بذلته مع ربطة عنق ذهبية، أما بذلتها فزيّنتها بعقد بديع من اللآلئ. بدآ يعملان معاً منذ بضع سنوات في ثالث أكبر شركة محاماة في ماساتشوستس، حيث تتدرب آنا في مجال الملكية الفكرية، بينما يعمل تشارلي في مجال الادعاء.

أدركت أليس لدى رؤيتها كأس الشراب في يد ابنتها وشكل جسمها الذي لم يطرأ عليه أي تغيير أنها ليست حاملاً. فهي تحاول أن تحمل منذ ستة أشهر، ولكن من دون جدوى. وكما هو الحال مع كل شيء تفعله آنا، كلما ازدادت صعوبة الحصول على الأمر، زادها ذلك إصراراً على تحقيقه. نصحتها أليس من قبل بأن تنتظر، وألا تكون على عجلة من أمرها لتنجز هذه المهمة الكبرى من لائحة مهمات حياتها. فآنا لا تزال في السابعة والعشرين من عمرها، ولم يمضِ على زواجها من تشارلي سوى عام واحد فقط. وعلاوة على ذلك، ساعات عملها الأسبوعية كانت تزيد على ثمانين أو تسعين ساعة. ولكن آنا ردت على هذه النقطة بالقول إن كل امرأة عاملة تفكر في إنجاب الأطفال تدرك في نهاية المطاف أنه ليس هناك أبداً وقت مثالي لفعل ذلك.

تملّك القلق أليس من أن يؤثر تكوين أسرة في مهنة آنا. فقد مرت أليس برحلة شاقة للحصول على المهنية الكاملة في مجالها؛ ليس لأن المسؤوليات ثبطت همتها، ولا لأنها لم تنجز عملاً بارزاً في علم اللغويات، ولكنْ بشكل جوهري لأنها أصبحت أماً. فالتقيؤ وفقر الدم والتشنجات التي مرت بها خلال عامين ونصف العام من الحمل مجتمعة شتّتت انتباهها بالتأكيد وأبطأت من سرعة إنجازها. كما

أن تأمين متطلبات ثلاثة أطفال صغار استهلكت الكثير من وقتها؛ أكثر من أي رئيس قسم عنيد أو طالب متفوق صادفته في حياتها.

ومرة تلو الأخرى، راحت تشاهد برعب مهن معظم زميلاتها النشيطات المثمرة وهي تتباطأ وتنخفض إنتاجيتها أو حتى تتوقف بشكل كامل. وعندما شاهدت جون- منافسها ومكافئها الفكري- وهو يتقدم ويتفوق عليها، وجدت هذا أمراً صعب التحمل. وغالباً ما تساءلت حول ما إذا كانت مهنته ستصمد أمام ثلاث مراحل من الرضاعة، والتدريب على استخدام الحمام، وترديد أغاني الأطفال مراراً وتكراراً لدرجة تخدر العقل، وأمام الكثير من الليالي التي لم تحظَ فيها بأكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات من النوم المتواصل، ولكن الشك خامرها حيال ذلك.

وبينما هم يتبادلون جميعاً العناق والقبلات والتهاني، اقتربت منهم امرأة ذات شعر مصبوغ بلون أشقر فاتح جداً وترتدي ملابس سوداء بالكامل.

سألت وعلى وجهها ابتسامة لطيفة ومطولة توحي بالمجاملة: «هل وصل جميع المدعوين إلى حفلتكم؟».

أجابت آنا: «كلّا، ما زلنا ننتظر شخصاً».

فقال توم وهو يدخل من خلفهم: «ها قد وصلت! مرحباً يا أمي».

عانقته أليس وقبلته، ثم انتبهت إلى أنه قادم وحده.

فقالت: «هل يجب علينا أن ننتظر...؟».

«أتقصدين جيل؟ كلّا يا أمي، فقد انفصلنا الشهر الماضي».

فقالت آنا: «أنت تتعرف على صديقات كثيرات، حتى بتنا نعاني من وقت عصيب في حفظ أسمائهن. هل هناك صديقة جديدة علينا أن نحجز لها كرسياً؟».

فقال توم لآنا: «ليس بعد». ثم وجّه كلامه إلى المرأة ذات الملابس السوداء قائلاً: «نحن هنا جميعاً».

كانت المدة التي تفصل بين كل صديقة وأخرى يتعرف إليها توم تتراوح عادة بين ستة أشهر إلى تسعة، ولكنها لم تكن تستمر أطول من ذلك. فقد كان ذكياً، وشديد الشبه بوالده، ويدرس في السنة الثالثة بكلية الطب في هارفرد، ويخطط لمزاولة مهنة جراحة القلب والصدر. بدا مظهره النحيل موحياً بأنه بحاجة إلى

وجبة جيدة. واعترف بسخرية أن كل طالب طب وجراح يعرفه يأكل طعاماً سيئاً مثل فطائر الدوناتس، ورقائق البطاطس المقلية، ووجبات مقهى المستشفى التي تباع عبر الآلات. ولم يكن أي منهم يحظى بالوقت الكافي لممارسة التمارين الرياضية؛ ما لم يُحتسَب الصعود والنزول على الدرج بدلاً من المصعد. وقال مازحاً إنهم سيصبحون على الأقل مؤهلين لمعالجة بعضهم بعضاً من أمراض القلب خلال بضع سنوات.

حالما جلسوا جميعاً إلى طاولة على شكل نصف دائرة وبحوزتهم المشروبات والمقبلات، تحول مجرى الحديث إلى العضو الناقص من أفراد الأسرة.

سألت آنا قائلة: «متى كانت آخر مرة حضرت فيها ليديا عشاء ذكرى ميلاد أحدنا؟».

قال توم: «لقد حضرت حفلة ذكرى ميلادي الحادية والعشرين».

فسألت آنا: «لقد مضت على هذا خمس سنوات تقريباً! أتلك كانت آخر مرة؟».

فقال جون: «كلا، لا يمكن ذلك». ولكنه لم يقدم معلومات تفصيلية أكثر.

أصر توم قائلاً: «إنني مصر على أنها كانت الأخيرة».

قالت أليس: «ليست الأخيرة. لقد حضرت حفلة ذكرى ميلاد والدكم الخمسين التي أقمناها في بيتنا بمنطقة كيب قبل ثلاث سنوات».

سألت آنا قائلة: «كيف حالها يا أمي؟».

لطالما بدت آنا مسرورة بشكل واضح من حقيقة أن ليديا لم تلتحق بالكلية. فتعليم ليديا المختصر أمّن لآنا موقعها كأذكى وأنجح ابنة لعائلة هولاند. فبما أنها الأكبر سناً، كانت آنا الأولى التي أظهرت ذكاءها لوالديها وأدخلت البهجة إلى قلبيهما، والأولى في احتلال مرتبة أذكى أولادهما. ورغم تحلي توم بالذكاء، إلا أن آنا لم تعره الكثير من الانتباه، ربما لأنه صبي. وبعد ذلك، ولدت ليديا. وكانت كلتا الفتاتين ذكيتين، ولكنّ آنا عانت من مشكلة في الحصول على تقدير ممتاز، بينما أتت تقارير ليديا المدرسية خالية من الشوائب، ومن دون جهد ملحوظ من جانبها، فبذلت آنا الكثير من الانتباه لذلك. وكانت الفتاتان متنافستين، ومتمتعتين

بحس استقلالية حاد. ولكنّ آنا لم تكن من النوع المحب لخوض المغامرات التي تحمل مخاطر، فتولدت لديها نزعة في السعي وراء أهداف تقليدية أكثر أماناً، ومن المؤكد أنها تترافق مع تقدير ملموس.

قالت أليس: «إنها بخير».

فقالت آنا: «لا أصدق أنها لا تزال هناك! هل بدأت بالعمل في شيء ما فعلاً؟».

أجاب جون: «لقد أدّت في مسرحية في السنة الماضية بشكل مدهش».

وأضافت أليس: «إنها تحضر دروساً».

وفي اللحظة التي خرجت فيها الكلمات من فمها، تذكّرت أن جون يموّل دراسة ليديا عديمة الشهادة من وراء ظهرها. كيف نسيت أن تتحدث إليه عن الأمر؟ رمقته بنظرة غضب، فانتبه إليها بشكل واضح، وشعر بتأثيرها فيه. ولكنه هز رأسه بهدوء، وربّت على ظهرها. لم يكن الوقت أو المكان مناسباً لذلك الآن، وبإمكانها أن تناقش الأمر معه في وقت لاحق؛ إن تذكرت ذلك.

فقالت آنا: «حسناً، إنها على الأقل تفعل شيئاً ما». وبدا عليها الشعور بالرضى لأن الجميع مدركون للمكانة الحالية لابنة عائلة هولاند الكبرى.

سأل توم: «إذاً، أبي، كيف تسير تجربتك العلمية؟».

انحنى جون إلى الأمام، وبدأ بشرح تفاصيل دراسته الأخيرة، فراقبت أليس ابنها وزوجها، وكلاهما عالمان حيويان، وهما مستغرقان في محادثة تحليلية، وكل منهما يحاول أن يثير إعجاب الآخر بما يعرفه من معلومات. بدت الخطوط الظاهرة على زاويتَي عينَي توم الخارجيتين واضحة؛ حتى وهو في أكثر حالاته المزاجية جدية، ثم تعمقت، وازداد حيوية عندما بدأ يتحدث عن بحثه الخاص، وانضمّت يداه إلى المحادثة وكأنهما دميتان متحركتان على أحد المسارح.

لطالما أحبت أن تنظر إليه وهو بهذه الحالة، فهو لم يكن يتحدث إليها عن أبحاثه بهذا التفصيل والحماسة رغم أنه اعتاد على ذلك من قبل. ومع أنها ظلت تعرف ما يكفي من المعلومات عمّا يقوم به ليمنحها موجزاً لا بأس به، إلا أنه لم يتعدَّ القشور الخارجية. تذكرت تلك المحادثات الدسمة التي اعتاد أن يخوضها معها عندما يقضيان الوقت مع زملاء توم أو جون، وعندما اعتاد أن يخبرها كل

شيء واعتادت هي أن تصغي إليه باهتمام واستغراق. وتساءلت عن الوقت الذي تغير فيه هذا الأمر، وعمن فقد اهتمامه أولاً؛ هو بالحديث أم هي بالاستماع.

وصلت وجبة العشاء بأطباقها الشهية المتنوعة. وبعد أن انتهوا من تناول عشائهم، غنّوا معاً بصوت مرتفع وبنشاز؛ ممّا جذب تصفيقاً شديداً ومسلياً من الزبائن الآخرين الجالسين إلى الطاولات المجاورة. أطفأت أليس الشمعة الوحيدة على قطعتها من حلوى الشوكولاتة الدافئة. وعندما رفع الجميع كؤوسهم، رفع جون كأسه أعلى من كؤوس الآخرين بقليل.

وقال: «ذكرى ميلاد سعيدة يا زوجتي الجميلة والرائعة. نخب السنوات الخمسين القادمة!».

ونقر الجميع كؤوسهم ببعضها وشربوا.

في حمام السيدات، تفحصت أليس صورتها في المرآة. لم يكن وجهها الأكبر سناً المنعكس على صفحة المرآة يشبه تماماً الصورة التي رسمتها لنفسها في عين عقلها. فعيناها البنيتان الذهبيتان بدتا متعبتين رغم أنها نالت قسطاً جيداً من الراحة، كما اكتسبت بشرتها تهدّلاً وشحوباً. بدا من الواضح أنها أكبر من سنّ الأربعين، ولكن لا يمكنها القول إنها بدت مسنة. لم تعد تشعر بأنها في مقتبل العمر، وأدركت أنها تتقدم في السن. وأعلن دخولها مرحلة جديدة أخرى من العمر عن نفسه بشكل تدريجي؛ عن طريق تدخل حالات النسيان غير المرحب بها والمترافقة مع سن اليأس. وخلافاً لذلك، شعرت أنها شابة وقوية وموفورة الصحة والعافية.

فكرت في أمها. فقد كانتا تشبهان بعضهما بعضاً، ولكنْ لم تكن ذكراها عن وجه أمه الجاد والموحي بالتركيز والمرصع بالنمش على أنفها وخديها تتضمن أي تهدل أو تجاعيد في بشرتها. فهي لم تعش وقتاً طويلاً لتكتسب أي تجاعيد. فقد توفيت وهي في الحادية والأربعين من عمرها. وكانت آن أخت أليس ستبلغ الثامنة والأربعين من العمر الآن لو أنها على قيد الحياة. حاولت أليس أن تتخيل ما كانت ستبدو عليه أختها آن الآن وهي جالسة في الحجرة الصغيرة مع زوجها وأولادها، ولكنها عجزت عن رسم أي صورة لها في مخيلتها.

وعندئذ، حدث ما لم يكن في الحسبان؛ فقد شعرت ببداية أعراض الدورة الشهرية. ورغم أنها أدركت أن الدورة الشهرية في بداية مرحلة اليأس تأتي غالباً بشكل غير منتظم، وأنها لا تختفي فجأة، إلا أن فكرة عدم بداية مرحلة انقطاع الطمث لديها تسللت إليها، وأنشبت مخالبها بها رافضة التخلي عنها.

والآن، تخلت عنها عزيمتها التي خفّف الشراب منها، وأجهشت بالبكاء بشدة؛ إلى أن بدأت تعاني من صعوبة في تنشق هواء كافٍ. فقد بلغت الخمسين من عمرها، وشعرت أنها ستفقد عقلها.

دق شخص ما على الباب.

وسألت آنا: «أمي، هل أنت بخير؟».

تشرين الثاني 2003

كانت عيادة الدكتورة تامارا موير تقع في الطابق الثالث في مبنى مؤلف من خمسة طوابق على بعد بضعة شوارع غرب ساحة هارفرد، في مكان غير بعيد عن المكان الذي كادت فيه أليس أن تتوه لبرهة وجيزة. لم توحِ غرف الانتظار والفحص المزينة بصور فوتوغرافية وإعلانات عن أدوية بأي دلالات سلبية لأليس. فخلال السنوات الاثنتين والعشرين التي قامت فيها الدكتورة موير بدور طبيبة أليس الخاصة، ذهبت إليها من أجل إجراء الفحوصات الوقائية فقط لا غير؛ كالفحوصات الجسدية الدورية ومعززات المناعة. ومنذ فترة قصيرة، بدأت بإجراء صور أشعة للثديين.

سألت الدكتورة موير: «ما الذي أتى بك اليوم يا أليس؟».

«في الآونة الأخيرة، بدأت أعاني من مشكلات كثيرة في الذاكرة. فرحت أعزوها إلى مشاكل انقطاع الطمث لأنني لم أحِض منذ ستة أشهر تقريباً، ولكنني حِضت مجدداً في الشهر الماضي، لذا لست في مرحلة انقطاع الطمث. وهكذا، خطر ببالي أنه ينبغي لي أن آتي لمراجعتك».

سألت الدكتورة موير وهي تكتب من دون أن ترفع رأسها: «ما هي الأشياء التي تنسينها بالتحديد؟».

«إنني أنسى بعض الأسماء والكلمات أثناء الحديث، كما أنسى المكان الذي وضعت فيه هاتفي، والسبب الذي جعلني أدوِّن شيئاً ما على لائحة مهماتي اليومية».

«حسناً».

تأملت أليس طبيبتها عن كثب، ووجدت أن اعترافها لم يفصح عن أي شيء. فقد تلقت الدكتورة موير المعلومات وكأنها رجل دين يصغي إلى اعتراف فتى

مراهق بأن أفكاراً غير بريئة تراوده. لا بد أنها سمعت هذا النوع من الشكاوى على الأرجح من أناس بكامل الصحة والعافية مرات لا حصر لها في اليوم. كادت أليس تعتذر لأنها شديدة الخوف وسخيفة، ولأنها أضاعت وقت طبيبتها بهذه الشكوى. فالجميع ينسون هذا النوع من الأشياء، ولا سيما عندما يتقدمون في السن. وإن أضفنا إلى ذلك مرحلة سن اليأس وعادتها في القيام بالكثير من المهام المتعددة في آن معاً، فهذا النوع من النسيان يبدو صغيراً وعادياً وعديم الأذى، حتى إنه متوقع بشكل منطقي. فالجميع يعانون من التوتر والإرهاق، والجميع عرضة للنسيان.

«لقد انتابتني حالة من الارتباك وأنا في ساحة هارفرد، فلم أعد أعرف أين أنا لبضع دقائق، غير أنني استعدت صوابي بعد ذلك».

توقفت الدكتورة موير عن توثيق الأعراض على ورقة تشخيصها ونظرت إلى أليس مباشرة. فقد لفت ذلك نظرها.

«هل شعرت بأي ضيق في صدرك؟».

«كلا».

«هل شعرت بأي خدر أو تنميل».

«كلا».

«هل عانيت من صداع أو انتابك دوار؟».

«كلا».

«هل لاحظت تسارعاً في نبضات القلب؟».

«شعرت بقلبي يخفق بعنف، ولكن ذلك حدث بعد أن أصبت بالارتباك؛ وهو أشبه باندفاع الأدرينالين استجابة لخوفي وفزعي. وأتذكر أنني في الواقع كنت بحالة رائعة قبل أن يحدث ذلك بوقت قصير».

«هل حدث أي شيء غير اعتيادي لك في ذلك اليوم؟».

«كلا، كنت عائدة للتو من لوس أنجلوس».

«هل تعانين من هبات ساخنة؟».

«كلا. في الواقع، شعرت بما يمكن أن تكون هبة ساخنة عندما أصابني

التشوش، ولكنني أظن أن هذا حدث من جراء شعوري بالفزع ليس إلا».

«حسناً، كيف حال نومك؟».

«جيد».

«كم ساعة تنامين في الليلة الواحدة؟».

«أنام خمس ساعات أو ستاً».

«أهذا يعتبر تغييراً عما كنت عليه في الماضي؟».

«كلا».

«هل تعانين من مشاكل في الاستغراق في النوم؟».

«كلا».

«كم مرة تستيقظين عادة أثناء الليل؟».

«لا أظن أن هذا يحدث لي».

«هل تأوين إلى الفراش في الوقت نفسه كل ليلة؟».

«نعم عادة، باستثناء فترة السفر، وهذا يحدث كثيراً مؤخراً».

«إلى أين سافرت؟».

«في الأشهر القليلة الماضية، سافرت إلى كاليفورنيا وإيطاليا ونيو أورلينز وفلوريدا ونيوجيرسي».

«هل عانيت من الغثيان في أي من هذه الرحلات؟ هل عانيت من حمى؟».

«كلا».

«هل تتناولين أي عقاقير أو أي شيء للحساسية أو مكملات غذائية أو أي شيء قد لا تعتبرينه في الأحوال العادية دواء؟».

«مجرد حبة فيتامينات متعددة».

«هل تعانين من حرقة المعدة؟».

«كلا».

«هل طرأت تغييرات على وزنك؟».

«كلا».

«هل تعانين من نزيف في البول أو البراز؟».

«كلا».

طرحت الطبيبة كل سؤال بسرعة في أعقاب السؤال الذي سبقه، بينما قفزت من موضوع إلى آخر قبل أن يتسنى لأليس الوقت الكافي لتدرك المنطق الكامن وراء تلك الأسئلة. وشعرت أنها تركب لعبة أفعوانية وعيناها مغمضتان، ولم تستطع أن تتوقع الطريق الذي ستتجه إليه.

«هل تشعرين أنك أكثر قلقاً وتوتراً من المعتاد؟».

«فقط بسبب عدم قدرتي على تذكر الأشياء. وخلافاً لذلك، كلا».

«كيف هي علاقتك بزوجك؟».

«جيدة».

«هل تظنين أن مزاجك جيد نسبياً؟».

«نعم».

«هل تعتقدين أنك قد تكونين مصابة بالاكتئاب؟».

«كلا».

وكانت أليس على دراية بالاكتئاب وأعراضه. فبعد وفاة أمها وأختها وهي في الثامنة عشرة من عمرها، فقدت كل شهيتها، ولم تعد قادرة على النوم لأكثر من بضع ساعات- رغم شعورها الدائم بالتعب- وفقدت كل اهتمام بالاستمتاع بأي شيء. واستمرت معها تلك الحالة لأكثر من سنة بقليل، ولكنها لم تمر بحالة كتلك منذ ذلك الحين. أما هذا الوضع، فقد بدا مختلفاً كلياً، ولا يمكن تفاديه بمجرد أخذ دواء مضاد للاكتئاب.

«هل تحتسين الشراب؟».

«في المناسبات الاجتماعية فقط».

«كم كأساً تشربين؟».

«كأساً أو اثنتين مع العشاء، وربما أكثر بقليل في المناسبات الخاصة».

«هل تستخدمين أية عقاقير؟».

«كلا».

نظرت الدكتورة موير إليها وهي مستغرقة في التفكير، ونقرت بقلمها على الملاحظات وهي تقرأها مرة أخرى. وشكّت أليس في أن يكون الجواب موجوداً في أي مكان على تلك الورقة.

فسألتها وهي تقبض على ذراعَي الكرسي المكسو بالجلد بكلتا يديها: «إذاً، هل أمرُّ بمرحلة انقطاع الطمث؟».

«نعم. يمكننا أن نجري لك فحصاً متخصصاً للهرمونات، ولكنّ كل ما قلته منسجم تماماً مع عوارض انقطاع الطمث. إن معدل العمر الذي تبدأ فيه هذه المرحلة هو من الثامنة والأربعين إلى الثانية والخمسين. إذاً، أنت في السن المناسبة، ولكن من الممكن أن تستمري بالحيض بضع مرات لمدة سنة أو نحو ذلك، وهذا طبيعي تماماً».

«هل يمكن لتناول بديل الإستروجين أن يساعدني في التخلص من مشاكل النسيان؟».

«إننا لا نصف مكملات الإستروجين للنساء بعد الآن ما لم يعانين من اضطرابات شديدة في النوم، أو من هبات ساخنة مريعة للغاية، أو من هشاشة العظام من قبل ذلك. ولا أظن أن مشاكل ذاكرتك لها علاقة بانقطاع الطمث».

تصاعد الدم إلى رأس أليس؛ فقد سمعت لتوها الكلمات ذاتها التي لطالما خشيتها، ولكنها تجرأت مؤخراً فقط على التفكير فيها. فبعد هذا الرأي الطبي المحترف الذي قدمته لها الطبيبة، تبعثر تفسيرها الآمن الوحيد، وأيقنت أن هناك خطباً ما بها، ولكنها لم تظن أنها مستعدة لسماعه. حاولت أن تقاوم الهاجس المتفاقم في داخلها، والذي راح يتوسل إليها لكي تستلقي على الأرض أو تهرع خارجة من غرفة الفحص تلك فوراً.

«لم لا؟».

«إن أعراض اضطرابات الذاكرة والتشوش الذهني في مرحلة انقطاع الطمث تعتبر ثانوية ومرتبطة بقلة النوم. فأولئك النساء لا يتكيفن بشكل جيد من الناحية الإدراكية لأنهن لا ينلن القدر الكافي من النوم. ومع ذلك، من المحتمل أنك لا تنامين بقدر كافٍ كما تظنين، وربما يكون برنامجك الحافل ومعاناتك من السفر

يدقّان ناقوسهما، وربما تقلقين حيال الأشياء خلال الليل».

فكرت أليس في المرات التي عانت فيها من تشوش التفكير الناجم عن نوبات من الحرمان من النوم. من المؤكد أنها لم تعش أفضل حالاتها العقلية خلال الأسابيع الأخيرة من كل فترة حمل ثم ولادة كل من أولادها، وفي بعض الأوقات عندما كانت تواجه موعداً نهائياً مهماً. ومع ذلك، لم يحدث في أي من تلك الظروف على أية حال أنها تاهت في ساحة هارفرد.

«ربما. أيمكن أن نقول إنني أصبحت فجأة بحاجة الى المزيد من النوم لأنني أكبر في السن أو لأنني في مرحلة انقطاع الطمث؟».

«كلا. إنني لا أرى هذا في العادة».

فسألتها الآن بعد أن غاب كل من الوضوح والثقة بشكل كامل عن نبرة صوتها: «إن لم يكن السبب هو قلة النوم، فماذا تظنين السبب إذاً؟».

«حسناً، إنني قلقة بسبب التشوش الذهني بالتحديد. لا أظن أنها مشكلة وعائية، لذا أظن أنه ينبغي لنا أن نجري بعض الفحوصات. سأرسلك لإجراء تحليل دم وفحص للثديين وفحص لكثافة العظام لأن الوقت قد حان لذلك، وسأخضعك لتصوير بالرنين المغناطيسي للدماغ».

ورم دماغي! لم يخطر ذلك ببالها، ولكن هذا المرض الفتاك لاح في مخيلتها الآن، وأحست بمشاعر الفزع وهي تبدأ بالاحتشاد في داخلها مرة أخرى.

«إن كنت لا تظنين أنها سكتة دماغية، فلماذا تريدين تصوير الدماغ بالرنين المغناطيسي؟».

«من الجيد دائماً أن نقوم بإقصاء هذه الأسباب بشكل قطعي. لذا، احجزي موعداً للتصوير، ثم موعداً آخر لمقابلتي مباشرة، وسوف نقوم بدراسة كل شيء».

تجنبت الدكتورة موير الرد عن السؤال بشكل مباشر، ولكنّ أليس لم تضغط عليها لتكشف عن شكوكها، ولم تشاطرها نظريتها عن الورم. ولم يبق أمامهما كلتيهما سوى الانتظار لرؤية ما ستكشف عنه الأيام القادمة.

كان مبنى ويليام جيمس يضم أقسام كل من علم النفس والاجتماع وعلم طرائق البحث الاجتماعي، ويقع مباشرة خلف بوابات باحة هارفرد في شارع كيركلاند، وهي منطقة يشير إليها الطلاب ساخرين على أنها سيبيريا. ليس الموقع الجغرافي هو العامل الرئيس الذي جعل المبنى يبدو منعزلاً عن بقية حرم الجامعة، وليس من الممكن أن يخطئ المرء بين مبنى ويليام جيمس والأبنية الجامعية الكلاسيكية المزينة بباحة فخمة والتي تضم مهاجع طلاب السنة الأولى وصفوف الرياضيات والتاريخ واللغة الإنكليزية. ومع ذلك، من الوارد تماماً أن يظنه الناس خطأً مجرد مرأب لركن السيارات؛ نظراً إلى افتقاره للأعمدة الإغريقية والقرميد الأحمر والزجاج الملون والسقوف المدببة أو الردهة الفخمة أو أي تفصيل ملموس من الممكن أن يجعله يندمج بشكل واضح أو حتى طفيف مع مؤسسته الأم. فهو عبارة عن مبنى عادي التصميم، بارتفاع 210 أقدام، وبلون البيج. ومما يثير العجب، لم يتم ضمه قطّ إلى رحلات سير الطلاب أو وضعه في تقويم هارفرد الربيعي أو الصيفي أو الشتوي أو الخريفي.

على الرغم من أن منظر مبنى ويليام جيمس بشع بلا أي شك، إلّا أن المنظر الذي يطل عليه– وبالتحديد من المكاتب أو قاعات الاجتماع في الطوابق العلوية– أقل ما يقال في حقه هو أنه يأخذ بالألباب. وهكذا، جلست أليس اليوم باسترخاء إلى طاولة مكتبها في الطابق العاشر، مستمتعة بشرب الشاي وتأمل جمال منظر نهر تشارلز وخليج بوسطن باك الذي يحيط به إطار نافذتها الضخمة المطلة على الجنوب الشرقي. كانت هذه النافذة تطل على منظر ربما يود الكثير من الفنانين أو المصورين رسمه وتصويره بالزيت أو الألوان المائية أو الكاميرات؛ حيث إنه منظر يستحق بالفعل أن يُرى محاطاً بأطر ومعلقاً على جدران المكاتب في أنحاء منطقة بوسطن كافة.

شعرت أليس بالامتنان حيال الامتياز الرائع المتاح لها ولأولئك الذين حالفهم الحظ لمشاهدة الصورة الحية لهذا المنظر الطبيعي الرائع. ومع تغيّر الوقت خلال اليوم أو السنة، لاحظت من خلال الصورة التي تظهر خلف نافذتها أن النوعية

والحركة تتغيران بطرائق كثيرة مثيرة للاهتمام ولا حصر لها. ففي هذا الصباح المشمس من شهر تشرين الثاني، بدا المنظر الذي أطلت عليه أليس خريفياً، وتلألأت الشمس فوق نهر تشارلز، فبدا وكأنه كأس شراب يلمع، فيما بضعة قوارب بمجاذيف تمخر عباب الماء على طول النهر الفضي متجهة نحو متحف العلوم، وكأن هناك من يشدها بالخيط.

زوّدها ذلك المنظر أيضاً بإطلالة صحية تبقيها على صلة بالحياة خارج حدود هارفرد. فلمحة واحدة إلى اللوحة المضاءة بمصابيح النيون على خلفية السماء المظلمة فوق متنزه فينوي اعتادت أن تنبه جهازها العصبي، كرنين مفاجئ للساعة المنبهة التي توقظها من السبات اليومي الذي تدفنها فيه طموحاتها والتزاماتها، فتنبه ذهنها إلى فكرة العودة إلى البيت. قبل عدة سنوات، وقبل أن يتم تثبيتها في وظيفتها، كان مكتبها يقع في غرفة صغيرة لا نوافذ لها داخل مبنى جيمس ويليام. وفي ذلك المكتب الذي جعلها تفتقر إلى التواصل البصري مع العالم خارج جدران المبنى، اعتادت أليس على الانهماك في العمل حتى الليل من دون حتى أن تنتبه إلى ذلك. وقد حدث في أكثر من مناسبة أنها صعقت في نهاية اليوم عندما اكتشفت أن عاصفة ثلجية قد طمرت كامبريدج بالثلج بسماكة تتجاوز قدماً، وأن زملاءها الأقل تركيزاً حيال عملهم أو الذين يملكون نوافذ في غرفهم دفعتهم الحكمة إلى هجر مبنى ويليام جيمس بحثاً عن الخبز والحليب وورق الحمام ودفء البيت.

ولكن، الآن توجب عليها أن تكف عن النظر من النافذة. فقد تذكرت أن عليها المغادرة في وقت متأخر من عصر اليوم لحضور الاجتماع السنوي لجمعية علم النفس العقلي في شيكاغو، وأن لديها أكواماً متراكمة من العمل لتنجزها قبل ذلك. فقامت بمراجعة لائحة مهامها.

مراجعة بحث علم الأعصاب الطبيعي. (أنجز)

اجتماع القسم. (أنجز)

لقاء مع المدرس المساعد. (أنجز)

محاضرة علم الإدراك.

إنهاء ملصق الاجتماع وخط الرحلة.
الجري.
المطار.

شربت آخر ما تبقى في كأس الشاي المثلج، وأخذت تقرأ ملاحظات محاضرتها. وكانت محاضرة اليوم تركز على علم المعاني، أي معاني اللغة، وهي المحاضرة الثالثة من بين ست محاضرات في علم اللغويات؛ وهي السلسلة المفضلة لديها في هذا المنهج. وحتى بعد مضي خمس وعشرين سنة من التدريس، ظلت أليس تخصص ساعة كاملة للتحضير قبل المحاضرة. وبعد هذه المرحلة من مهنتها بالطبع، باتت قادرة على إلقاء خمسة وسبعين بالمئة من محاضرتها بشكل دقيق من دون أي تفكير. ومع ذلك، نسبة الخمس والعشرون بالمئة المتبقية تحتوي على آراء وتقنيات مبدعة، أو مواضيع للنقاش من المكتشفات الحديثة في هذا المجال. وقد اعتادت أليس على أن تستغل الوقت الذي يسبق المحاضرة مباشرة بأن تعيد تنظيم هذه المادة الجديدة وترتيبها. فكان إدراج المعلومات دائمة التطور يشعل حماستها بشكل دائم حول مواضيع منهجها، ويجعلها حاضرة الذهن في كل محاضرة من محاضراتها.

يميل التركيز في جامعة هارفرد بشكل كبير نحو أداء الأبحاث، لذا اضطر كل من الطلاب والإدارة إلى تحمل الكثير من التدريس المتواضع. أما التركيز الذي بذلته أليس على تدريسها، فقد حفّزها إليه يقينها من أن الواجب يقع على عاتقها، وأن الفرصة متاحة لها لكي تشكل مصدر إلهام للجيل القادم في هذا المجال، أو على أقل تقدير ألا تكون السبب في دفع شخص ذي مستقبل عظيم في مجال الإدراك للتخلي عن علم النفس والتخصص في العلوم السياسية بدلاً من ذلك. وبالإضافة إلى ذلك، كانت ببساطة تعشق التدريس.

وعندما أصبحت مستعدة للمحاضرة، تفقدت بريدها الإلكتروني.

أليس،

ما زلنا ننتظر إدراج الشرائح الثلاث في محاضرة مايكل. وهي عبارة عن رسم بياني لاستعادة الكلمات، ونموذج لرسم متحرك لغوي، وشريحة نص واحدة. لن يلقي كلمته قبل يوم الخميس عند الساعة الواحدة، ولكنّ إضافته شرائحك إلى عرضه بأقصى سرعة ممكنة ستكون فكرة جيدة. لذا، احرصي على أن تسهلي الأمور عليه، وعلى أن يحدث ذلك ضمن الوقت المحدد. يمكنك أن ترسليها بالإيميل إما لي أو لمايكل.

نحن مقيمان في هيات. نراك في شيكاغو.

تحياتي.

إريك غرينبيرغ.

شعرت أليس أن هناك مصباحاً بارداً وصدئاً أنير فجأة في مكان ما داخل رأسها. فهذا هو ما عناه اسم إريك على إحدى لوائح مهامها في الشهر الفائت. ولم يكن الاسم يشير إلى إريك ويلمان بأي حال من الأحوال. ولا بد أنها قصدت بتلك الملاحظة أن تذكر نفسها بإرسال الشرائح بالإيميل إلى إريك غرينبيرغ، وهو زميل سابق في هارفرد وأستاذ حالي في قسم علم النفس في جامعة برينستون. وكان دان وأليس قد عملا على تأليف ثلاث شرائح تصف تجربة سريعة أجرياها معاً. وكان دان قد قام بدور المشاركة مع مايكل– تلميذ إريك– حيث سيشاركه مايكل في كلمته التي سيلقيها في اجتماع علم النفس العقلي. وهكذا، وقبل القيام بأي شيء آخر قد يشتت انتباهها، أرسلت أليس الشرائح بالإيميل، وأرفقت معها أخلص اعتذاراتها إلى إريك. ولحسن الحظ، ظل أمامه متسع من الوقت، لذا لم يحدث أي ضرر.

كما هو الحال بالنسبة إلى كل شيء في هارفرد، تم تصميم مدرج المحاضرات المستخدم لصف الإدراك الذي تدرِّسه أليس بفخامة زائدة. فقد تم تنسيق الكراسي الزرقاء المنجدة في مدرج يستوعب عدداً أكبر من عدد الطلاب الملتحقين بالمادة

بعدة مئات. كما تم تركيب مركز صوتي مرئي حديث رائع في مؤخر الغرفة، وكانت شاشة عرض بحجم تلك التي تستخدم في دور السينما معلقة في المقدمة. وبينما انهمك ثلاثة رجال بوصل عدد من الكابلات المتنوعة إلى كمبيوتر أليس، وبتفقّد الإضاءة والصوت، شرع الطلاب بالدخول. ففتحت أليس ملف «محاضرات علم اللغويات» على كمبيوترها المحمول.

كان المجلد يحتوي ستة ملفات، وهي: «الاكتساب»، و«علم النحو»، و«علم المعاني»، و«الفهم»، و«النمذجة»، و«علم الأمراض». قرأت أليس العناوين مرة تلو الأخرى، ولكنها لم تستطع أن تتذكر أي محاضرة يتوجب عليها أن تلقي لهذا اليوم. فرغم أنها أمضت الساعة الأخيرة وهي تبحث في أحد هذه المواضيع، إلا أنها عجزت الآن عن تذكّر أي واحد منها هو. هل هو علم النحو؟ بدت جميعها مألوفة بالنسبة إليها، ولكنّ أياً منها لم يكن بارزاً عن بقية المواضيع.

منذ زيارتها الأخيرة للدكتورة موير، أصبحت حدة هاجس أليس تتفاقم كلما نسيت شيئاً ما، فهذا يختلف عن مجرد نسيانها للمكان الذي وضعت فيه شاحن هاتفها المحمول، أو المكان الذي وضع فيه جون نظارته، ولا يعتبر عارضاً طبيعياً. فبدأت نفسها تحدّثها بصوت معذب ومفعم بالشك، بأنها على الأرجح مصابة بورم دماغي. ولكنها أمرت نفسها أيضاً بألا تفزع أو تثير قلق جون إلى أن تسمع الصوت الأكثر خبرة للدكتورة موير؛ وهو لسوء الحظ أمر لن يحدث حتى الأسبوع القادم؛ أي بعد انتهاء مؤتمر علم النفس العقلي.

صمّمت على أن تجعل الساعة التالية تمضي بسلام، فأخذت نفساً عميقاً والإحباط يعتريها. ورغم أنها لم تتذكر موضوع محاضرة اليوم، إلا أنها تذكرت بكل تأكيد من هم جمهورها.

فسألت أليس الطلاب: «من فضلكم، هل يستطيع أحدكم أن يخبرني عن المحاضرة المذكورة على منهجكم لهذا اليوم؟».

فصاح عدد من الطلاب بصوت جماعي: «علم المعاني».

على الأقل، لقد راهنت بشكل صحيح على أن بعض طلابها سيستغلّون الفرصة ليثبتوا لها أنهم محبون للمساعدة ومثقفون. لم يتملكها القلق ولو للحظة

بأن يعتبر بعضهم أنه من المحزن أو الغريب ألا تتذكر موضوع محاضرة اليوم؛ فهناك هوة كبيرة في المعرفة والقوة تفصل بين الطلاب والأساتذة.

وبالإضافة إلى ذلك، على مدى الفصل الدراسي بكامله، شهد الطلاب على أشياء كثيرة تثبت كفاءتها في التدريس، وتعجبوا من حضورها الطاغي في طرح مادة المنهج. ولو خطر لهم أي تساؤل حيال الموضوع، فعلى الأرجح سيظنون أنها تعرضت لتشويش ذهني بسبب التزاماتها الأخرى الأكثر أهمية من هذه المحاضرة، حيث لم يتسنَّ لها الوقت الكافي للنظر إلى جدول المنهج قبل أن تصل إلى المدرج. ومع ذلك، لم يعلموا أنها أمضت الساعة الفائتة لتوها في التركيز بشكل شبه حصري على علم المعاني.

انقلب اليوم المشمس إلى غائم وبارد بحلول المساء، وتلك أولى علامات بداية فصل الشتاء. وكان قد هطل مطر غزير في الليلة الفائتة، مجرِّداً ما تبقى من أغصان مكسوة بالأوراق من أوراقها، وتاركاً الأشجار شبه عارية ولا تكاد تقوى على تحمل فصل الشتاء الوشيك. استمتعت أليس بوقتها بالعودة إلى البيت سيراً على الأقدام وهي متدثرة بسترتها القطنية السميكة، كما استمتعت برائحة هواء الخريف البارد، وصوت تكسر الأوراق الهشة تحت قدميها وهي تشق طريقها عبر أكوام من الأوراق المتساقطة على الأرض.

وجدت المصابيح في بيتها منارة، وحقيبة جون وحذاءه موضوعين بجانب الطاولة عند الباب.

قالت أليس: «مرحباً، لقد عدت إلى البيت».

خرج جون من مكتبه، وأخذ يحدق إليها بارتباك وكأنه لا يجد كلمات يتفوه بها. فراحت أليس تحدق إليه بدورها منتظرة منه أن يقول شيئاً ما، بينما اعتراها التوتر لأنها أدركت أن هناك خطباً مريعاً قد حدث. وتسارعت أفكارها على الفور نحو أولادها، فوقفت متسمرة عند مدخل الباب وهي تحصن نفسها قبل سماع الأخبار المريعة.

«ألا يفترض بك أن تكوني في شيكاغو؟!».

قالت الدكتورة موير: «حسناً يا أليس، كل تحاليل الدم التي أجريتها أتت طبيعية، كما أن تصوير الرنين المغناطيسي الذي خضعت له جيد. يمكننا الآن القيام بأحد أمرين. إما أن ننتظر لنرى كيف ستسير الأمور ونراقب طبيعة نومك وأدائك لمهامك في الأشهر الثلاثة القادمة، أو أن...».

«إنني أريد أن أستشير طبيب أعصاب».

كانون الأول 2003

في ليلة الاحتفال بذكرى ميلاد إريك ويلمان، بدت السماء ملبّدة بالغيوم، وكأنها على وشك أن تثلج. تمنّت أليس أن يحدث ذلك، فهي كمعظم سكان نيو إنجلند لم تتخل قطّ عن ترقبها الطفولي لأول هطول للثلج في موسم الشتاء. ومع ذلك، ما تمنته الآن في شهر كانون الأول سرعان ما ستكرهه في شهر شباط، وستكره معه رفشها وحذاءها الشتوي، وستصبح تواقة لاستبدال برد الشتاء وصقيعه الذي لا ينتهي بخضرة الربيع وزهوره اليانعة، ولكنها هذه الليلة فكرت في أن هطول الثلج سيبدو أمراً لطيفاً.

في كل سنة، اعتاد إريك وزوجته مارجوري أن يقيما حفلة في بيتهما لكامل قسم علم النفس. لم يحدث أي شيء خارج عن المألوف في هذه المناسبة قط، ولكنّ هناك لحظات صغيرة لم تسمح أليس لنفسها بأن تفوتها، مثل النظر إلى إريك وهو جالس بكل راحة على الأرض في غرفة المعيشة المليئة بالطلاب، وصغار الأساتذة الجالسين على الأرائك والكراسي.

كان جميع زملائها أذكياء، ومحبين للمساعدة والنقاش، وطموحين، ومتواضعين. ولطالما شعرت أنهم معها أشبه بالعائلة الواحدة. تملكها هذا الشعور ربما لأنه ليس لديها والدان أو إخوة على قيد الحياة، وربما لأن هذا الوقت من السنة يجعلها عادة عاطفية وباحثة عن معنى الحياة والانتماء. قد يكون هذا جزءاً من السبب، ولكنْ هناك المزيد.

لقد اعتبرتهم أكثر من مجرد زملاء بالمهنة. فقد احتفلوا بانتصارات بعضهم بعضاً، وبالاكتشافات التي حققوها، وبترقيتهم ونشر كتبهم. ليس ذلك فقط، بل حضروا كذلك حفلات زفاف بعضهم بعضاً وحفلات الولادة، واحتفلوا معاً بإنجازات أولادهم وأحفادهم. واعتادوا السفر مع بعضهم لحضور المؤتمرات

والاجتماعات في أنحاء العالم كافة، والتخطيط لها مع إجازات عائلية. وكما هو الحال في أية عائلة، لا تقتصر العلاقة في ما بينهم على الأوقات السعيدة والاستمتاع بتناول الكعك بالجبن اللذيذ، بل على دعمهم بعضهم بعضاً لتخطي الأوقات الصعبة والتعايش مع الفشل ومشاعر الشك الذاتي المحبط والأمراض والطلاق.

ولكن هؤلاء الأساتذة اعتادوا أكثر من أي شيء على أن يشاطروا بعضهم بعضاً سعيهم الحثيث لفهم العقل، ومعرفة الآليات التي تؤثر في سلوك البشر ولغتهم وعواطفهم وشهيتهم. ورغم أن السعي وراء ذلك ينطوي على طاقة فردية وقيمة، فهو في صميمه جهد مشترك ينصبّ للتوصل إلى شيء ذي قيمة، ولتقديمه إلى العالم. فبدت علاقتهم أشبه باشتراكية تمدها الرأسمالية بالطاقة، أو عبارة عن حياة تنافسية دماغية غريبة وذات امتياز يعيشون فيها جميعاً مع بعضهم بعضاً.

بعد أن أتى الناس على كعك الجبن بالكامل، أخذت أليس آخر قطعة من الحلوى بالكريما وبحثت عن جون. عثرت عليه في غرفة المعيشة، وهو يجري حديثاً مع إريك ومارجوري. ووصل دان في اللحظة نفسها.

عرفهم دان إلى زوجته الجديدة بيث. فتلقيا كلاهما أحر التهاني، وصافحا الجميع، ثم أخذت مارجوري معطفيهما. كان دان يرتدي بذلة ويضع ربطة عنق، بينما ارتدت بيث فستاناً أحمر طويلاً يصل حتى الأرض. وبسبب تأخرهما ولباسهما الرسمي غير الملائم تماماً لهذه الحفلة، خمنت أنهما على الأرجح حضرا حفلة أخرى قبل ذلك. عرض عليهما إريك أن يحضر لهما شراباً.

فقالت أليس: «سأتناول كأساً أخرى أيضاً». رغم أن كأسها كانت لا تزال نصف ممتلئة في يدها.

سأل جون بيث عن رأيها بالحياة الزوجية حتى الآن. ورغم أنهما لم تكونا قد التقتا من قبل، إلّا أن أليس عرفت بعض المعلومات عنها من دان. كانت بيث تعيش معه في أتلانتا عندما تم قبوله في هارفرد، فبقيت في أتلانتا، وكانت مسرورة لعلاقتها الطويلة معه، ووعده لها بالزواج بها بعد تخرجه. وبعد ثلاث سنوات، وجد دان أن الأمر قد يستغرق منه خمس أو ست أو حتى سبع سنوات لينهي دراسته، فتزوجا في الشهر الفائت.

استأذنت أليس لتذهب إلى حمام السيدات. وبينما هي في طريقها إلى هناك، تلكأت قليلاً في الممر الطويل الذي يصل بين الباب الأمامي الجديد للبيت والباب الخلفي القديم، وهي تنهي آخر رشفة من شرابها وما تبقى من قطعة الحلوى، وتتأمل بإعجاب صور أحفاد إريك الذين قابلتها وجوههم السعيدة على الجدران. وبعد أن عثرت على الحمام واستخدمته، دخلت المطبخ، وصبت لنفسها كأساً أخرى، ووجدت نفسها أسيرة لحديث صاخب بين زوجات مدرسي الكلية.

تحركت النسوة في أنحاء المطبخ وأكتافهن وأذرعهن تتلامس بعفوية. فقد كنّ يعرفن شخصيات بعضهن وقصص بعضهن بعضاً، ويمدحن ويغظن بعضهن بعضاً، ويتضاحكن بكل سلاسة وسهولة. واعتدن أن يترافقن للتسوق وتناول الغداء وحضور نوادي الكتب، وهذا ما جعلهن على علاقة مقربة. أما أليس، فقد كانت مقربة من أزواجهن، وهذا ما جعلها منعزلة عنهن. فراحت في معظم الوقت تصغي إليهن وهي تشرب من كأسها، وتومئ برأسها، وتبتسم وتتابع حديثهن من دون أن يستحوذ على اهتمامها؛ وكأنها تجري على آلة الجري في البيت بدلاً من الجري في طريق حقيقي.

أعادت ملء كأس شرابها مجدداً، وتسللت من المطبخ من دون أن تلاحظ ذلك أي منهن، وعثرت على جون في غرفة المعيشة منهمكاً بمحادثة مع إريك ودان وشابة ترتدي فستاناً أحمر. وقفت أليس بجانب البيانو الكبير الخاص بإريك، وداعبت مفاتيحه بأطراف أصابعها وهي تصغي إلى حديثهم. لطالما تمنت أليس أن يتطوع أحد الحضور للعزف عليه، ولكن أحداً لم يفعل ذلك قط. كانت وشقيقتها آن قد أخذتا دروساً في العزف لعدة سنوات في طفولتهما، ولكنها الآن لم تعد تتذكر سوى بضع معزوفات صغيرة بدون اللجوء إلى النوتة الموسيقية، وباليد اليمنى فقط. خطر ببالها أن تلك الفتاة ذات الثوب الفاخر ربما تجيد العزف.

وعندما توقفت المحادثة هنيهة، التقت عينا أليس عيني الشابة.

فقالت أليس: «أرجو المعذرة، اسمي أليس هولاند. لا أظن أننا التقينا من قبل».

نظرت المرأة إلى دان بتوتر قبل أن تجيب قائلة: «أنا بيث».

بدت صغيرة في السن بما فيه الكفاية لكي تكون طالبة في مرحلة ما بعد التخرج. ولكن بحلول شهر كانون الأول، كانت أليس على الأقل ستميّز طالبة في السنة الأولى. فتذكرت أن مارتي ذكر لها أنه وظّف زميلة له لما بعد الدكتوراه.

فسألت أليس: «هل أنت زميلة مارتي الجديدة؟».

نظرت المرأة إلى دان مرة أخرى، ثم قالت: «إنني زوجة دان».

«آه، من اللطيف أن ألتقيك أخيراً. تهانينا».

لم ينبس أحد بكلمة. فتنقلت نظرة إريك من عينَي جون إلى كأس الشراب في يد أليس، ثم إلى جون مرة أخرى حاملة سراً صامتاً لم تدركه أليس.

قالت أليس: «ماذا؟».

فقال جون: «لقد تأخرت، ويجب علي النهوض باكراً غداً. هل تمانعين أن نذهب الآن؟».

حالما خرجا، أرادت أن تسأل جون عن سبب الارتباك الذي حصل منذ قليل، ولكن سرعان ما تشتت انتباهها بمتعة النظر إلى جمال ندف الثلج القطنية التي بدأت تتساقط قبل قليل بينما هم في الداخل، فنسيت.

قبل الكريسمس بثلاثة أيام، جلست أليس في غرفة الانتظار في وحدة اضطرابات الذاكرة في مستشفى ماساتشوستس العام في بوسطن متظاهرة أنها تقرأ مجلة الصحة. وبدلاً من ذلك، راحت تتأمل باقي المرضى المنتظرين الآخرين. فقد شاهدت امرأة تبدو أكبر منها بعشرين عاماً تجلس بجانب امرأة تبدو أكبر من المرأة الأولى بعشرين عاماً، وهي أمها على الأرجح. وجلست إلى جانب المرأتين امرأة أخرى ذات شعر شديد السواد، وتضع مجوهرات ذهبية كبيرة، وهي تتحدث بصوت مرتفع وببطء بلكنة بوسطنية ثقيلة مع والدها الذي يجلس على كرسي متحرك وينظر باستمرار إلى حذائه الأبيض الناصع. ورأت أليس امرأة نحيلة ذات شعر فضي تقلب صفحات إحدى المجلات بسرعة كبيرة من دون أن تقرأ منها شيئاً وهي جالسة بجانب رجل بدين ذي شعر يشبه شعرها، ففكرت في أنهما زوجان بلا شك.

استغرق انتظارها لسماع اسمها وقتاً طويلاً شعرت بأنه يمتد إلى الأبد، وشعرت به حتى أطول من ذلك. وعندما دخلت، قابلت الدكتور ديفيز الذي يتمتع بوجه شاب حليق، ويضع نظارة ذات إطار أسود، ويرتدي معطفاً طبياً أبيض غير مزرر. لاحظت أنه كان نحيلاً في السابق، ولكن القسم الأدنى من جذعه بدا مترهلاً قليلاً خارج فتحة معطفه الطبي؛ مما ذكر أليس بتعليقات توم حول العادات الصحية السيئة التي يتبعها الأطباء. جلس الطبيب على كرسي خلف مكتبه، ودعاها للجلوس مقابله.

«إذاً، يا أليس، أخبريني بما يجري معك».

«إنني أعاني من الكثير من المشاكل في التذكر. ولا تبدو لي هذه الأعراض طبيعية. فأنا أنسى كلمات في المحاضرات والمحادثات. ويجب عليّ أن أدوّن عبارة «محاضرة علم الإدراك» في لائحة مهامي وإلا فقد أنسى أن أدرّس المحاضرة. ونسيت تماماً أن أذهب إلى أحد المؤتمرات في شيكاغو وفوتّ رحلتي بالطائرة. وذات مرة، نسيت أين أنا لبضع دقائق حين كنت في ساحة هارفرد؛ رغم أنني أعمل أستاذة في جامعة هارفرد وأذهب إلى هناك كل يوم».

«منذ متى وهذه الأعراض تحدث معك؟».

«منذ أيلول الماضي، وربما خلال هذا الصيف».

«هل أتى أحد معك يا أليس؟».

«كلا».

«حسناً. في المستقبل، يجب أن تحضري برفقة أحد أفراد الأسرة أو أي شخص يراك بشكل منتظم. إذ إنك تعانين من مشكلة في ذاكرتك، لذا ربما لا يمكننا اعتبارك أكثر مصدر موثوق للمعلومات المتعلقة بالأمور التي تحدث معك».

شعرت بالإحراج وكأنها طفلة. وأزعجت عبارة «في المستقبل» أفكارها، واستدعت إليها هاجساً مرعباً كصوت قطرات المياه التي تنزل ببطء من الصنبور.

فقالت: «حسناً».

«هل تتناولين أي نوع من أنواع العقاقير الطبية؟».

«مجرد حبة فيتامينات متعددة».

«هل تتناولين أي حبوب للنوم أو الحمية أو أي عقاقير من أي نوع كان؟».

«كلا».

«كم هو مقدار استهلاكك للشراب؟».

«ليس بالكثير؛ أتناول كأساً أو اثنتين مع العشاء».

«هل أنت نباتية؟».

«كلا».

«هل تعرضت لأي نوع من الإصابات في رأسك في الماضي؟».

«كلا».

«هل خضعت لأي عمليات جراحية؟».

«كلا».

«كيف حال نومك؟».

«جيد تماماً».

«هل أصبت بالاكتئاب من قبل؟».

«لم يحدث ذلك منذ أن كنت في سن المراهقة».

«ما هو مستوى توترك؟».

«المعتاد. بوسعي تحمل الضغط بشكل جيد».

«أخبريني عن والديك. كيف هي صحتهما؟».

«توفيت أمي وأختي بحادث سيارة وأنا في الثامنة عشرة من عمري. أما والدي، فقد توفي إثر إصابته بفشل كبدي في السنة الماضية».

«أهو التهاب كبدي؟».

«بل تليف بالكبد، لأنه كان مدمناً على الشراب».

«كم كان عمره؟».

«إحدى وسبعين سنة».

«هل كان يعاني من مشاكل صحية أخرى؟».

«ليس على حد علمي. ولكنني في الحقيقة لم أره كثيراً خلال السنوات القليلة التي سبقت وفاته».

ولكنها حتى لو قابلته، لوجدته ثملاً وغير مترابط الكلام.

«ماذا عن باقي أفراد العائلة؟».

فسردت له معلوماتها المحدودة عن التاريخ الطبي لعائلتها الممتدة.

«حسنا، سأخبرك الآن باسم وعنوان وأريد منك أن تكرريهما لي. وبعد ذلك، سنفعل أشياء أخرى، ثم سأطلب منك أن تكرري لي الاسم والعنوان نفسيهما مجدداً في وقت لاحق. هل أنت مستعدة؟ هيا، فلنبدأ: جون بلاك. 42 شارع ويست ستريت برايتون. هل تستطيعين أن تكرري هذا الآن؟».

ففعلت ذلك.

«كم عمرك؟».

«خمسون عاماً».

«ما تاريخ اليوم؟».

«الثاني والعشرون من شهر كانون الأول عام 2003».

«في أي فصل من السنة نحن؟».

«فصل الشتاء».

«أين نحن الآن؟».

«في الطابق الثامن».

«هل تستطيعين أن تسمي لي أسماء بعض الشوارع القريبة من هنا؟».

«كامبريدج. فروت. ستورو درايف».

«حسناً، في أي وقت من النهار نحن الآن؟».

«الضحى».

«سمّي لي شهور السنة بالعكس ابتداء من كانون الأول».

ففعلت ذلك.

«عدي بالمقلوب من الرقم مئة، ستة ستة».

ففعلت، ثم طلب منها التوقف عندما وصلت إلى الرقم ستة وسبعين.

«سمّي لي هذه الأشياء».

أراها سلسلة من ست بطاقات عليها رسوم بقلم الرصاص.

«أرجوحة، ريشة، مفتاح، كرسي، نبات صبار، قفاز».

«قبل أن تشيري إلى النافذة، المسي خدك الأيمن بيدك اليسرى».

ففعلت ما طلبه.

«هل تستطيعين أن تكتبي جملة عن طقس اليوم على هذه الورقة؟».

فكتبت: «إنه صباح يوم مشمس من أيام الشتاء، ولكن الطقس بارد».

«والآن، ارسمي ساعة وحددي الوقت فيها على أنه الساعة الرابعة إلا عشرين دقيقة».

ففعلت.

«والآن، انسخي هذا التصميم».

وأراها صورة لشكلين خماسيين متقاطعين. فنسختهما.

«حسناً، يا أليس، اصعدي إلى طاولة الفحص لنجري فحصاً عصبياً».

تبعت ضوءه الكشاف بعينيها، ونقرت بأصابعها وإصبعي سبابتها بسرعة، ومشت على كعبيها بخط مستقيم عبر الغرفة، وفعلت كل ما طلبه منها بسهولة وسرعة.

«حسناً، ما هما الاسم والعنوان اللذان أخبرتك بهما قبل قليل؟».

«جون بلاك...».

وتوقفت، ثم تأملت وجه الدكتور ديفيز. لم تستطع أن تتذكر العنوان. ما الذي يعنيه ذلك؟ إنها ربما لم تعره اهتماماً كافياً.

«إن العنوان هو برايتون، ولكنني لا أستطيع أن أتذكر رقم الشارع».

«حسناً، هل هو أربعة وعشرون أم ثمانية وعشرون أم اثنان وأربعون أم ثمانية وأربعون؟».

فلم تعرف.

«خمني».

«ثمانية وأربعون».

«هل الشارع هو نورث ستريت أم ساوث ستريت أم إيست ستريت أم ويست ستريت؟».

«ساوث ستريت؟».

لم يظهر وجهه ولغة جسده أي شيء يدل على أنها قامت بالتخمين الصحيح أم لا. ولكن، إن توجب عليها أن تخمن مرة أخرى، لم يكن ذلك ما يهم في الأمر.

«حسناً، يا أليس. أمامنا هنا فحص دمك وفحص الرنين المغناطيسي، ولكنني أريدك أن تذهبي للقيام بالمزيد من تحاليل الدم، بالإضافة إلى بَزْل قطني. وبعد أربعة أسابيع أو خمسة، ستحددين موعداً لإجراء اختبار نفسي عصبي قبل أن تأتي لزيارتي في اليوم نفسه».

«ما الذي تظن أنه يجري؟ أهذا مجرد نسيان طبيعي؟».

«لا أظن أنه طبيعي يا أليس، ولكن يجب علينا أن نحقق في الأمر أكثر من ذلك».

نظرت إلى عينيه مباشرة. لقد قال لها أحد زملائها ذات مرة إن الاستمرارب النظر المباشر إلى العينين بين شخصين لا يدوم أكثر من ست ثوان، ثم يشيح أحدهما بوجهه أو يرمش بعينيه. وإن استمر أكثر من ذلك، فهو يدل على أحد أمرين: إما الحب أو الرغبة في القتل. لم تصدق ذلك بطبيعة الحال، ولكنه أثار فضولها لكي تجربه على عدد من الأصدقاء والغرباء. ومما أثار دهشتها– باستثناء جون– أحدهما كان دائماً يبعد نظره قبل أن تنتهي الثواني الست.

أطرق الدكتور ديفيز بنظره إلى الطاولة بعد مرور أربع ثوانٍ، وهذا يعني أنه لا يرغب في حبها ولا في قتلها، ولكنها قلقت من أنه يعني أكثر من ذلك بكثير. لقد كانت ستعرض نفسها للبحث والفحص والتصوير والاختبار، ولكنها خمنت أنه ليس بحاجة إلى التحري عن الأمر أكثر من ذلك. فقد أخبرته قصتها، ولم تستطع أن تتذكر عنوان جون بلاك. ولا بد أنه استطاع أن يكتشف سبب مشكلتها منذ الآن.

أمضت أليس الساعات المبكرة من صباح يوم ليلة الكريسمس جالسة على أريكتها وهي ترتشف الشاي وتتصفح ألبومات الصور. على مر السنوات، اعتادت أن تنقل أي صور تم تحميضها حديثاً إلى الفراغات التالية المتاحة خلف الجيوب البلاستيكية. فحافظ اجتهادها وحرصها هذا على ترتيبها الزمني، ولكنها لم تكتب

عليها أي معلومات. فقد كانت تحفظها كلها عن ظهر قلب.

ليديا وهي في عمر السنتين وتوم في السادسة وآنا في السابعة عند شاطئ هارينغ في شهر حزيران، وهو أول صيف أمضوه في منزلهم في كيب. آنا في مباراة كرة قدم للشباب في ملعب بيكوسيت. أليس وجون على شاطئ سيفين مايل في جزيرة غراند كايمان.

لم تستطع أن تحدد الأعمار والأماكن في كل لقطة من اللقطات وحسب، ولكنها استطاعت كذلك أن تتوسع في كل تفصيل من تفاصيلها. فقد حفزت كل صورة من الصور في ذهنها ذكريات أخرى من ذلك اليوم لم تلتقطها عدسة الكاميرا؛ عن الناس المتواجدين في المكان، والسياق الأكبر لحياتها في تلك الفترة التي التقطت فيها الصورة.

شاهدت صورة لليديا ترتدي فيها زيها الأزرق الفاتح الضيق في أول تدريب لها على الرقص، وقد حدث ذلك قبل تثبيتها في وظيفتها، بينما كانت آنا في المدرسة الثانوية وتضع مقوماً للأسنان، وكان توم مفطور القلب بسبب حبه لفتاة في فريق البيسبول، وكان جون يعيش في بيثيسدا في عطلة من وظيفته مدتها سنة.

كانت الصور الوحيدة التي عانت من مشكلة حقيقية في التعرف إليها هي صور آنا وليديا وهما رضيعتان. فوجهاهما الممتلئان والخاليان من العيوب غالباً ما وجدتهما عصيين على التمييز بينهما. ومع ذلك، استطاعت عادة العثور على تلميحات تساعدها في تمييز شخصيتيهما. وعندما لاحظت شاربي جون الجانبيين اللذين يوحيان بطراز فترة السبعينيات، أكد لها هذا أن الطفلة التي في حضنه هي آنا.

سألته وهي تحمل صورة الطفلة: «من هذه يا جون؟».

رفع نظره عن الصحيفة التي يقرأها، وأنزل نظارته على أنفه وحدق بعينيه.

ثم قال: «هل هذا توم؟».

«إنها ترتدي ثوباً زهرياً يا عزيزي. لا بد أنها ليديا».

فتفقدت التاريخ المطبوخ على الوجه الآخر للصورة لتتأكد. 29 أيار 1982. ليديا.

«آه».

دفع نظارته إلى عينيه مرة أخرى وتابع القراءة.

«كنت أريد التحدث إليك عن دروس التمثيل التي تحضرها ليديا يا جون».

رفع نظره إليها، وطوى طرف الصفحة، ووضع الصحيفة على الطاولة، وطوى نظارته واستند إلى ظهر كرسيه. فقد أدرك أن النقاش سيدوم مدة طويلة.

«حسناً».

«لا أظن أنه ينبغي لنا أن ندعمها هناك بأي حال من الأحوال. ومن المؤكد أنني لا أظن أنه ينبغي لك أن تدفع رسوم دروسها من وراء ظهري».

«إنني آسف. أنت محقة في كلامك. كنت أريد أن أقول لك، ولكنني انشغلت ونسيت. تعرفين كيف تجري الأمور، ولكنني أخالفك الرأي في هذا، وأنت تعرفين ذلك. فقد دعمنا الولدين الآخرين».

«هذا مختلف».

«ليس كذلك، ولكنك فقط لا تحبين ما اختارته».

«لست ضد التمثيل، ولكنني ضد عدم التحاقها بالكلية. إن الوقت المتاح لها للالتحاق ينقضي بسرعة كبيرة يا جون. وأنت الآن تسهل عليها الأمور لتبقى بعيدة عن الدراسة».

«إنها لا تريد أن تذهب إلى الكلية».

«أظن أنها لا تبغي سوى التمرد علينا».

«لا أظن أن لهذا أية علاقة بما نريده أو ما لا نريده، أو بما نحن عليه».

«إنني أريد المزيد من أجلها».

«إنها تعمل بجد، وهي متحمسة وجادة حيال ما تفعله، وهذا يشعرها بالسعادة. وهذا هو ما نريده من أجلها».

«من واجبنا أن نعلِّم أولادنا حكمتنا وخبرتنا في الحياة، ولكنني أخشى حقيقة أنها تفوت شيئاً جوهرياً، كالتعرض لمواضيع مختلفة وطرائق متنوعة بالتفكير والتحديات والفرص والناس الذين يمكن أن تقابلهم. أنا وأنت التقينا في الكلية».

«إنها تحصل على كل هذا».

«ليس الشيء نفسه».

«إذاً، فهو مختلف. أظن أن الدفع لدروسها تصرف يدل على الإنصاف. إنني آسف لأنني لم أخبرك، ولكن من الصعب التحدث إليك عن هذا الموضوع. فأنت لا تتراجعين عن موقفك قيد أنملة».

«ولا أنت».

ألقى نظرة خاطفة على الساعة الموضوعة فوق رف الموقد، ومد يده إلى نظارته، وأعاد وضعها على قمة رأسه.

قال لها: «يجب علي أن أذهب إلى العمل لحوالي ساعة في المختبر، ثم سألاقيها في المطار. هل أنت بحاجة إلى أي شيء من الخارج؟».

«كلا».

والتقت عيناها عينيه.

«ستكون بخير يا آلي. لا تقلقي».

رفعت حاجبيها ولكنها آثرت الصمت. ما الذي يمكنها قوله غير ما قالته؟ فقد لعبا هذا المشهد من قبل، وهذه هي نهايته المعتاد. فقد اتبع جون الأسلوب الأقل مقاومة محافظاً دائماً وأبداً على موقعه كوالد مفضل لدى أولاده من دون أن يتمكن مطلقاً من إقناع أليس بأن تغير موقفها. ولم تتمكن هي بدورها من قول أي شيء يساهم في تغيير موقفه.

غادر جون البيت، فأمدها غيابه بشعور بالاسترخاء. وعاودت التقليب بين الصور التي تضعها على حضنها؛ صور أولادها المحببين وهم رضع، وفي أول مشيهم، وفي فترة مراهقتهم. كيف مضى الوقت؟ أمسكت بصورة ليديا وهي طفلة؛ الصورة التي ظنها جون لتوم. وشعرت بثقة متجددة ومطمئنة في ما يتعلق بقوة ذاكرتها، ولكن هذه الصورة بالطبع لم تفعل شيئاً سوى فتح باب تواريخ مخزنة في ذاكرتها وطويلة الأمد.

لقد خزنت عنوان جون بلاك ليعيش في الذاكرة القريبة في دماغها، ولكنْ من المهم وجود الانتباه والمراجعة والتوسع أو الأهمية العاطفية إن أرادت الدفع بالمعلومات المدركة إلى ما وراء مساحة الذاكرة القريبة إلى التخزين طويل الأمد، وإلا فسرعان ما ستتخلص منها بشكل طبيعي بمرور الوقت. وقد ساهم التركيز

على أسئلة الدكتور ديفيز بتشتيت انتباهها ومنعها من مراجعة العنوان أو التوسع فيه. ورغم أن هذا الاسم بدأ يثير لديها حالة من الخوف والغضب الآن، إلا أن جون بلاك الخيالي لم يكن يعني لها شيئاً في غرفة الفحص الخاصة بالدكتور ديفيز. وفي ظل هذه الظروف، إن الدماغ العادي معرض للنسيان. ومع ذلك، هي لم تكن تتمتع بدماغ عادي.

سمعت صوت البريد وهو يسقط من خلال الفتحة في الباب الأمامي، فخطرت لها فكرة. تفحصت كل غرض على حدة؛ صورة لطفل على بطاقة تهنئة بالكريسمس من أحد طلبتها السابقين، وإعلاناً لنادٍ للياقة البدنية، وفاتورة الهاتف، وفاتورة الوقود. عادت إلى الأريكة مجدداً، وشربت الشاي، وكدست ألبومات الصور على الرف، ثم جلست بهدوء تام. فكان صوت تكتكة عقارب الساعة وخروج الهواء من المشعات المختلفة هي الأصوات الوحيدة المسموعة في البيت. نظرت إلى الساعة ووجدت أن خمس دقائق قد انقضت. هذا وقت كاف!

قالت بصوت مرتفع من دون أن تنظر إلى البريد: «بطاقة عليها صورة طفل، وعرض لعضوية في ناد رياضي، وفاتورة هاتف، وفاتورة وقود».

أمر سهل جداً! ومع ذلك، لو أرادت أن تتحلى بالإنصاف، فالفترة الفاصلة بين تعرفها إلى عنوان جون بلاك والطلب منها أن تكرره مرة أخرى كانت أكثر من خمس دقائق، لذا اكتشفت أنها بحاجة إلى فاصل أطول بكثير.

أخذت القاموس من على الرف، وابتكرت قاعدتين لاختيار إحدى الكلمات. فيجب أن تكون ذات تكرار قليل، أي كلمة لا تستخدمها كل يوم، ولكن يجب أن تكون كلمة تعرفها من قبل. فقد أرادت أن تختبر ذاكرتها القريبة، وليس أن تتعلم اكتساب الكلمات الجديدة. فتحت القاموس على صفحة عشوائية، ووضعت إصبعها وقرأت كلمة berserk (وهي صفة بمعنى: عنيف أو هائج) وكتبتها على قطعة من الورق، وطوتها ووضعتها في جيب بنطالها، وضبطت المؤقت الزمني على المايكروويف لمدة خمس عشرة دقيقة.

تذكرت أنه من بين الكتب التي فضلتها ليديا وهي طفلة كتاب بعنوان «فرس النهر العنيف». شغلت أليس نفسها بالتحضير لعشاء الكريسمس، ثم رن المؤقت.

تذكرت في الحال أن الكلمة هي berserk من دون تردد، ومن دون أن تحتاج إلى النظر إلى الورقة.

استمرت بلعب هذه اللعبة خلال اليوم، ثم زادت عدد الكلمات التي يجب عليها أن تتذكرها إلى ثلاث كلمات، وطولت المدة الزمنية إلى خمس وأربعين دقيقة. ورغم هذه الدرجة الإضافية من الصعوبة، وتدخل تشتيت ذهنها بتحضير العشاء، لم ترتكب أي خطأ. وضعت صينية الشواء في الفرن وأعدت طاولة العشاء.

جلس كل من آنا وتشارلي وتوم وجون في غرفة المعيشة. واستطاعت أليس أن تسمع آنا وجون وهما يتجادلان، ولكنها لم تفهم موضوع النقاش من حيث تتواجد في المطبخ، ولكنها استطاعت أن تعرف أنه جدال من النبرة التأكيدية وارتفاع صوتيهما والصد والرد. لا بد أنهما كانا على الأرجح يتجادلان بالسياسة. أما تشارلي وتوم، فقد آثرا النأي بنفسيهما عن النقاش.

في حين أخذت ليديا تحرك محتويات القدر على الموقد وهي تتحدث عن دروس التمثيل التي ترتادها. وما بين التركيز على تحضير العشاء، والكلمات التي أرادت أن تتذكرها، وليديا، لم يتوفر لدى أليس المخزون العقلي الكافي لتعترض أو تستهجن. فتحدثت ليديا بحماسة وشغف عن مهنتها عندما لم تجد أي مقاطعة. ورغم تحيز أليس الواضح ضدها، وجدت أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الاهتمام.

رن المؤقت، فتنحت ليديا جانباً من دون أن يطلب منها ذلك. فيما أمعنت أليس النظر إلى الفرن، ووقفت حائرة وكأنها تنتظر جواباً من الطعام غير الناضج، وبقيت على هذه الحال لوقت طويل إلى أن أصبح وجهها ساخناً بشكل غير مريح. ثم تذكرت. آه! لقد حان الوقت لتتذكر الكلمات الثلاث التي في جيبها.

قالت ليديا: «إن الشخصية التي أمثلها لا تعيش الحياة اليومية بشكل عادي على الإطلاق. فلطالما شكّل التحدي بالنسبة إليها حياة أو موتاً».

نادت آنا من غرفة المعيشة قائلة: «أين فتاحة القوارير يا أمي؟».

كابدت أليس لتتجاهل صوتي ابنتيها؛ الصوتين اللذين تدرب عقلها على سماعهما فوق كل الأصوات الأخرى على كوكب الأرض لتركز على صوتها

الداخلي الذي يكرر الكلمتين نفسيهما مراراً كما لو أنهما شعار.

قالت آنا: «أمي؟».

«لا أعرف أين هي يا آنا! إنني مشغولة. ابحثي عنها بنفسك».

وظلت تردد الكلمتين بلا توقف...

تابعت ليديا شرح دورها قائلة: «إن الأمر دائماً متعلق بالبقاء. فماذا تفعل شخصيتي لتبقى؟ وماذا سيحدث إن لم أفهم ذلك؟».

صاحت أليس بغضب وهي تمسك صدغيها المتعرقين: «من فضلك يا ليديا، لا أريد أن أتحدث عن هذا الأمر الآن».

فقالت ليديا: «حسناً». والتفتت بسرعة نحو الموقد وواصلت التحريك بخفة ونشاط، وهي تبدو مجروحة المشاعر بشكل واضح.

صاحت آنا: «ما زلت عاجزة عن العثور عليها».

فقالت ليديا: «سأذهب لمساعدتها!».

عثرت أليس على الكلمة المفقودة، فتنفست الصعداء. أخرجت كل مكونات كعكة الشوكلاتة البيضاء ووضعتها على الطاولة: خلاصة الفانيليا، ومقدار من الكريما الدسمة، والحليب، والسكر، والشوكولاتة البيضاء، وعلبتان من البيض تحتوي كل منهما على نصف دزينة. دزينة من البيض! ليت الورقة التي كتبت عليها وصفة أمها لا تزال موجودة، ولكنها لم تتذكر أين هي؛ فهي لم تشعر بالحاجة للعودة إليها منذ سنوات. إذ كانت وصفة سهلة جداً، وأفضل حتى من وصفة الكعك بالجبن، كما أنها اعتادت أن تعدها كل سنة في مثل هذه المناسبة منذ أن كانت في ريعان شبابها. كم عدد البيضات التي تحتاج إليها؟ لا بد أنها أكثر من ست بيضات، وإلا لاشترت علبة واحدة. هل هي سبع بيضات أم ثماني بيضات أم تسع؟

حاولت ألا تفكر في البيض هنيهة، ولكن المكونات الأخرى بدت لها غريبة على حد سواء. هل يفترض بها أن تستخدم كل الكريما أم بعضها فقط؟ كم كمية السكر المستخدمة؟ هل يفترض بها أن تجمع كل المكونات معاً أم بترتيب محدد؟ أي وعاء للشوي تستخدم؟ ما هي درجة الحرارة التي يجب أن تخبز بها كعكة الشوكولاتة، ولكم من الزمن؟ لم تجد أي إمكانية واردة على الإطلاق.

فالمعلومات تلاشت من ذهنها واختفت من دون أي أثر.

ما مشكلتي بحق الله؟

عاودت النظر إلى البيض، ولكنْ لا شيء مرة أخرى. فراودها شعور بالكره حيال تلك البيضات اللعينة. فأمسكت بيضة بيدها وألقت بها بكل قوتها في المغسلة، ثم رمت البيضات المتبقية كلها واحدة تلو الأخرى، وشعرت بأن ذلك مرضٍ بعض الشيء ولكنه غير كافٍ. فقد احتاجت إلى أن تكسر شيئاً آخر يحتاج إلى قوة عضلية أكبر لينهكها ويستنزف طاقتها. فتفحصت المطبخ، وشعرت بعينيها ضاريتين وجامحتين عندما التقتا عيني ليديا الواقفة عند مدخل الباب.

«ما الذي تفعلينه يا أمي؟».

لم تقتصر المجزرة التي فعلتها أليس على المغسلة وحدها. فشظايا قشور البيض المكسورة وصفار البيض تبعثرت على أنحاء الجدار كافة، وعلى الطاولة وأبواب الخزائن التي بدت مخططة بزلال البيض.

«إن البيض منتهي الصلاحية، لذا لن نعد الكعكة هذه السنة».

«ولكن، يجب أن نتناول الكعكة. فهذه مناسبة مميّزة».

«حسناً، لم يعد هناك أي بيض، كما أنني تعبت من الوقوف في هذا المطبخ الحار».

«سأذهب إلى المتجر لأحضر البيض. اذهبي أنت إلى غرفة المعيشة واستريحي، وأنا سأعد الكعكة بنفسي».

ذهبت أليس إلى غرفة المعيشة وهي ترتجف، ولكن تلك الموجة العارمة من الغضب لم تعد تجتاحها، ولم تعد واثقة إن كانت تشعر بالاستنزاف أم بالامتنان. وجدت كلًّا من جون وتوم وآنا وتشارلي جالسين وهم يتحدثون حاملين كؤوس الشراب. من الواضح أن أحدهم قد عثر على فتاحة القوارير. مدت ليديا رأسها إلى الغرفة وهي ترتدي معطفها وتعتمر قبعتها.

وقالت: «كم بيضة نحتاج يا أمي؟».

كانون الثاني 2004

كانت لديها أسباب وجيهة تدعوها لإلغاء مواعيدها في صباح التاسع عشر من كانون الثاني مع أخصائي علم النفس العصبي والدكتور ديفيز. فقد تقرر البدء بأسبوع امتحانات هارفرد للفصل الدراسي الخريفي في كانون الثاني، بعد أن عاد الطلاب من إجازة الشتاء. وتم تحديد موعد امتحان أليس لمادة الإدراك في صباح ذلك اليوم بالذات. لم يكن حضورها حتمياً، ولكنها لطالما أحبت الإحساس الذي يتملكها لدى رؤيتها طلابها وهم يمرون بمراحل المنهج كافة من بدايته وحتى نهايته. ومع ذلك، اتفقت على مضض مع زميل لها بأن يراقب الامتحان نيابة عنها. أما السبب الأهم من كل شيء، فهو أن أمها وشقيقتها توفيتا في التاسع عشر من كانون الثاني قبل اثنين وثلاثين عاماً. لم تكن أليس تصدق الخرافات مثل جون، ولكنها لم تسمع أي خبر جيد في ذلك اليوم طوال حياتها، لذا قررت أن تطلب من موظفة الاستقبال أن تعطيها موعداً في يوم آخر، ولكنها قالت لها إنها يجب أن تذهب في اليوم نفسه، وإلا فسيتم تأجيل موعدها أربعة أسابيع. وهكذا، قررت الإبقاء على الموعد. إذ لم تجد أن فكرة الانتظار لشهر آخر مستساغة على الإطلاق.

تخيلت طلابها في جامعة هارفرد وهم يشعرون بالتوتر حيال الأسئلة التي من الممكن أن تطرح عليهم ثم يصبّون مقدار فصل كامل من المعلومات على صفحات أوراق الامتحان الزرقاء، ويأملون ألا تخذلهم ذاكراتهم المحشوة بالمعلومات. استطاعت أن تتفهم شعورهم هذا تماماً. فمعظم الاختبارات النفسية العصبية التي أجريت لها صباح ذلك اليوم، جعلت ذلك الشعور مألوفاً لديها. فقد صممت تلك الاختبارات لاستخراج أي ضعف طفيف في سلامة الطلاقة في اللغة والذاكرة القريبة والعمليات المنطقية. في الحقيقة، لقد خضعت للكثير منها من قبل عندما

قامت بدور مجموعة التحكم في دراسات الإدراك التي أجراها عدد من طلابها لمرحلة ما بعد التخرج، ولكنها اليوم لم تكن مجرد مجموعة تحكم بل موضوع الاختبار بحد ذاته.

استغرقت عملية النسخ والتذكر والترتيب والتسمية حوالي ساعتين، فشعرت بالراحة لدى انتهائها منها، وبالثقة من أدائها إلى حد ما كما فعل طلابها في امتحانهم حسب ما تخيلت. وبعد ذلك، دخلت غرفة الدكتور ديفيز برفقة أخصائي علم النفس العصبي، وجلست على أحد كرسيين مهيأين جنباً إلى جنب مقابل مكتبه. لاحظ الطبيب الكرسي الفارغ المجاور لها، فأطلق تنهيدة تدل على خيبة أمله. وحتى قبل أن يتكلم، أدركت أنها واقعة في ورطة.

«ألم نتفق في المرة الماضية يا أليس على حضورك إلى هنا مع شخص آخر؟».

«هذا صحيح».

«حسناً، من المطلوب في هذه الوحدة أن يأتي كل مريض برفقة شخص يعرفه معرفة وثيقة. لن أتمكن من معالجتك بشكل ملائم ما لم أحصل على صورة دقيقة لما يجري معك. ولا يمكنني أن أكون واثقاً من حصولي على تلك المعلومات من دون حضور هذا الشخص. في المرة القادمة، لن أقبل أي أعذار يا أليس. هل توافقين على هذا؟».

«نعم».

المرة القادمة! وتبخر منها كل شعور بالراحة والثقة تولد لديها بعد كفاءتها في اجتياز الاختبارات النفسية العصبية.

«لدي نتائج كل فحوصاتك الآن، لذا يمكننا أن نراجع كل شيء. لم ألاحظ أي عارض غير طبيعي في صور الرنين المغناطيسي. فلا أمراض دماغية وعائية، ولا دليل على أي سكتات دماغية صغيرة صامتة أو كتل، أو استسقاء. كل شيء هنا يبدو على ما يرام. كما أن تحاليل الدم والبَزْل أسفل الظهر أتت كلها سلبية على حد سواء. لقد بذلت قصارى جهدي، وبحثت عن كل مرض من الممكن أن يكون مسؤولاً عن هذه الأعراض التي تعانين منها، لذا أنت لا تعانين من فايروس

HIV أو من السرطان أو من نقص في الفيتامينات أو من أي عدد من الأمراض النادرة الأخرى».

بدا كلامه مرتباً ترتيباً جيداً، وكأنه ليس الخطاب الأول الذي يلقيه من هذا النوع. فأدركت أن ما تعاني منه في الحقيقة سيأتي في نهاية الكلام. أومأت برأسها ليعرف أنها تتابعه بحرص، وأنه ينبغي له أن يواصل الكلام.

«لقد أحرزت نسبة تسع وتسعين بالمئة في القدرة على التركيز، وفي أشياء كالتفكير المنطقي المجرد والمهارات المكانية والطلاقة اللغوية. ولكنْ لسوء الحظ، ما ألاحظه هنا هو أنك تعانين من تدهور في الذاكرة القريبة، وهو أمر غير متناسب مع عمرك. وهناك تدهور ملحوظ في مستوى أدائك السابق. وقد اكتشفت هذا من روايتك الخاصة للمشاكل التي تعانين منها ومن وصفك للدرجة التي تعارض بها هذا مع حياتك المهنية، ثم لاحظت ذلك بنفسي عندما عجزت عن استعادة العنوان الذي طلبت منك أن تتذكريه في المرة الماضية التي أتيت فيها إلى هنا. ورغم أن أداءك بدا مثالياً في معظم مجالات الإدراك اليوم، فقد أظهرت الكثير من التقلب في اثنين من الاختبارات التي تتعلق بالذاكرة القريبة. وفي الواقع، لقد انحدر مستواك إلى ستين بالمئة.

«وهكذا، فإنني عندما أرتب كل هذه المعلومات في سياق واحد يا أليس، فإنها تخبرني بأن أعراضك تنطبق على فئة الإصابة المحتملة بمرض الألزهايمر».

مرض الألزهايمر.

جعلتها هاتان الكلمتان تفقد صوابها تماماً. ما الذي قاله لها للتو؟ كررت ما قاله في ذهنها. محتملة! فمنحتها هذه الكلمة الإرادة للتنفس والقدرة على الكلام.

«إذاً، كلمة محتملة تعني أن أعراضي ربما لا تنطبق على هذه الفئة».

«كلا، إننا نستخدم كلمة «محتمل» لأن التشخيص المؤكد الوحيد لمرض الألزهايمر في الوقت الحاضر هو عن طريق فحص البنية النسيجية للدماغ؛ مما يتطلب إما تشريحاً للدماغ أو استئصال نسيج منه لدراسته، وكلاهما ليسا خياراً جيداً بالنسبة إليك. إن هذا تشخيص عيادي. ليس هناك بروتين مسؤول عن الخرف

في دمك يمكنه أن يحدد لنا أنك مصابة به. وليس من المتوقع أن نرى أي ضمور في الدماغ في تصوير الرنين المغناطيسي إلى أن تصلي إلى مراحل متقدمة من المرض.

ضمور في الدماغ.

«ولكن، لا يمكن أن يكون هذا ممكناً. فأنا لا أزال في الخمسين من عمري».

«إنك تعانين من البداية المبكرة لمرض الألزهايمر. إنك محقة. فنحن بطبيعة الحال نفكر في مرض الألزهايمر على أنه يؤثر في كبار السن فقط، ولكن عشرة بالمئة من المصابين بالمرض يعانون من هذه الهجمة المبكرة قبل سن الخامسة والستين».

«كيف يختلف هذا عن الحالة المتأخرة؟».

«ليس مختلفاً، باستثناء أن سببه عادة له ارتباط جيني قوي، وأنه يظهر في وقت أبكر».

ارتباط جيني قوي. آنا، توم، ليديا.

«ولكن، إن كنت متأكداً فقط مما لا أعاني منه، فكيف يمكنك التأكيد على أن ما أعاني منه بالفعل هو الألزهايمر؟».

«بعد الاستماع إلى وصفك لما حدث معك، واطلاعي على تاريخك الطبي، وبعد اختبار ميلك وتسجيلك وانتباهك ولغتك وتذكرك، بت واثقاً بنسبة خمسة وتسعين بالمئة. ومن دون وجود أي تفسير آخر يظهر في فحصك العصبي وتحليل الدم والسائل النخاعي أو التصوير بالرنين المغناطيسي، فإن الخمسة بالمئة المتبقية تتلاشى. إنني واثق يا أليس».

أليس.

اخترق صوته حين قال اسمها كل خلية فيها؛ وكأنه يبعثر ذراتها إلى ما وراء حدود جلدها. وشعرت أنها تنظر إلى نفسها من الزاوية البعيدة في الغرفة.

سمعت نفسها تسأله: «إذاً، ما الذي يعنيه هذا؟».

«لدينا عقاران لعلاج الألزهايمر أريد أن أخضعك لهما الآن: العلاج الأول

هو آريسبت؛ وهو علاج يعزز الوظائف الكولينية، والثاني هو ناميندا الذي تمت الموافقة عليه في خريف هذا العام فقط، ولكنه أظهر الكثير من النتائج التي تدعو للتفاؤل. لا يعتبر هذان العقاران علاجاً، ولكن يمكنهما إبطاء تطور الأعراض. ونحن نريد أن نكسب أكبر قدر من الوقت من أجلك».

الوقت! كم من الوقت؟

«أريدك أيضاً أن تتناولي الفيتامين ه مرتين في اليوم، والفيتامين سي وحبوب الأسبرين المخصصة للأطفال وخافضاً للكوليسترول مرة في اليوم. إنك لا تظهرين أي عوامل خطر واضحة تشير إلى أمراض القلب، ولكن أي شيء مفيد للقلب سيفيد الدماغ. ونحن نريد الاحتفاظ بكل عصبون ومشبك عصبي يمكننا الاحتفاظ بها».

ودوّن الطبيب هذه المعلومات على دفتر الوصفات الطبية.

«هل يعرف أحد من عائلتك أنك هنا يا أليس؟».

فسمعت نفسها تقول: «كلا».

«حسناً، سيتوجب عليك أن تخبري أحداً ما. يمكننا أن نبطئ من معدل الانحدار الإدراكي الذي تعانين منه، ولكننا لا نستطيع أن نوقفه أو نعكسه. من المهم من أجل حمايتك أن يعرف شخص ما يراك بانتظام ما يجري معك. هل ستخبرين زوجك؟».

فلاحظت أنها تومئ برأسها.

«حسناً، هذا جيد. إذاً، اشتري هذه الوصفة وتناولي الدواء حسب التعليمات، واتصلي بي إن عانيت من أي مشكلات بالتأثيرات الجانبية. واحجزي موعداً للمراجعة خلال ستة أشهر. وبين الحين والآخر، يمكنك أن تتصلي بي أو تراسليني بالبريد الإلكتروني إن كانت لديك أي أسئلة. وأقترح عليك أيضاً أن تراسلي دينيز داداريو، وهي أخصائية اجتماعية تعمل هنا ويمكنها أن تساعدك في المصادر والدعم. سأقابلك برفقة زوجك في غضون ستة أشهر لنرى كيف تتقدم حالتك».

بحثت في عينيه اللتين تشيران إلى ذكائه عن أي شيء آخر يريد قوله. وانتظرت

بصمت، وتملكها شعور غريب بيديها اللتين تقبضان على الذراعين المعدنيين للكرسي الذي تجلس عليه. ها هما يداها! فهي لم تتحول إلى مجموعة أثيرية من الذرات تحوم في زاوية الغرفة، بل لا تزال هي، أليس هولاند. وهي تجلس على كرسي بارد وقاسٍ بجانب كرسي فارغ آخر في عيادة طبيب الأعصاب في وحدة اضطرابات الذاكرة، في الطابق الثامن من مستشفى ماساتشوستس العام، بعد أن تم تشخيص حالتها للتو على أنها مرض الألزهايمر. بحثت في عيني طبيبها عن أي شيء آخر غير ما سمعته، ولكنها لم تجد سوى الحقيقة المرة والندم.

التاسع عشر من كانون الثاني. لم يحدث لها أي شيء جيد في هذا اليوم.

بينما هي جالسة في مكتبها والباب مغلق، تصفحت الاستبيان المعيشي اليومي الذي طلب منها الدكتور ديفيز أن تسلمه إلى جون. وقرأت عبارة «**يتعين ملء هذه الاستمارة من قبل مصدر للمعلومات وليس المريض**» مكتوبة بأحرف كبيرة في قمة الصفحة الأولى. جعلت عبارة «**مصدر معلومات**» والباب المغلق وخفقان قلبها شعوراً أليماً بالذنب يتملكها؛ وكأنها تختبئ في إحدى مدن أوروبا الشرقية وبحوزتها وثائق غير قانونية، والشرطة في أعقابها، والصفارات تدوي في كل مكان.

كان التقييم المخصص لكل نشاط يتراوح بين الصفر (أي لا توجد أي مشاكل، كل شيء كالمعتاد) و3 (أي أداء مشوه بشكل كبير ومعتمد بشكل كامل على الآخرين). تفحصت الأوصاف المدونة بجانب الرقم ثلاثة، وافترضت أنها تمثل فقط المراحل الأخيرة من المرض، أي نهاية هذا الطريق القصير والمستقيم الذي أُجبرت فجأة على السير فيه بسيارة ليس فيها مكابح ولا عجلة قيادة.

أما رقم ثلاثة، فقد وجدته عبارة عن لائحة في غاية الإهانة: يجب أن يتولى أحد إطعام المريض معظم أنواع الطعام. ولا يتمتع المريض بأي تحكم بالأمعاء والمثانة. ويجب إعطاؤه الدواء من قبل الآخرين. يقاوم المريض جهود مانحي الرعاية للتنظيف أو العناية بالهندام. ولا يستطيع العمل بعد الآن. ويبقى حبيس

البيت أو المستشفى. ولا يجيد التعامل بالمال. ولا يمكنه الخروج من دون مرافقة أحد. كم هي مهينة! ولكنّ عقلها التحليلي سرعان ما ساورته الشكوك حيال العلاقة الفعلية بين هذه اللائحة ونتيجتها الشخصية. فكم من هذه اللائحة متعلق بتطور مرض الألزهايمر؟ وكم منه مرتبط بالتقدم في السن؟ ترى، هل يعاني المسنون في سن الثمانين من هذه الأعراض بسبب مرض الألزهايمر وحده أم لأن أعضاء أجسادهم عمرها ثمانون سنة؟ وهكذا، قد لا تنطبق كل الأوصاف في اللائحة الثالثة على امرأة مثلها لا تزال شابة وتتمتع بلياقة بدنية جيدة.

أتت أسوأ الأعراض تحت بند: «التواصل». فكلام مريض الألزهايمر يصبح غير مفهوم تقريباً. ولا يفهم ما يقوله الناس. ويتخلى عن القراءة. ولا يكتب. **ليست هناك لغة بعد الآن.** باستثناء سوء التشخيص، لم تستطع أليس أن تكوّن أية نظرية يمكنها أن تجعلها محمية من هذه اللائحة الثالثة الرهيبة. فمن الممكن أن تنطبق كلها على شخص مثلها؛ شخص مصاب بالألزهايمر.

نظرت إلى رفوف الكتب، والمجلات الدورية المصفوفة على مكتبها، وتأمّلت أوراق الامتحانات النهائية التي لا يزال يتوجب عليها تصحيحها والمكومة على مكتبها، ورسائل البريد الإلكتروني في صندوق الوارد على جهاز الكمبيوتر الخاص بها. وفكرت في الكتب التي لطالما أرادت أن تقرأها، وتلك التي تزين الرف العلوي في غرفة نومها؛ الكتب التي ظنت أنه سيتسنى لها متسع من الوقت لقراءتها في ما بعد؛ كرواية موبي ديك على سبيل المثال. فكرت في التجارب التي لا تزال تريد أن تجريها، والأبحاث التي تخطط لكتابتها، والمحاضرات التي تعتزم أن تقدمها وتحضرها. ومع ذلك، كل ما كانت تفعله وتحبه يحتاج إلى اللغة.

كانت الصفحات الأخيرة من الاستبيان تطلب من مقدم المعلومات أن يقيّم شدة الأعراض التي يعاني منها المريض في الشهر الماضي، وهي: الأوهام، والهلوسات، والهياج، والاكتئاب، والقلق، والخمول، والانزعاج، واضطرابات النوم، والتغيير في عادات الأكل. فشعرت أن هناك ما يغريها لكي تملأ هذه الأجوبة بنفسها لتثبت أنها على خير ما يرام وأن الدكتور ديفيز قد ارتكب خطأً بلا شك.

وعندئذ، تذكرت كلماته عندما قال: **قد لا تكونين أكثر مصدر موثوق للمعلومات لما يجري معك**. ربما كان هذا صحيحاً، ولكنها لا تزال تتذكر أنه قال هذا الكلام. فتساءلت: متى سيحين الوقت الذي لن تتذكر فيه أي شيء؟

توجب عليها أن تعترف بأن معرفتها بمرض الألزهايمر لم تتجاوز حدود المعلومات السطحية لا غير. فقد كانت تعرف فقط أن أدمغة مرضى الألزهايمر تعاني من انخفاض مستويات الأستيلكولين، وهو عبارة عن ناقل عصبي ذي وظيفة هامة في عملية التعلم والذاكرة، وتعرف كذلك أن قرين آمون– وهو بنية في الدماغ على شكل حصان البحر وظيفتها تشكيل الذكريات الجديدة– يصبح ضبابياً ويصاب بالتشوش، ولكنها لم تفهم المعنى الدقيق لذلك. كما أدركت أن فقدان القدرة على التسمية– أي عدم القدرة على معرفة أسماء الأشياء– أحد أعراض المرض الهامة. وعرفت أنها ذات يوم ستنظر إلى زوجها وأولادها وزملائها؛ إلى وجوه عرفتها وأحبتها طوال حياتها، ولن تعود قادرة على تمييزها.

أيقنت أن هناك المزيد مما لا يزال يجب عليها أن تعرفه، وأن هناك طبقات عديدة من القذارة لا يزال عليها أن تكشف عنها. فطبعت عبارة «مرض الألزهايمر» في محرك البحث غوغل، وظلت إصبعها الوسطى متوازنة فوق زر التراجع عندما سمعت صوت قرع قوياً على الباب جعلها تتراجع عن مهمتها بسرعة لا إرادية مخفية الدليل. ومن دون سابق إنذار أو انتظار للجواب، انفتح الباب.

خشيت أن تبدو على وجهها علامات الصدمة والقلق والشرود.

سألها جون قائلاً: «هل أنت جاهزة؟».

كلا، لم تشعر أنها جاهزة. إن اعترفت لجون بما قاله لها الدكتور ديفيز، وإن أعطته استبيان النشاطات اليومية، فسيصبح كل شيء حقيقياً، وسيتحول جون إلى مزود بالمعلومات، وستتحول أليس إلى مجرد مريضة محتضرة وعاجزة. لم تصبح مستعدة للإفصاح عما يدور في ذهنها بعد؛ ليس الآن.

قال جون: «هيا، ستغلق البوابات في غضون ساعة».

فقالت أليس: «حسناً، إنني مستعدة».

كانت مقبرة ماونت أوبورن التي تم إنشاؤها في عام 1831 أول مقبرة لا تتبع لطائفة معينة. أما الآن، فقد أصبحت معلماً تاريخياً وطنياً، ذا منظر طبيعي معروف عالمياً، وذا مشتل وحديقة، بالإضافة إلى كونها المثوى الأخير لشقيقة أليس ووالدتها ووالدها.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يحضر فيها والدها الذكرى السنوية لحادث السيارة المأساوي؛ حين أصبح ميتاً، مما أثار انزعاجها. فلطالما اعتبرت هذه الزيارة زيارة خاصة بينها وبين أمها وأختها. والآن، أصبح هو أيضاً موجوداً بينهن، وهو لا يستحق ذلك.

أخذا يمشيان على طول جادة يوو، وهي أقدم أقسام المقبرة. فتلكأت نظراتها ومشيتها عندما مرا بشواهد قبور عائلة شيلتون المعروفة. فقد دفن هناك الأبوان تشارلز وإليزابيث إلى جانب أطفالهما الثلاثة؛ سوزي الطفلة الرضيعة التي ولدت خديجة ربما عام 1866، وولتر الذي لم يتجاوزه عمره العامين عام 1868، وكارولين التي توفيت وهي في الخامسة من عمرها عام 1874. تحدت أليس نفسها وهي تتخيل حزن إليزابيث وهي تضع أسماء أطفالها على الشواهد، فعجزت عن الاحتفاظ بتلك الصور المرعبة في مخيلتها. تخيّلت صورة آنا وهي مزرقة وساكنة عقب ولادتها، وتوم وهو مسجى في تابوته بعد مرض ألم به وهو مرتدٍ «بيجامته» الصفراء، وليديا بجثمانها اليابس والخالي من مظاهر الحياة بعد يوم من التلوين والمرح في الحضانة. رفضت مخيلتها هذا النوع من التحديد المرعب، وسرعان ما عاد أولادها الثلاثة إلى الحياة مرة أخرى كما كانوا.

كانت إليزابيث في الثامنة والثلاثين من عمرها عندما توفي آخر طفل من أطفالها. فتساءلت أليس إن حاولت أن تتجنب المزيد من الأطفال ولكنها لم تعد تحمل، أو إذا أصبحت وتشارلز ينامان في سريرين منفصلين خشية أن يجازفا بشراء شاهدة قبر صغيرة أخرى. كما تساءلت إن استطاعت إليزابيث، التي عاشت عشرين عاماً بعد وفاة تشارلز، أن تنعم بأي راحة أو سلام في حياتها على الإطلاق.

واصلا المشي بصمت إلى منطقة الدفن الخاصة بعائلتها. فبدت شواهد قبورهم بسيطة كعلب الأحذية، ومصفوفة في صف منفصل تحت أغصان شجرة

زان ذات أوراق أرجوانية. آن ليديا دالي 1955–1972، سارة لويز دالي 1931–1972، بيتر لوكاس دالي 1932–2003. كانت أغصان شجرة الزان تعلو فوق الشواهد مسافة مئة قدم على الأقل، وتبدو في الصيف والربيع والخريف مكتسية بحلة جميلة لامعة من الأوراق الأرجوانية الداكنة، ولكنها الآن في شهر كانون الثاني بدت مجردة من أوراقها، وأغصانها السوداء تلقي بظلال طويلة ومشوهة على قبور أفراد العائلة، وتضفي عليها مظهراً غريباً وموحشاً قد يثير إعجاب مخرجي أفلام الرعب.

أمسك جون بيدها المكسوة بقفاز وهما واقفان تحت الشجرة. لم ينبس أي منهما بكلمة واحدة. في الشهور الأكثر دفئاً، كانا يسمعان صوت العصافير ومرشات المياه وسيارات طاقم المقبرة والموسيقا المنبعثة من أجهزة الراديو في السيارات. أما اليوم، فقد ساد السكون أرجاء المقبرة ما عدا صوت السيارات البعيد خلف البوابات.

ترى، ما الذي دار بخلد جون وهما يقفان هناك؟ لم تطرح عليه هذا السؤال من قبل. لم يقابل زوجها أختها أو والدتها، لذا من الصعب عليه أن تراوده أي أفكار عنهما. ترى، هل راودته أفكار روحانية؟ أهي أفكار عنه أم عنها؟ ترى، هل فكر في والديه وشقيقاته الذين لا يزالون جميعاً على قيد الحياة؟ أم كان يعيش في عالم مختلف كل الاختلاف، يفكر فيه بتفاصيل بحثه أو محاضراته أو يتخيل طعام العشاء؟

كيف يكون من المحتمل أن تصاب بمرض الألزهايمر؟ هناك رابط جيني قوي! ترى، هل كانت والدتها ستعاني منه لو عاشت حتى سن الخمسين؟ أم إن الوراثة أتت من والدها؟

في سنوات حياته وهو أصغر سناً، اعتاد والدها أن يشرب كميات هائلة من دون حتى أن يبدو عليه أنه ثمل بشكل واضح. وبعد ذلك، ازدادت حياته هدوءاً وانطوائية إلى حد كبير، ولكنه لطالما حافظ على مهارات تواصل كافية تساعده على طلب كأس الشراب التالية أو الإصرار على أنه قادر تماماً على قيادة السيارة؛ كتلك الليلة التي قاد فيها سيارته من طراز بيويك وانحرف فيها عن الطريق ليصطدم بشجرة ويتسبب بمصرع زوجته وابنته الصغرى.

لم تتغير عاداته في الشرب قط، ولكن سلوكه بدأ يتغير قبل خمسة عشر عاماً، وازدادت معه أحاديثه الصاخبة الفارغة وقلة عنايته بنفسه وصحته إلى حد مقزز وعدم تمييزه هويتها. ظنت أليس حينها أن ذلك كله أتى بفعل الشراب الذي دق ناقوسه أخيراً على كبده وعقله. ترى، هل من الممكن أن يكون قد أصيب بمرض الألزهايمر ولم يتم تشخيص مرضه قط؟ لم تشعر في ذلك الوقت أنها بحاجة إلى تشريح دماغه، فقد ناسبها ذلك التفسير بشكل دقيق، وزوّدها بالهدف المثالي لتلقي باللوم عليه.

حسناً يا أبي، هل أنت مسرور الآن؟ لقد ورثت حمضك النووي السيئ. سوف تقتلنا جميعاً. كيف تشعر بعد قتلك جميع أفراد أسرتك؟

كان بكاؤها المتفجع والمنفعل سيبدو تصرفاً عادياً لا يثير الاستغراب بالنسبة إلى أي غريب ينظر إلى المشهد؛ فوالداها وشقيقتها المتوفون مدفونون تحت التراب في المقبرة المظلمة بجوار شجرة الزان غريبة المظهر. أما بالنسبة إلى جون، فلا بد أنه لم يتوقعه على الإطلاق؛ فهي لم تذرف دمعة واحدة على موت والدها في شباط الفائت، كما أن حزنها وفقدانها اللذين شعرت بهما بسبب موت أمها وأختها خفتا وانطفآ بمرور الزمن منذ وقت طويل.

ضمها إليه من دون أن يلاطفها ويطلب منها الكف عن البكاء، ومن دون أي تلميح إلى أنه سيفعل أي شيء سوى معانقتها بهذا الشكل وهي تبكي. أدركت أن المقبرة ستغلق أبوابها في أية لحظة، وشعرت أنها ربما على الأرجح قد أثارت قلق جون، وفهمت أن أي قدر من البكاء لن ينظف دماغها الملوث. ومع ذلك، ضغطت وجهها بقوة على معطفه الصوفي، وبكت ما شاء لها البكاء؛ إلى أن أنهك التعب جسدها.

أمسك برأسها بين يديه، وطبع قبلتين على زاويتي عينيها المبللتين بالدموع.

«هل أنت بخير يا آلي؟».

كلا، لست بخير يا جون. إنني مصابة بالألزهايمر.

ظنّت أنها تفوهت بالكلمات بصوت مرتفع، ولكنها لم تفعل ذلك، بل بقيت الكلمات عالقة في رأسها؛ ليس لأنها علقت هناك بفعل المرض، ولكن لأنها لم

تجد في نفسها القدرة على التفوه بها.

تخيلت اسمها منقوشاً على شاهدة قبر مماثلة بجانب شاهدة قبر آن. كانت تفضّل الموت على أن تفقد عقلها. رفعت نظرها إلى جون، وتأملت عينيه الصبورتين الباحثتين عن إجابة. كيف يمكنها أن تقول له إنها مصابة بمرض الألزهايمر؟! لطالما أحب عقلها وعشق ذكاءها. كيف يمكنه أن يحبها الآن وهي بهذه الحالة؟ عاودت النظر إلى اسم آن المنقوش على الحجر.

وقالت له: «إنني أعاني من يوم عصيب جداً».

لقد كانت تفضل الموت على أن تخبره.

رغبت في أن تقتل نفسها، وظلت لأيام تراودها أفكار متهورة عن الانتحار، وهيمنت عليها تلك الأفكار حتى طغت على أفكارها الأخرى كافة، وحشرتها في زاوية مظلمة ويائسة. ولكن افتقارها إلى القوة الكافية جعلها لا تتجاوز حدود مداعبة تافهة. لم تكن ترغب في الموت، ليس بعد. فهي لا تزال تعتبر نفسها أستاذة محترمة في علم النفس بجامعة هارفرد، ولا يزال بوسعها أن تقرأ وتكتب وتستخدم الحمام بشكل ملائم؛ لا يزال لديها وقت. فكرت في أنه يتوجب عليها أن تخبر جون عاجلاً أم آجلاً.

جلست على الأريكة وهناك بطانية رمادية على حضنها، وكانت تحتضن ركبتيها، وتشعر أنها على وشك أن تتقيأ، بينما جلس هو على الكرسي مقابلها وجسده مسمر بلا حراك.

سأل جون: «من أخبرك بهذا؟».

«الدكتور ديفيز، إنه طبيب أعصاب في مستشفى ماس العام».

«طبيب أعصاب! متى؟».

«قبل عشرة أيام».

أدار رأسه، وفتل خاتم زواجه وبصره مثبت على الجدار وكأنه يتفحص الطلاء. حبست أنفاسها، وانتظرت منه أن ينظر إليها مرة أخرى، ولكنه ربما لن ينظر إليها مجدداً بالطريقة ذاتها، وربما لن يتنفس مرة أخرى. فعانقت نفسها بشدة أكبر.

«إنه مخطئ يا آلي».

«ليس مخطئاً».

«أنت لا تعانين من أي خطب».

«بل هناك خطب؛ فأنا أنسى الأشياء».

«الجميع ينسون الأشياء. إنني لا أستطيع أن أتذكر أين وضعت نظارتي. هل ينبغي لهذا الطبيب أن يشخص حالتي على أنها مرض الألزهايمر أيضاً؟».

«إن أنواع المشاكل التي أعاني منها ليست طبيعية. ولا يقتصر الأمر على مجرد نسيان المكان الذي وضعت فيه نظارتي».

«حسناً، إذاً أنت تنسين الأشياء، ولكنك تمرين بمرحلة انقطاع الطمث، وتعانين من التوتر. كما أن وفاة والدك على الأرجح قد أعادت إليك شتى أنواع المشاعر حول فقدانك أمك وآن. وأظن أنك على الأرجح مصابة بالاكتئاب».

«لست مصابة بالاكتئاب».

«كيف تعرفين ذلك؟ هل أنت طبيبة؟ ينبغي أن تراجعي طبيبتك الخاصة وليس طبيب الأعصاب ذاك».

«هذا ما فعلته».

«أخبريني بالضبط بما قالته لك».

«إنها لا تعتقد أنني أعاني من الاكتئاب أو انقطاع الطمث. في الواقع، ليس لديها تفسير. ظنت أنني ربما لا أنال كفايتي من النوم، وأرادت أن تنتظر وتراني مرة أخرى في غضون بضعة أشهر».

«أترين؟ إنك فقط لا تعتنين بنفسك بما يكفي».

«إنها ليست طبيبة أعصاب يا جون. إنني أنال كفايتي من النوم. وقد حدث ذلك في شهر تشرين الثاني. وها قد مرت المدة المطلوبة ولم تتحسن الحالة، بل إنها تزداد سوءاً».

لقد أيقنت أنها تطلب منه أن يصدق في محادثة واحدة ما أنكرته هي نفسها عدة أشهر. فبدأت بمثال يعرفه من قبل.

«أتتذكر عندما نسيت أن أذهب إلى شيكاغو؟».

«من الممكن أن يحدث هذا لي، أو لأي شخص نعرفه. فنحن ملتزمون بجداول مواعيد جنونية».

«لطالما التزمت بجداول مواعيد جنونية، ولكنني لم أنسَ قط أن أركب الطائرة. لا يقتصر الموضوع على تفويت موعد الرحلة، ولكنني نسيت أمر المؤتمر برمته بعد أن أمضيت اليوم كله وأنا أحضّر له».

انتظر سماع المزيد، فهناك أسرار عملاقة لم يكن يعرف شيئاً عنها.

«إنني أنسى الكلمات أثناء كلامي، وأنسى موضوع المحاضرة التي يفترض بي أن أعطيها في غضون الوقت الذي أمشي فيه من مكتبي إلى القاعة. كما أنني لا أستطيع أن أحدد الهدف من كلمات كتبتها على لائحة مهامي الصباحية بعد حلول فترة العصر».

استطاعت أن تقرأ أفكاره غير المقتنعة وهي تدور في رأسه. **أنت شديدة الإرهاق ومتوترة وقلقة. وكل شيء طبيعي.**

«لم أعدّ الكعكة ليلة الكريسمس لأنني لم أستطع ذلك. فقد عجزت عن تذكر أي خطوة من طريقة تحضير الوصفة لأنها اختفت من ذاكرتي؛ هكذا ببساطة، رغم أنني أعددت طبق الحلوى هذا غيباً كل سنة منذ طفولتي».

عرضت أليس ضد نفسها قضية وجيهة إلى حد مدهش. ولو سمعتها هيئة محلفين من أقرانها لقررت أنها سمعت ما يكفي، ولكن جون يحبها.

«كنت أقف ذات مرة في ساحة هارفرد، وفجأة لم تعد لدي أية فكرة عن كيفية الوصول إلى البيت، ولم أستطع أن أكتشف أين أنا».

«متى حدث هذا؟».

«في أيلول».

لقد كسرت صمته، ولكن ليس تصميمه على الدفاع عن نزاهة صحتها العقلية.

«هذا مجرد غيض من فيض. يتملكني الرعب من مجرد التفكير بما أنساه وأنا حتى غير مدركة أنني نسيته».

فجأة، تغير تعبير وجهه، وكأنه أدرك شيئاً ذا مغزى؛ كما يحصل حين يدرك اكتشافاً علمياً تدله عليه أبحاثه.

«زوجة دان». قال هذا الكلام لنفسه أكثر مما قاله لها هي.

فسألته قائلة: «ماذا؟».

شعرت بشيء ما يتصدع، ورأته بنفسها بينما تسربت إمكانية تصديقه ما يجري لها، وبدأت قناعته تتبدد.

«يجب عليّ أن أطالع بعض المعلومات ثم أتحدث إلى طبيب الأعصاب الذي تراجعينه».

نهض من دون أن ينظر إليها، ودخل مباشرة غرفة مكتبه، تاركاً إياها وحدها على الأريكة وهي تحتضن ركبتيها وتشعر بأنها تريد أن تتقيأ.

شباط 2004

يوم الجمعة:
تناول الأدوية الصباحية (أنجز)
اجتماع القسم 9:00 صباحاً في الغرفة رقم 545 (أنجز)
الرد على البريد الإلكتروني (أنجز)
إلقاء محاضرة عن التحفيز والشعور عند الساعة 1:00 في قسم العلوم المدرج B (أنجز)
موعد مع مستشارة الجينات (جون لديه المعلومات)
تناول الأدوية المسائية

كانت ستيفاني آرون مستشارة الجينات التي تعمل في وحدة اضطرابات الذاكرة بمستشفى ماس العام. وكانت تتميز بشعر أسود يصل إلى كتفيها، وحاجبين مقوسين يوحيان بشخصية منفتحة وفضولية. عندما دخلا إليها، حيتهما بابتسامة دافئة، وقالت: «إذاً، أخبراني، لماذا أنتما هنا الآن؟».

«لقد علمت زوجتي مؤخراً أنها تعاني من مرض الألزهايمر، ونحن نريد أن يتم تصويرها لفحص كل من الطفرات APP وPS1 وPS2».

لقد أنجز جون فرضه المنزلي بكل دقة. فقد أمضى الأسابيع القليلة الفائتة وهو يدرس الأسباب الجزيئية لمرض الألزهايمر. فالبروتينات الرحّالة التي تولد من هذه الجينات المتغيرة هي الأسباب المعروفة للإصابة بالحالات المبكرة للمرض.

سألت ستيفاني: «أخبريني يا أليس، ما الذي تأملين بمعرفته من الفحص؟».

«حسناً، يبدو لي وسيلة منطقية لمحاولة التأكد من تشخيص حالتي بالتأكيد أكثر من تشريح الدماغ».

«هل أنت قلقة من أن يكون تشخيصك خطأ؟».

فقال جون: «نظن أنها إمكانية حقيقية».

«حسناً. أولاً، دعانا نتحدث عن الفرق بين فحص الطفرات السلبية والإيجابية، وعما يعنيه ذلك بالنسبة إليك. إن أتى فحص طفراتك الجينية إيجابياً بالنسبة إلى الطفرات APP أو PS1 أو PS2، فيمكننا القول إن هذا تأكيد واضح على صحة تشخيص مرضك. ومع ذلك، قد تصبح الأمور مربكة بعض الشيء إن أتت النتيجة سلبية. فعندها، لا يمكننا أن نفسر ما قد تعنيه هذه النتيجة بشكل مؤكد. فحوالي خمسين بالمئة من المرضى الذين يعانون من البداية المبكرة للمرض لا يظهرون أي تغيير في هذه الطفرات الثلاث، ولكن هذا لا يعني أنهم لا يعانون من مرض الألزهايمر وأن مرضهم ليس على أساس جيني، ولكن الأمر فقط هو أننا لا نعرف بعد أين توجد هذه الطفرة».

سأل جون قائلاً: «أليس هذا الرقم أكثر من عشرة بالمئة بالنسبة إلى شخص في مثل سنها؟».

«إن الأرقام أكثر اختلافاً بقليل بالنسبة إلى شخص في مثل سنها، هذا صحيح. ولكن، إن أتت فحوصات أليس سلبية، فلا يمكننا لسوء الحظ أن نقول بشكل مؤكد إنها لا تعاني من المرض. فقد يصادف أنها تندرج مع النسبة البسيطة من الناس من السن نفسها الذين يعانون من المرض ولديهم طفرة في جين لم يتم تحديد هويته بعد».

بدا كلامها منطقياً تماماً؛ إن لم يصبح حتى منطقياً أكثر بعد إضافته إلى الرأي الطبي الذي قدمه الدكتور ديفيز. أدركت أليس أن جون يفهم هذا، ولكن تفسيره يندرج تحت نظرية «أليس لا تعاني من مرض الألزهايمر، وحياتنا لم تصبح مدمرة». ولكن ستيفاني لم تكن تعرف ذلك.

سألتها ستيفاني: «هل يبدو هذا الكلام منطقياً بالنسبة إليك يا أليس؟».

رغم أن السياق جعل السؤال معقولاً، إلا أن أليس كرهته لأنها لمحت فيه أحاديثها القادمة في المستقبل. ترى، هل ستتمتع بالأهلية الكافية لكي تفهم ما يقال لها؟ هل بات دماغها تالفاً وعقلها مرتبكاً حيث لا تدرك ما يقال لها؟ لطالما خاطبها

الناس بكل احترام. وإن حل المرض العقلي محل براعتها المعهودة، فما الذي سيحل محل الاحترام الكبير الذي يكنه لها الآخرون؟ الشفقة؟ أم التنازل؟ أم الإحراج؟

قالت أليس: «نعم».

«أريد أن أوضّح لك أيضاً أنه إن كانت نتيجة فحصك إيجابية، فالتشخيص الجيني لن يغير أي شيء حيال علاجك أو احتمال شفائك بعد العلاج».

«فهمت».

«حسناً، إذاً دعينا نحصل على بعض المعلومات عن عائلتك. هل والداك على قيد الحياة يا أليس؟».

«كلا، فقد توفيت والدتي في حادث سيارة وهي في الحادية والأربعين من عمرها. أما والدي فقد توفي في العام الماضي بعمر الحادية والسبعين إثر إصابته بفشل في وظائف الكبد».

«كيف بدت ذاكرتاهما وهما على قيد الحياة؟ هل أظهر أحدها أي دلائل على الخرف أو تغيّرات الشخصية؟».

«كانت والدتي بكامل صحتها وعافيتها. أما والدي فقد كان مدمناً على الشراب طوال حياته. ولطالما اتسمت شخصيته بالهدوء، ولكنه تحوّل إلى رجل شديد العنف مع تقدمه في السن، حتى بات من المستحيل إجراء محادثة مترابطة معه. وأظن أنه لم يعد يميزني على الإطلاق في السنوات القليلة الأخيرة من حياته».

«هل سبق أن أخذه أحد لمراجعة طبيب أعصاب؟».

«كلا. فقد افترضت أن السبب هو الشراب».

«متى تظنين أن هذه التغييرات بدأت تطرأ عليه؟».

«في مطلع العقد الخامس من عمره تقريباً».

قال جون: «لقد اعتاد أن يشرب حتى الثمالة كل يوم، فمات بسبب فشل في الكبد وليس بسبب مرض الألزهايمر».

توقفت أليس وستيفاني عن الكلام، وكأنهما متفقتان ضمنياً على أن تسمحا له بأن يفكر في ما يريده ثم تمضيا بالكلام.

«هل لديك أي أشقاء أو شقيقات؟».

«لقد توفيت أختي الوحيدة في حادث السيارة الذي توفيت فيه أمي، ولم تكن حينها تتجاوز السادسة عشرة من عمرها. وليس لدي أشقاء ذكور».

«ماذا عن عماتك وأعمامك وخالاتك وأخوالك وأبنائهم وأجدادك؟».

فحكت لها أليس كل ما تعرفه- وهو محدود- عن صحة كل من جديها وأقاربها الآخرين، وتاريخ وفاة كل منهم.

«حسناً. إن لم تكن لديكما أية أسئلة أخرى، فستأتي إحدى الممرضات وتسحب عينة من الدم، ثم سنرسل العينة ليتم تحليلها. وينبغي أن تظهر النتائج خلال بضعة أسابيع».

راحت أليس تحدق من النافذة وهما منطلقان بسيارتهما عبر طريق ستورو. كان الطقس شديد البرودة في الخارج، والظلام حالكاً رغم أن الساعة لا تتجاوز الخامسة والنصف. لم تر أي أحد يتحدى عوامل الطبيعة على طول نهر تشارلز، ولم تلاحظ أي دليل على وجود الحياة. أطفأ جون جهاز الستيريو، فلم يعد هناك أي شيء يشتت عقلها عن التفكير في الحمض النووي التالف والنسيج الدماغي الميت.

«ستأتي النتيجة سلبية يا آلي».

«ولكنّ هذا لا يغير شيئاً، ولا يعني أنني لست مصابة بالمرض».

«ليس تقنياً، ولكنه يفسح أمامنا مجالاً للتفكير في أن هذا قد يكون شيئاً آخر».

«مثل ماذا؟ لقد تحدثت إلى الدكتور ديفيز، وقد اختبرني للكشف عن كل سبب يخطر على البال من أسباب الخرف».

«حسناً، أظن أنك استبقت الأحداث عندما ذهبت لمراجعة طبيب أعصاب. فهو ينظر إلى الأعراض ولا يرى سوى مرض الألزهايمر، وهذا هو الشيء الذي تدرّب ليراه، ولكنّ ذلك لا يعني أنه على صواب. أتتذكرين عندما أصيبت ركبتك في العام الماضي؟ لو أنك ذهبت إلى جرّاح تجبيري لرأى رباطاً ممزقاً أو غضروفاً مهترئاً، ولأراد أن يجري لك عملية جراحية. فهو جراح، ويرى أن الجراحة هي الحل، ولكنك كففت عن الذهاب للركض لبضعة أسابيع، وأخذت قسطاً من الراحة، وتناولت مسكن الإيبوبروفين وأصبحت على ما يرام.

أظن أنك مرهقة ومتوترة، وأظن أن التغييرات الهرمونية الناجمة عن انقطاع الطمث هي التي تُحدِث هذه الفوضى في وظائفك الجسدية، كما أظن أنك مصابة بالاكتئاب. يمكننا أن نتولى كل هذه الأمور يا آلي، ويجب علينا وحسب أن نتولى حل كل مشكلة على حدة».

بدا كلامه منطقياً. إذ ليس من الوارد لشخص في مثل سنها أن يصاب بمرض الألزهايمر. كانت تمر بمرحلة انقطاع الطمث، وتشعر بالإرهاق وربما بالاكتئاب أيضاً؛ وهذا قد يفسر السبب الذي جعلها لا تقاوم التشخيص بقوة أكبر ولا تحارب بأسنانها ضد مجرد التلميح إلى هذا المصير المحتوم، وهذا بالتأكيد ليس من شيمها. فربما كانت متوترة ومتعبة ومكتئبة ويائسة، ولكنها لا تعاني من الألزهايمر.

الخميس:

7:00 تناول الأدوية الصباحية (أنجز)

إكمال التقرير العصبي النفسي (أنجز)

11:00 اجتماع مع دان في مكتبي (أنجز)

12:00 حلقة بحث على الغداء في الغرفة رقم 700 (أنجز)

3:00 موعد مع مستشارة الجينات (جون لديه المعلومات)

8:00 تناول الأدوية المسائية

وجدا ستيفاني جالسة خلف مكتبها عندما دخلا، ولكنها هذه المرة لم تبتسم.

قالت ستيفاني: «قبل أن نتحدث عن النتائج، هل هناك أي شيء تودين مراجعته حول أي من المعلومات التي تحدثنا عنها في المرة الماضية؟».

فقالت أليس: «كلا».

«أما زلت تريدين هذه النتائج؟».

«نعم».

«يؤسفني القول يا أليس إن نتيجتك أتت إيجابية بالنسبة إلى طفرة الجين PS1».

إذاً، ها هو الدليل القاطع يُقدم إليها بكامل قسوته ومرارته؛ من دون أي سكر أو ملح أو منكهات. فشعرت به الآن يحرقها حتى الصميم. يمكنها أن تتناول مزيجاً من بدائل الإستروجين، وأن تقضي الشهور الستة التالية وهي تنام اثنتي عشرة ساعة في اليوم، ولكنّ هذا لن يغير من الحقيقة شيئاً، فهي مصابة بالألزهايمر. أرادت أن تنظر إلى جون، ولكنها لم تستطع أن تجبر نفسها على إدارة رأسها.

«كما تكلمنا من قبل، إن هذه الطفرة الجينية موروثة من أحد الوالدين، وترتبط بتقدم معين لمرض الألزهايمر، لذا فالنتيجة تنطبق مع التشخيص الذي تلقيته من قبل».

سأل جون: «ما هي نسبة الخطأ الذي يحتمل أن يكون وارداً في معمل التحاليل؟ ما هو اسم المعمل؟».

«إنه معمل أثينا للتشخيص، وهم يقدمون تحاليل يصل مستوى دقتها إلى أكثر من تسع وتسعين بالمئة في اكتشاف هذه الطفرة الجينية».

فقالت أليس: «إن النتيجة إيجابية يا جون».

والآن، نظرت إليه، وتأملت وجهه الذي يبدو في الحالات الطبيعية خشناً ومفعماً بالتصميم، ولكنه بدا في نظرها الآن ضعيفاً بشكل لم تألفه من قبل.

«إنني آسفة. فأنا أدرك أنكما تبحثان عن طريقة للتهرب من هذا التشخيص».

سألت أليس: «ما الذي يعنيه هذا بالنسبة إلى أولادنا؟».

«نعم، هناك الكثير للتفكير بشأنه حيال هذا الموضوع. ما هي أعمارهم؟».

«جميعهم في العقد الثاني من أعمارهم».

«لا يمكننا أن نتوقع من أحد منهم أن تظهر عليه الأعراض بعد، ولكنّ كل واحد من أولادك لديه احتمال بنسبة خمسين بالمئة بأن يرث هذه الطفرة الجينية؛ وهذا يعني نسبة واحد بالمئة من فرص الإصابة بالمرض. يمكن إجراء فحص استباقي للجينات، ولكنّ هناك الكثير من الأسئلة المطروحة هنا. أهذا شيء يودّون أن يعيشوا حياتهم وهم يعرفونه؟ وكيف سيغير هذا الأمر مجرى حياتهم؟ ماذا إن اكتشفنا أن نتيجة أحدهم إيجابية والآخر سلبية؟ كيف سيؤثر هذا في علاقتهم ببعضهم بعضاً؟ هل يعرفون بتشخيص مرضك يا أليس؟».

«كلا».

«قد تفكرين في إخبارهم في وقت قريب. إنني أدرك أن هذا كثير لكي تخبريهم به دفعة واحدة، ولا سيما لأنني أعرف أنكما لا تزالان تحاولان استيعاب الصدمة. ومع ذلك، في حالة مرض سريع التطور مثل هذا، قد تؤجلين إخبارهم إلى وقت لاحق، ولكنك عندئذ قد لا تستطيعين فعل هذا بالطريقة التي أردتها أساساً، أو ربما يكون هذا شيئاً تودين أن تتركيه لجون؟».

قالت أليس: «كلا، بل سنخبرهم».

«هل لدى أحد من أولادك أطفال؟».

آنا وتشارلي.

«ليس بعد».

«إن كانوا يخططون لذلك، فقد تكون هذه معلومات بغاية الأهمية بالنسبة إليهم. توجد بعض المعلومات المكتوبة التي جمعتها والتي يمكنك أن تعطيهم إياها إن أردت ذلك. وهناك أيضاً بطاقتي وبطاقة معالج نفسي يتعامل ببراعة مع العائلات التي تجري تحاليل وتشخيصات جينية. هل هناك أية أسئلة يمكنني أن أجيبك عنها الآن؟».

«كلا، ليس هناك ما يخطر ببالي».

«إنني آسفة لأنني لم أتمكن من أن أقدم لك النتائج التي تأملين الحصول عليها».

«وأنا أيضاً».

لم ينبس أي منهما ببنت شفة، وركبا السيارة بصمت. دفع جون المال إلى موظف المرأب، ثم انطلقا في طريقهما على طول طريق ستورو. للأسبوع الثاني على التوالي، ظلت درجات الحرارة تحت الصفر مترافقة مع رياح باردة، وهذا ما أجبر محبي الركض على أن يلازموا بيوتهم؛ إما ليستخدموا أجهزة المشي الكهربائية أو ليقوموا بمجرد الانتظار إلى أن يحل طقس أكثر لطفاً، ولكنّ أليس كانت تكره أجهزة المشي الكهربائية. جلست على مقعد الراكب، وانتظرت من جون أن يقول شيئاً ما، ولكنه لم يفعل ذلك، بل ظل يذرف الدموع بصمت طوال الطريق إلى البيت.

آذار 2004

فتحت أليس الغطاء المخصص ليوم الاثنين من علبة الأدوية، وأخرجت منها سبع حبوب وضعتها على راحة يدها. وفي تلك اللحظة، دخل جون المطبخ، ولكنه عندما رأى ما تحمله بيدها ارتد على عقبيه وغادر الغرفة؛ وكأنه شاهد منظراً تقشعر له الأبدان. إذ إن تناولها أدويتها أصبح مزعجاً بالنسبة إليه. فقد يكون في غمرة الحديث، وفي وسط جملة ما، ولكنه ما إن يرآها تخرج علبة الأدوية المخصصة لأيام الأسبوع حتى يغادر الغرفة منهياً المحادثة.

ابتلعت الحبوب بثلاث جرعات من الشاي شديد السخونة، وأحرقت حلقها. فهي لم تجد تلك التجربة ممتعة على حد سواء. جلست إلى طاولة المطبخ، ونفخت على كوب الشاي حتى يبرد، وأصغت إلى صوت جون وهو يتحرك بصخب في أنحاء غرفة النوم فوقها.

صاحت له قائلة: «عم تبحث؟».

فصاح بدوره: «لا شيء».

إنها نظارته على الأرجح. خلال الشهر الفائت، منذ زيارتهما الأخيرة إلى مستشارة الجينات، كفّ عن طلب مساعدتها في العثور على نظارته ومفاتيحه رغم معرفتها أنه لا يزال يعاني من صعوبة في معرفة مكان هذه الأشياء.

دخل المطبخ بخطوات سريعة توحي بنفاد الصبر، فسألته قائلة: «هل يمكنني أن أساعدك؟».

«كلا، إنني بخير».

تساءلت عن سبب تصرفه الاستقلالي العنيد والمفاجئ. ترى، هل أراد أن يخفف عنها العبء العقلي المترتب عن البحث عن أغراضه الضائعة؟ أم التدرّب على الحياة في المستقبل من دونها؟ هل شعر بالإحراج الشديد من طلب المساعدة

من امرأة مصابة بالألزهايمر؟ ارتشفت الشاي وهي مستغرقة في تأمل لوحة معلقة على الجدار منذ عقد من الزمن على الأقل، وقد رسمت عليها تفاحة وإجاصة، وأصغت إلى الصوت الصادر عن تقليبه في البريد والأوراق على الطاولة خلفها.

مرّ بها وهو يتوجه إلى المدخل الأمامي، وسمعت صوت باب خزانة المدخل وهو ينفتح، ثم سمعته مرة أخرى لدى انغلاقه. وسمعت صوت الأدراج في طاولة القاعة وهي تُفتَح ثم تُغلَق.

ناداها من بعيد قائلاً: «هل أنت مستعدة؟».

أنهت شرب الشاي، ثم قابلته في المدخل الأمامي، فوجدت أنه ارتدى معطفه ووضع نظارته فوق شعره المشعث والمفاتيح بيده.

قالت أليس وهي تتبعه إلى الخارج: «نعم».

كانت بداية الربيع في كامبريج أشبه بكاذب كبير وغير جدير بالثقة. إذ لم تظهر حتى تلك اللحظة أي براعم في الأشجار، أو أزهار توليب شجاعة أو غبية بما يكفي لكي تخرج من تحت طبقة الثلج التي يبلغ عمرها حوالي شهر. وظلت الشوارع ضيقة بفعل أكوام الثلج المسود والملوث المتراكم على أطرافها؛ لأن الثلج الذي ذاب خلال دفء فترة الظهيرة النسبي عاد للتجمد مرة أخرى مع هبوط درجات الحرارة في فترة العصر المتأخرة، محوِّلاً الممرات في ساحة هارفرد وأرصفة المدينة إلى ممرات خطرة ومكسوة بالجليد الأسود. لقد جعل تاريخ اليوم بحد ذاته الجميع يشعرون بالإهانة أو الخيانة لمعرفتهم أن فصل الربيع قد حان في مكان آخر، وأن الجميع هناك يرتدون ملابس بأكمام قصيرة، ويستيقظون على صوت تغريد العصافير. أما هنا، فهذا البرد والبؤس لم يظهرا أي دليل على الاستسلام. ولم تكن الطيور التي سمعت أليس صوتها وهما يسيران إلى حرم الجامعة سوى غربان سوداء مزعجة.

كان جون قد وافق على أن يمشي معها إلى هارفرد صباح كل يوم. فقد أخبرته أنها لا تريد المخاطرة بتعريض نفسها للضياع مرة أخرى، ولكنها في حقيقة الأمر أرادت ببساطة أن تستعيد هذا الوقت معه، وأن تعيد إذكاء هذا التقليد الصباحي الذي اعتادا عليه في الماضي. ولسوء الحظ، إن احتمال أن تصدمهما سيارة أقل

من خطورة تعرضهما للأذى من جرّاء الانزلاق على الأرصفة المتجمدة؛ لذا سارا في رتل خلف بعضهما بعضاً ولم يتبادلا أي حديث.

دخلت حصاة في فردة جزمتها اليمنى، فتساءلت في سرّها إن كان ينبغي لها أن تتوقف في منتصف الطريق لتخرجها، أم تنتظر إلى أن يصلا إلى مقهى جيري. فلكي تخرجها، يجب عليها أن تتوازن في الطريق على قدم واحدة، بينما تعرض القدم الأخرى للهواء البارد. لذا، قررت أن تتحمل الإزعاج إلى أن تجتاز مسافة الشارعين المتبقيين.

أصبح مقهى جيري الذي يقع في ماس آفي في منتصف الطريق بين ساحتي بورتر وهارفرد مؤسسةً من مؤسسات كامبريدج لمدمني القهوة المزمنين قبل غزو مقاهي ستاربكس. بقيت لائحة القهوة والشاي والمعجنات والشطائر المكتوبة بالطباشير على لوح خشبي خلف المنضدة كما هي من دون أن يطرأ عليها أي تغيير منذ أيام دراسة أليس الجامعية. وكانت الأسعار المجاورة لأسماء الأشياء هي وحدها التي تغيرت؛ حيث بدت محددة بغبار الطباشير، ومكتوبة بخط يعود إلى شخص يختلف عن كاتب الأشياء المقدمة إلى يسارها. تفحصت أليس اللوحة بارتباك.

قال جون: «صباح الخير يا جيس. أريد فناجاً من القهوة، وقطعة من خبز القرفة من فضلك».

وقالت أليس: «وأنا أريد الشيء نفسه».

فقال جون: «ولكنك لا تحبين القهوة».

«بل أحبها».

«كلا، أنت لا تحبينها. ستتناول الشاي مع الليمون».

«بل أريد قهوة وقطعة من خبز القرفة».

نظرت جيس إلى جون لترى إن كان سيرد على سهام زوجته، ولكن بدا لها أنها توقفت.

فقالت جيس: «حسناً، فنجانان من القهوة وكعكتا قرفة».

في الخارج، تناولت أليس رشفة من قهوتها، فبدا لها طعمها لاذعاً وغير

محبب، ويكاد لا يعكس رائحتها الزكية على الإطلاق.

سألها جون قائلاً: «إذاً، كيف تجدين قهوتك؟».

«رائعة».

وبينما هما يمشيان إلى حرم الجامعة، استمرت أليس بشرب القهوة التي لم تعجبها لتغيظه، ولكنها كانت في غاية الشوق لتجلس بمفردها في مكتبها حيث يمكنها أن ترمي ما تبقى من هذا الشراب التعس. وبالإضافة إلى ذلك، تلهّفت لكي تزيل الحصاة من حذائها.

بعد أن خلعت الحذاء وسكبت القهوة في القمامة، فتحت صندوق بريدها أولاً، ووجدت رسالة من آنا.

مرحباً أمي،

كنا نود أن نأتي لتناول العشاء، ولكن هذا الأسبوع صعب علينا بعض الشيء بسبب محاكمة تشارلي. ماذا عن الأسبوع القادم؟ ما هي الأيام التي تناسبك وتناسب والدي؟ نحن متفرغان في أي ليلة ما عدا يومي الخميس والجمعة.

آنا.

حدقت إلى المؤشر الذي راح ينتظرها بسخرية على شاشة الكمبيوتر. حاولت أن تتخيل الكلمات التي أرادت أن تستخدمها في الرد على رسالة ابنتها. وكان تحويلها أفكارها إلى صوت أو كلمات يكتبها القلم أو أزرار الكمبيوتر يتطلب عادة جهداً واعياً ومحاولة هادئة، ولكن لم تعد لديها الآن سوى ثقة قليلة بتهجئة الكلمات التي لطالما كوفئت لإتقانها إياها بالنجوم الذهبية وإطراء معلميها في المدرسة.

رنّ الهاتف.

«مرحباً يا أمي».

«آه، جيد. كنت على وشك الرد على بريدك».

«لم أرسل لك أي بريد يا أمي».

قرأت أليس الرسالة على الشاشة مرة أخرى وهي غير واثقة من نفسها.
«لقد قرأتها للتو. تشارلي لديه محاكمة هذا الأسبوع...».
«أنا ليديا يا أمي».
«آه! ما الذي تفعلينه في هذا الوقت المبكر من الصباح؟».
«إنني دائماً أستيقظ في هذا الوقت. أردت أن أتصل بك وبوالدي في الليلة الماضية، ولكنني وجدت الوقت متأخراً حسب توقيتكم. لقد حصلت للتو على دور مدهش في مسرحية اسمها **ذاكرة الماء**، وهي من إخراج ذلك المخرج الاستثنائي الذي أخبرتك عنه، وسيتم عرضها ست مرات في شهر أيار. أظن أنها ستكون في غاية الروعة. وبسبب هذا المخرج، سوف تحظى بالكثير من الاهتمام. كنت آمل أنك ووالدي ربما تأتيان وتريانني وأنا أؤدي دوري فيها، ما رأيك؟».
بعد التلميح الذي شعرت به من نبرة السؤال التي تحدثت بها ابنتها والصمت الذي تلا جملتها، أدركت أليس أن دورها قد حان لتتكلم، ولكن توجب عليها أن تبذل جهداً لتحاول استيعاب كل ما قالته ليديا للتو. فمن دون التلميحات البصرية التي تحصل عليها من الشخص الذي تتحدث إليه وجهاً لوجه، غالباً ما تتسبب المحادثات الهاتفية في إرباكها. في بعض الأحيان، تنسجم الكلمات مع بعضها بعضاً، ولكن التغييرات المفاجئة في الموضوع تبدو صعبة عليها لتتوقعها وتتابعها؛ مما يؤدي إلى معاناتها في إدراك معانيها. ورغم أن الكتابة أظهرت نسبة من المشاكل، إلا أنها استطاعت أن تبقيها مخفية من الاكتشاف؛ لأنها ليست مجبرة فيها على الاستجابة الفورية الملموسة.
قالت ليديا: «إن كنت لا تريدين الذهاب، فبإمكانك قول ذلك بصراحة».
«كلا، بل أريد، ولكن...».
«وإن كنت مشغولة، فلا بأس. أعرف أنه توجّب عليَّ الاتصال بوالدي».
«ليديا...».
«لا تشغلي بالك، يجب علي الذهاب».
وأنهت المكالمة. كانت أليس على وشك أن تقول لها إنه يجب عليها أن تتفقد الأمور مع جون، وإنها تود أن تحضر إن قال لها إن بوسعه أخذ إجازة من العمل

في المختبر. ومع ذلك، إن لم يستطع الذهاب، فذلك يعني عدم قدرتها على تلبية دعوة ابنتها لأنها لا تستطيع السفر عبر البلاد وحدها، وسيتوجب عليها حينها أن تختلق عذراً ما. فبسبب خوفها من الضياع أو الإصابة بالارتباك وهي بعيدة عن البيت باتت تتجنب السفر؛ لدرجة أنها رفضت عرضاً لإلقاء كلمة في جامعة ديوك في الشهر التالي، وألغت مشاركتها في مؤتمر لغوي اعتادت أن تحضره كل عام منذ أن تخرجت من الجامعة. لقد تمنت من كل قلبها أن تحضر مسرحية ليديا، ولكن حضورها هذه المرة بات مقيداً بتفرغ جون لمرافقتها.

أمسكت الهاتف وهي تفكر في معاودة الاتصال بليديا، ثم غيرت رأيها. عادت إلى الكمبيوتر، وأغلقت رسالة آنا من دون أن تردّ عليها، ثم فتحت رسالة جديدة لترسلها إلى ليديا، وراحت تحدق إلى المؤشر على الشاشة بينما تسمرت أصابعها بلا حراك على لوحة المفاتيح. وشعرت أن بطارية دماغها شبه فارغة اليوم.

حثت نفسها قائلة: «هيا». وتمنت لو كان بوسعها أن تصل شريطين برأسها لتمنح نفسها شحنة كهربائية قوية.

لم يكن لديها وقت لمرض الألزهايمر اليوم. فقد كانت لديها رسائل يجب أن ترد عليها، وعرض لتكتبه، ومحاضرة لتدرسها، وحلقة بحث لتحضرها، وفي نهاية اليوم جولة جري. فكرت في أن الجري لبعض الوقت قد يمنحها بعض الصفاء الذهني.

دست أليس قطعة ورق كتبت عليها اسمها وعنوانها ورقم هاتفها في جوربها. فإن أصابها الارتباك ولم تعد تعرف الطريق إلى البيت، فقد لا يكون ذهنها حاضراً بالطبع لكي تتذكر أنها تحمل هذه المعلومات الهامة معها، ولكنها اتخذت هذا الإجراء الوقائي في كل الأحوال.

بدأ الجري يفقد فعاليته في إعادة الصفاء إلى أفكارها. في الواقع، في هذه الأيام بدأت تشعر أنها تطارد الأجوبة على مسار لا نهائي من الأسئلة المتلاحقة. ومهما بذلت جهداً في الجري، لم تتمكن من اللحاق بها.

ما الذي ينبغي لي فعله الآن؟ استمرت بتناول أدويتها والنوم لمدة ست ساعات

أو سبع كل ليلة، والتشبث بالحياة الطبيعة اليومية في هارفرد، ولكنها شعرت أنها مخادعة وهي تتظاهر بأنها أستاذة في جامعة هارفرد لا تعاني من مرض متلف للأعصاب ومتطور، كما كانت تعمل كل يوم وكأن كل شيء عادي وبخير وسيستمر على هذا النحو.

لم يكن هناك الكثير من المقاييس للأداء أو المسؤولية اليومية في حياة الأستاذ الجامعي. ولم تكن لديها كتب يجب عليها مقارنتها، ولا تقارير كتابية لتسلمها بشكل يومي؛ ممّا أفسح لها هامشاً للخطأ. ولكن، إلى أي حد؟ ففي نهاية المطاف، لا بد أن أداءها سيتدهور إلى مستوى ملحوظ وغير مقبول. فكرت في أن تغادر هارفرد قبل حدوث ذلك؛ أي قبل أن تبدأ الثرثرة حولها والشفقة عليها، ولكنها لم تجد أي طريقة لتخمن بها كيف سيحدث ذلك.

ورغم أن فكرة البقاء لوقت طويل أرعبتها، إلا أن فكرة مغادرة هارفرد أرعبتها حتى أكثر من ذلك بكثير. فمن ستكون هي إن لم تكن أستاذة في علم النفس بجامعة هارفرد؟

هل ينبغي لها أن تجرب إمضاء أكبر قدر ممكن من الوقت مع جون والأولاد؟ ما الذي سيعنيه هذا بشكل عملي؟ أن تجلس مع آنا وهي تطبع ملخصاتها، وتلاحق توم كظله في جولاته على المرضى، وتشرف على ليديا في دروس التمثيل التي تحضرها؟ كيف يفترض بها أن تخبرهم أن كل واحد منهم لديه فرصة بنسبة 50 بالمئة لكي ينجو من هذا المرض اللعين؟ ماذا إن ألقوا باللوم عليها وكرهوها كما لامت هي والدها وكرهته؟

كان الوقت لا يزال مبكراً جداً على وصول جون إلى سن التقاعد. ولكن، كم من الوقت يمكنه من الناحية الواقعية أن يأخذ من الإجازات من دون أن يقضي ذلك على مهنته؟ وكم من الوقت تبقى لديها؟ أبقي لديها عامان؟ عشرون عاماً؟

رغم أن الألزهايمر يميل إلى التطور بشكل أسرع في البداية المبكرة أكثر منه في البداية المتأخرة، إلّا أن المرضى الذين يعانون من البداية المبكرة يعيشون مع المرض عادة سنوات أطول بكثير؛ لأن المرض يتطور في عقل يكمن في أجساد شابة وموفورة الصحة إلى حد كبير. وهكذا، أدركت أنها ستبقى صامدة كل الطريق

إلى أن تصل إلى النهاية المريرة؛ حيث لن تعود قادرة على إطعام نفسها أو الكلام أو حتى على تمييز جون وأولادهما، ثم ستنطوي على نفسها كالجنين. وعندما تنسى كيف تبتلع الطعام، سوف تصاب بالتهاب رئوي. وعندئذ، سوف يتفق كل من جون وآنا وتوم وليديا على ألا يعالجوها بعلاج بسيط من مضادات الالتهاب وضمائرهم تؤنبهم بسبب شعورهم بالامتنان لأن هناك شيئاً ما قد حدث أخيراً ليقضي على جسدها.

توقفت عن الجري، وانحنت إلى الأمام، وتقيأت وجبة اللازانيا التي تناولتها على الغداء. كانت ستمضي بضعة أسابيع قبل أن يذوب الثلج ليغسل آثار القيء.

كانت تدرك بالضبط أين تقف، فقد وصلت إلى دار العبادة التي تبعد بضعة شوارع فقط من بيتها. ورغم معرفتها للمكان الذي تقف فيه، إلّا أنها لم تشعر بأنها تائهة بهذا الشكل في حياتها قط. بدأت أجراس دار العبادة تقرع بنغم ذكّرها بدقات الساعة القديمة في بيت جديها. أدارت مقبض الباب الحديدي الأحمر الذي يشبه حبة الطماطم، وتبعت حدسها الذي دفعها إلى الداخل.

شعرت بالارتياح لعدم وجود أحد في المكان؛ لأنها عجزت عن أن تؤلف في ذهنها قصة مترابطة عن السبب الذي دفعها للدخول. فقد كانت أمها يهودية، ولكن والدها أصر على أن يربيها وأختها آنا على المذهب الكاثوليكي. وهكذا، اعتادت وهي طفلة أن ترتاد دار العبادة كل يوم أحد. ولكن، لأن أمها لم تشارك في أي من تلك الطقوس الدينية، بدأت أليس تشكك في جدوى هذه المعتقدات منذ سن مبكرة. وعندما لم تحصل على أي جواب شافٍ من أبيها أو أمها أو المؤسسة الدينية الكاثوليكية، لم يتشكل في ذهنها أي معتقد ديني محدد.

تسرّبت الأضواء القادمة من مصابيح الشارع في الخارج عبر النوافذ القوطية ذات الزجاج الملون، ومنحتها إضاءة كافية لترى أرجاء دار العبادة بأكملها.

لم يكن من الممكن أن يوجد أحد يعاني من محنة أشد قسوة من محنتها. تمنّت من كل قلبها أن تطلب المساعدة، ولكنها شعرت بأنها منتهكة لخصوصية الآخرين، وغير مخلصة لهم، ولا تستحق أية مساعدة منهم. فمن هي لتطلب العون؟

أغمضت عينيها، وأصغت إلى الأصوات الهادئة الصادرة من السيارات البعيدة وكأنها أمواج البحر، وحاولت أن تصفّي ذهنها. لم تستطع أن تدرك كم من الوقت ظلت جالسة على المقعد المكسو بوسادة مخملية في دار العبادة الباردة تلك التي يسودها الظلام منتظرة إجابة عن تساؤلاتها؛ إجابة لم تأتِ قط. ظلت جالسة لوقت أطول على أمل أن يدخل أحد ويسألها عن سبب وجودها هناك. فقد أصبح لديها الآن تفسير لوجودها، ولكن لم يأتِ أحد.

فكرت في بطاقات العمل التي أُعطِيت إياها من قبل الدكتور ديفيز وستيفاني آرون، وخطر ببالها أن تتحدث إلى أحد الموظفين الاجتماعيين أو المعالجين، فربما كان باستطاعة أحدهم مساعدتها. والآن، شعرت أن الجواب أتى إليها بكل وضوح وبساطة.

فقررت أن تتحدث إلى جون.

وجدت نفسها غير قادرة على الدفاع عن نفسها في وجه الهجوم الذي تعرضت له لحظة دخولها من باب البيت.

فقد سألها جون فجأة: «أين كنت؟».

«ذهبت للجري».

«أكنت تجرين طوال ذلك الوقت؟».

«ذهبت أيضاً إلى دار العبادة».

«دار العبادة! لا أستوعب هذا يا آلي. أصغي إلي، أنت لا تشربين القهوة ولا تذهبين إلى دار العبادة عادة».

شمت رائحة الشراب في أنفاسه.

«حسناً، لقد فعلت هذا اليوم».

«كان من المفترض بنا تناول العشاء مع بوب وسارة، ولكنني اضطررت إلى الاتصال بهما والاعتذار. ألم تتذكري؟».

عشاء مع الصديقين بوب وسارة. تذكرت أنها دونت هذا الموعد في تقويمها.

«نسيت، فأنا أعاني من الألزهايمر».

«لم تكن لدي أية فكرة عن مكان وجودك، وعمّا إذا كنت قد تهت أو ما شابه. يجب عليك أن تبدئي بحمل هاتفك الجوال معك في كل الأوقات».

«لا أستطيع أن أحمله معي عندما أجري، فليست لدي أي جيوب».

«إذاً، ثبتيه على رأسك بشريط لاصق، لا يهمني ذلك. فأنا لست مضطراً إلى المعاناة من هذا القلق كلما نسيت أنه يفترض بك الحضور إلى مكان ما».

تبعته إلى غرفة المعيشة، فجلس على الأريكة وهو يحمل كأسه بيده ممتنعاً عن النظر إليها. وبدت قطرات العرق التي على جبينه مشابهة لتلك القطرات على كأس شرابه. ترددت قليلاً ثم جلست على حضنه، وحضنت كتفيه بقوة، ويداها تلامسان مرفقيها، ووضعت فمها على أذنه وأخبرته بكل شيء.

«إنني آسفة لأنني مصابة بهذا المرض، ولكنني لا أقوى على تحمل فكرة السوء الذي ستصل إليه حالتي، ولا على تحمل فكرة نظري إليك يوماً ما؛ إلى هذا الوجه الذي لطالما عشقته، من دون أن أعرف من أنت».

تحسست بيديها خط فكه وذقنه وخطوط الضحك على وجهه، ومسحت العرق عن جبهته والدموع عن عينيه.

«إنني أشعر أنني بالكاد قادرة على التنفس عندما أفكر في الأمر، ولكن يجب علينا أن نفكر فيه. لا أعرف كم تبقى لدي من الوقت لأعرفك فيه، لذا يجب أن نتحدث عما سيجري».

أرجع كأسه إلى الوراء، وشرب محتوياتها إلى آخر قطرة، ثم تناول بعض الثلج. وبعد ذلك، نظر إليها بحزن عميق، وبدا الخوف في عينيه. لم تره من قبل بهذه الحالة قط.

«لا أعرف إن كنت أستطيع ذلك».

نيسان 2004

رغم كل ما حبتهما به الطبيعة من ذكاء، فقد عجزا عن القيام بوضع خطة محددة وطويلة الأمد معاً. فهناك الكثير من الأمور التي ظلت مجهولة بالنسبة إليهما، ولا سيما في ما يتعلق بمدى سرعة تطور المرض. وقد سبق لهما أن أخذا إجازة لمدة سنة قبل ست سنوات ليؤلفا معاً كتاب «من الجزيئات إلى العقل»، لذا كانت لا تزال أمام كل منهما سنة كاملة قبل أن يصبح مؤهلاً لنيل إجازة سنوية أخرى. ترى، هل ستصمد أليس حتى ذلك الحين؟ في الوقت الحالي، قررا أن تنهي الفصل الدراسي وتتجنب السفر ما استطاعت، وأن يمضيا فصل الصيف في منزلهما في منطقة كيب. لم يكن بوسعهما تخيّل ما سيحدث سوى لغاية شهر آب فقط.

اتفقا على ألا يخبرا أحداً بالحقيقة بعد؛ باستثناء أولادهما فقط. فذلك البوح الذي لا مفر منه، والمحادثة التي تألما منها أكثر من أي شيء آخر كانا سيحصلان في صباح ذلك اليوم بالذات، وهم يتناولون خبز البيغل وسلطة الفاكهة وبيض الشوكولا.

لم يجتمعوا للاحتفال بمناسبة الفصح منذ عدة سنوات؛ فقد اعتادت آنا على أن تقضي تلك العطلة الأسبوعية برفقة عائلة تشارلي في بنسلفانيا. أما ليديا، فقد آثرت البقاء في لوس أنجلوس في السنوات القليلة الماضية، بينما احتفلت بهذه المناسبة في مكان ما في أوروبا قبل ذلك. أما جون، فقد حضر مؤتمراً في بولدر قبل بضع سنوات. تطلب الأمر بعض المجهود لإقناع ليديا بالحضور هذه السنة. فبينما هي في غمرة التجارب لمسرحيتها، ادعت أنها لا تستطيع مقاطعة تدريبها، وأنها لا تملك تكلفة الرحلة عبر الطائرة، ولكن جون أقنعها بأن تستغني عن يومين من التدريب ودفع لها ثمن تذكرة الطائرة.

رفضت آنا تناول شرابها المفضل، ولكنها بدلاً من ذلك أتت على طبق بيض

الكراميل الذي راحت تأكله كما تأكل الفوشار مع كوب من الماء المثلج. وقبل أن تساور أحد الشكوك عن حملها، بدأت تخوض في تفاصيل عملية التلقيح الاصطناعي داخل الرحم التي تعتزم إجراءها عما قريب.

«لقد قابلنا أحد الأطباء المختصين بالخصوبة في برايام، ولكنه لم يستطع أن يحدد سبب تأخر الحمل. فبويضاتي تتمتع بكامل الصحة، كما أنني أحصل على إباضة كل شهر. وأمور تشارلي في أحسن حال. وهذا ما يحبطني. فقد جربت حتى الوخز بالإبر الصينية ولم أجد أية نتيجة؛ باستثناء أن نوبات الشقيقة التي كنت أعاني منها قد اختفت. إذاً، على الأقل ينبغي أن أصبح قادرة على الحمل، لذا بدأت يوم الثلاثاء بحقن نفسي بحقن تساعد على تحرير البويضات، وعندئذ سوف يتم تخصيبها من تشارلي».

فقال تشارلي: «آنا!».

«حسناً، سيفعلون هذا، وآمل أن أكون حاملاً بحلول الأسبوع القادم».

أجبرت أليس نفسها على رسم ابتسامة تشجيع على وجهها، وحبست مخاوفها خلف أسنانها المطبقة. فأعراض مرض الألزهايمر لم تظهر عليها إلى ما بعد انتهاء سنوات الخصوبة، وبعد أن انتقل الجين المشوه بلا قصد منها إلى الجيل القادم. ماذا لو عرفت من قبل أنها تحمل هذا الجين، هذا القدر المحتوم، في كل خلية من خلايا جسمها؟ هل كانت ستحمل بهؤلاء الأولاد أم ستتخذ جانب الحيطة والحذر وتمنع حملها بهم؟ هل كانت ستخاطر بذلك؟ بالطبع، لم تعد تستطيع الآن أن تتخيل حياتها من دونهم. ولكن قبل أن تنجب أطفالاً، وقبل تجربة الحب الذي أتى معهم والذي لا تفهمه إلا الأم، هل كانت ستقرر ألا تفعل ذلك؟ وهل ستقرر آنا ذلك الآن؟

دخل توم البيت من دون وجود صديقته الجديدة برفقته، واعتذر لتأخره. فوجدت أليس غياب الصديقة أمراً محموداً؛ إذ ينبغي أن يكون اليوم مخصصاً لأفراد العائلة دون غيرهم. ولم تستطع أن تتذكر اسمها على أية حال. سلك توم طريقاً مختصراً إلى طاولة الطعام وهو على ما يبدو قلق من أن يكون قد فوّت طعام العشاء، ثم عاد إلى غرفة المعيشة وهناك ابتسامة عريضة على وجهه وطبق في يده

مليء بكومة من شتى الأصناف. جلس على الأريكة إلى جانب ليديا التي تمسك بنصها بيدها وعيناها مغمضتان، وهي تتمتم بكلمات دورها من دون صوت. ها هم جميعاً هنا! وها قد حان الوقت!

«لدينا موضوع مهم نريد أن نحدثكم به. وقد قررنا أن ننتظر إلى أن تجتمعوا هنا لنخبركم إياه».

نظرت إلى جون، فأومأ برأسه وضغط على يدها.

«لقد بدأت منذ بعض الوقت أعاني من بعض الصعوبات في ذاكرتي. وفي شهر كانون الثاني، تم تشخيص مرضي على أنه بداية مبكرة لمرض الألزهايمر».

أخذت الساعة على رف الموقد تتكتك بصوت مرتفع، وكأن هناك من رفع درجة صوتها؛ كما يبدو الأمر عندما لا يكون هناك أحد في البيت. وقف توم مسمراً في مكانه، وهناك شوكة مليئة بالطعام في وسط الطريق بين طبقه وفمه، ففكرت في أنه كان ينبغي لها أن تنتظر إلى أن ينتهي من تناول طعامه.

سألها قائلاً: «هل أنت واثقة من أنه مرض الألزهايمر؟ ألم تحصلي على رأي طبي آخر؟».

فقال جون: «لقد أجرت فحصاً جينياً، وهي تعاني من طفرة وراثية تسبب هذا المرض».

سأل توم: «أهو عامل وراثي؟».

«نعم».

قال ذلك لتوم وحده، ولكن فقط بعينيه.

فسألت آنا: «ما الذي يعنيه هذا؟ ما الذي قلته لتوم للتو يا أبي؟».

قال توم: «هذا يعني أن كل واحد منا لديه احتمال بنسبة خمسين بالمئة للإصابة بمرض الألزهايمر».

«وماذا عن طفلي؟».

قالت ليديا: «إنك حتى لم تصبحي حاملاً بعد».

فقالت أليس: «إن كنت تحملين الجين يا آنا فالأمر ذاته ينطبق على أطفالك. وكل طفل تنجبينه سيكون هناك احتمال بنسبة خمسين بالمئة لكي يرث المرض».

قالت آنا: «إذاً، ماذا سنفعل؟ هل نخضع للفحص؟».

فقالت أليس: «يمكنكم فعل ذلك».

قالت آنا: «يا إلهي! ماذا إن كنت أحمله؟ من الممكن أن يصاب طفلي به».

فأجاب توم: «على الأرجح، سوف يصبح هناك علاج بحلول الوقت الذي يحتاج فيه أي من أطفالنا إليه».

«ولكن، ليس في زمننا نحن، أهذا ما تريد قوله؟ إذاً، سيكون أطفالي على ما يرام، ولكنني سأصبح عجوزاً خرقاء لا عقل لها».

صاح جون في وجهها قائلاً: «هذا يكفي يا آنا».

صرّ أسنانه بينما توهج وجهه. قبل عقد من الزمن، ربما كان سيرسل آنا إلى غرفتها عقوبة لها. ولكنه بدلاً من ذلك، ضغط بيده بقوة على يد أليس، وراح يهز ساقه بعصبية. من نواحٍ عديدة، بات يشعر بنفسه عاجزاً تماماً.

قالت آنا: «آسفة».

فقالت أليس: «من المرجح جداً أن يتم ابتكار علاج وقائي بحلول الوقت الذي ستصبحون فيه في مثل سني. وهذا أحد الأسباب التي تجعلكم راغبين في معرفة ما إن كنتم تحملون الطفرة. إن تمكنتم من ذلك، فسيصبح بإمكانكم الخضوع للعلاج قبل وقت طويل من بدء الأعراض، وهذا ما آمل بالطبع ألا يحدث».

قالت ليديا: «أي نوع من العلاج لديهم من أجلك الآن يا أمي؟».

«حسناً، لقد أعطوني فيتامينات مضادة للأكسدة وأسبريناً ودواء خافضاً للكوليسترول ودواءين للنواقل العصبية».

قالت ليديا: «هل تساعد هذه الأدوية في منع مرض الألزهايمر من التطور إلى الأسوأ؟».

«ربما لبعض الوقت، ولكنهم لا يعرفون ذلك بشكل مؤكد فعلاً».

فسأل توم قائلاً: «ماذا عن الأدوية التي يتم اختبارها الآن؟».

قال جون: «إنني أبحث في هذا الموضوع في الوقت الحاضر».

فقد بدأ جون قبل فترة بالتحدث إلى أطباء وعلماء في بوسطن أجروا أبحاثاً حول الأسباب الجزيئية لمرض الألزهايمر، ووضعوا نظريات حول علاجات واعدة

نسبياً في المستقبل الطبي. كان جون أخصائياً بعلم خلايا السرطان وليس عالم أعصاب، ولكن لم يكن من الصعب عليه أن يبحث في أسباب الأمراض الأخرى التي يتعرض لها الجهاز العصبي، فهم جميعاً يتحدثون اللغة نفسها، ويستخدمون الاصطلاحات الطبية ذاتها. وكما هو الحال عندما يحصل المرء على بطاقة عضوية في أفخر النوادي، جعله عمله في جامعة هارفرد يحظى بالمصداقية، وسرعة الوصول إلى أكثر الأخصائيين احتراماً ومكانة في جمعية أبحاث الألزهايمر في بوسطن. فإن تم ابتكار علاج أفضل، أو بات من المحتمل وجوده في القريب العاجل، فسيستطيع جون الحصول عليه من أجلها.

قال توم: «ولكن يا أمي، أنت تبدين بحالة رائعة. لا بد أنك اكتشفت إصابتك بهذا المرض في وقت مبكر جداً. ولكنني لم أنتبه حتى إلى أن هناك أي خطب بك».

فقالت ليديا: «أما أنا فقد شعرت بذلك. ليس أنها مصابة بالألزهايمر بالطبع، ولكنني أدركت أن هناك مشكلة ما».

سألت آنا: «كيف؟».

«مثل أنها لم تعد تتحدث بشكل منطقي عبر الهاتف، وبدأت تكرر كلامها كثيراً، ولم تعد تتذكر شيئاً قلته لها قبل خمس دقائق. كما أنها نسيت كيف تعد الكعكة يوم الكريسمس».

سأل جون: «منذ متى وأنت تلاحظين هذا؟».

«منذ عام على الأقل».

لم تستطع أليس أن تعود بذاكرتها إلى الوراء لتدرك الأعراض في ذلك الوقت المبكر، ولكنها صدقتها. وشعرت بالذل الذي تملّك جون.

قالت آنا: «يجب علي أن أعرف إن كنت معرضة للمرض، لذا أريد أن أخضع للفحص. ألا تريدان أنتما أن تخضعا للفحص أيضاً؟».

فأجاب توم: «أظن أن العيش وأنا قلق من عدم معرفتي أسوأ من المعرفة؛ حتى لو اكتشفت أنني أحمل الجين».

أغمضت ليديا عينيها، وانتظر الجميع ما ستقوله، وخطرت لأليس فكرة سخيفة؛ وهي أنها إما عادت لاستذكار دورها في المسرحية أو غطت في النوم.

وبعد فترة صمت مزعجة، فتحت عينيها وقالت: «أما أنا، فلا أريد أن أعرف».

لطالما فعلت ليديا الأمور بشكل مختلف عن الآخرين.

بدا المكان هادئاً بشكل غريب في مبنى ويليام جيمس. فالثرثرة المعتادة التي تدور بين الطلاب في الممرات، والأسئلة والنقاشات والضحك والتذمر والتبجح والمغازلة اختفت من دون أي أثر. ففترة القراءة الربيعية تؤدي بطبيعة الحال إلى إبعاد الطلاب عن حرم الجامعة إلى حد كبير، وإلى حجزهم في غرف المهاجع والمكتبات، ولكن تلك الفترة لم تكن ستبدأ قبل مرور أسبوع آخر. ومع ذلك، تم تحديد موعد للعديد من طلاب قسم علم النفس الإدراكي لقضاء يوم كامل في دراسة أبحاث التصوير بالرنين المغناطيسي في تشارلز تاون؛ وربما كان هذا اليوم هو اليوم المحدد.

أياً يكن السبب، استغلت أليس الفرصة لتتمكن من إنجاز الكثير من العمل بدون مقاطعة، وفضّلت ألا تتوقف عند جيري لشرب الشاي في طريقها إلى مكتبها، ولكنها تمنت الآن لو أنها فعلت ذلك. فقد بدأت تشعر بحاجتها إلى الكافيين. تصفحت بعض المقالات في صحيفة علم اللغويات، ووضعت نسخة هذا العام من أسئلة الامتحان النهائي لمادتي التحفيز والعواطف، وردت على جميع الإيميلات التي أهملتها سابقاً. حدث كل هذا من دون أن يرن الهاتف أو يدق أحد على الباب.

وصلت إلى البيت قبل أن تدرك أنها نسيت أن تذهب إلى جيري؛ فقد كانت تشعر أنها لا تزال بحاجة إلى شرب الشاي. دخلت المطبخ، ووضعت الإبريق على الموقد. كانت ساعة المايكروويف تشير إلى الرابعة واثنتين وعشرين دقيقة مساء.

نظرت من النافذة، وتأملت الظلام وانعكاس صورتها على الزجاج وهي ترتدي قميص نومها.

مرحباً يا أمي.

لم تنجح عملية الزرع الصناعي. لست حاملاً، ولكنني لست منزعجة بقدر ما توقعت. (وبدا على تشارلي الشعور بالراحة تقريباً). لنأمل أن تأتي نتيجة الفحص

الآخر سلبية على حد سواء. موعدنا لمعرفة نتائج ذلك الفحص يحل يوم غد. سآتي بصحبة توم وأعلمك ووالدي بالنتائج.

مع حبي،

آنا.

انخفضت الاحتمالات بأن تأتي نتيجة فحص الجينات لكل منهما سلبية من غير محتملة إلى مستبعدة تماماً عندما لم يصلا إلى البيت بعد ساعة من الوقت الذي توقعت فيه أليس حضورهما. فلو أن نتيجة كليهما أتت سلبية، لسارعا لزف خبر البشرى السعيدة لوالديهما. ومع ذلك، ربما تكون ستيفاني بطيئة قليلاً اليوم، وربما انتظر توم وآنا في غرفة الانتظار لمدة أطول من توقعات أليس.

تحوّلت الاحتمالات من مستبعدة إلى مستحيلة عندما دخلا كلاهما من الباب الأمامي. فلو أتت النتيجة سلبية لكل منهما لنطقا بها بسرعة، أو لظهرت البهجة والانفعال على تعابير وجهيهما. ولكن، بدلاً من ذلك، بدا عليهما أنهما يكابدان في داخلهما لإخفاء ما يعرفانه وهما يدخلان غرفة المعيشة، مما جعل مدة الانتظار بالنسبة إليهما وكأنها أبدية قبل أن يتفوّها بتلك المعلومات الفظيعة التي كان من الواضح أنهما يعانيان تحت وطأتها.

جلسا جنباً إلى جنب على الأريكة، توم إلى اليسار وآنا إلى اليمين؛ كما اعتادا أن يجلسا على المقعد الخلفي للسيارة وهما طفلان. فقد كان توم أعسر ويحب الجلوس قرب النافذة، بينما لم تكن آنا تمانع الجلوس في الوسط. جلسا الآن متقاربين أكثر من أي وقت آخر في الماضي. وعندما مد توم يده ولمس يدها، لم تصح بأعلى صوتها قائلة: «أمي، إن توم يلمسني!».

قال توم: «لست أحمل الطفرة».

فأضافت آنا: «ولكنني أحملها».

بعد أن ولد توم، تذكرت أليس كم شعرت أنها محظوظة لأنها حصلت على عائلة مثالية، أي ولد وبنت. فاستغرق الأمر ستاً وعشرين سنة لتتحول تلك المشاعر إلى نقمة الآن. انهارت الواجهة التي بنتها أليس لتختبئ وراءها من الأمومة القوية

والصارمة وأجهشت بالبكاء.

وقالت: «أنا آسفة».

فقالت آنا: «لا بأس يا أمي. سوف يجدون علاجاً وقائياً كما قلت».

عندما فكرت أليس في الأمر في وقت لاحق، وجدت سخرية الموقف مدهشة. فلطالما بدت آنا– بسبب مظهرها على الأقل– الأقوى مقارنة مع أخويها. فكانت أكثر من يقدم التعزية والمواساة للآخرين. ومع ذلك، لم يفاجئها ما حدث. فقد كانت آنا أكثر أولادها شبهاً بها؛ بلون شعرها وبشرتها وحساسيتها، وكذلك جيناتها.

أضافت آنا: «سوف أمضي قدماً بإجراء عملية الزرع الاصطناعي. فقد تحدثت مع طبيبي. والآن، سيقوم بفحص الأجنة جينياً قبل زرعها، ثم سيجري فحصاً على خلية واحدة لدى كل من الأجنة لاكتشاف جين المرض ثم زرع الجنين السليم. وهكذا، سوف نكون واثقين من أن أطفالي لن يصابوا بالمرض».

كان ذلك خبراً ساراً جداً. ولكن، بينما واصل الجميع الاستمتاع به، اكتسب طعمه شيئاً من المرارة بالنسبة إلى أليس. فعلى الرغم من تأنيبها لنفسها، حسدت آنا لأنها تمكنت من فعل ما لم تتمكن هي من فعله؛ أي أن تحمي أطفالها من الأذى. فلن يتوجب على آنا أن تجلس مقابل طفلتها البكر وتراها وهي تكابد محاولة أن تستوعب خبراً يُعلمها بأنها سوف تصاب بالألزهايمر يوماً ما. وتمنت لو أن هذا التقدم في الطب التناسلي كان متاحاً في وقتها. ولكن، لو أنها عرفت أن الجنين الذي سيتطور ليصبح آنا يحمل الجين المشوه، لأصبح مصيره الإجهاض.

بحسب الفحص الذي قامت به ستيفاني آرون، كان توم على ما يرام. ولكنه لم يبدُ كذلك، بل بدا شاحباً ومهزوزاً وهشاً. كانت أليس قد توقعت أن النتيجة السلبية لأي منهما ستمنحه الراحة، ولكنهم يظلون عائلة واحدة يجمعها التاريخ والحمض النووي والحب، وتظل آنا شقيقته الكبرى التي علمته كيف يفرقع البالونات بالعلكة، والتي كانت تعطيه حصتها من السكاكر.

قال توم: «من سيخبر ليديا؟».

فقالت آنا: «أنا سأخبرها».

أيار 2004

فكرت أليس في أول الأمر، في الأسبوع الأول بعد تشخيص مرضها بإلقاء نظرة على مركز الرعاية، ولكنها لم تفعل ذلك. فكعك الحظ والأبراج وكروت التاروت وبيوت الرعاية أمور لم تثر اهتمامها من قبل قط. ورغم أنها ازدادت قرباً منه بمرور كل يوم، إلّا أنها تكن على عجلة من أمرها لتلقي نظرة خاطفة على مستقبلها. لم يحدث شيء محدد صباح ذلك اليوم ليشعل فضولها أو يمنحها الشجاعة لإلقاء نظرة داخل مركز رعاية ماونت أوبورن مانور، ولكنها في هذا اليوم بالذات قررت أن تتخذ هذه الخطوة.

لم تُحدث غرفة الاستقبال أي تأثير يثير الرعب في نفسها. وكانت هناك لوحة بالألوان المائية معلقة على الجدار، وسجادة شرقية باهتة مفروشة على الأرض، وامرأة متبرجة بالكثير من مستحضرات التجميل وذات شعر أسود حالك تجلس خلف مكتبها وهي تنظر إلى الباب الأمامي. كاد مظهر المكان يجعلها تخطئ الظن وتحسبه غرفة استقبال في أحد الفنادق، ولكن رائحة الأدوية الخفيفة، وعدم وجود الأمتعة والحمالين، وغياب أية حركة جعلتها تدرك أن توقعها ليس في محله. فالناس المقيمون هنا سكان دائمون، وليسوا مجرد نزلاء في فندق.

سألت الموظفة: «هل يمكنني مساعدتك؟».

«آه، نعم. هل تقومون برعاية مرضى الألزهايمر هنا؟».

«نعم، لدينا وحدة مخصصة للمرضى المصابين بالألزهايمر. هل تودين إلقاء نظرة على المكان؟».

«نعم».

فتبعت أليس المرأة إلى المصعد.

«هل تبحثين عن مكان مناسب من أجل أحد والديك؟».

فكذبت عليها أليس قائلة: «نعم».

انتظرتا وصول المصعد. بدت المصاعد قديمة وبطيئة الاستجابة؛ حالها كحال السكان المسنين الذين تقلهم.

قالت المرأة: «هذا عقد جميل».

«شكراً لك».

وضعت أليس يدها على عظم صدرها وتحسست الحجارة الزرقاء على أجنحة الفراشة التي تزين قلادة أمها. اعتادت أمها أن تتزين بها في ذكرى زواجها وفي حفلات الزفاف فقط. ففعلت أليس مثل أمها، واحتفظت بها للمناسبات الخاصة حصرياً، ولكنها لم تكن مدعوة إلى أي مناسبات رسمية. ولكنها جربته ذات يوم الشهر في الفائت وهي ترتدي بنطال جينز وكنزة قطنية، فبدا مثالياً تماماً.

بالإضافة إلى ذلك، أحبت أن يذكرها ذلك العقد بالفراشات. تذكرت أنها أخذت تبكي ذات يوم في حديقتها الخلفية وهي في السادسة أو السابعة على مصير الفراشات بعد أن عرفت أن عمرها لا يدوم أكثر من بضعة أيام. فواستها أمها، وطلبت منها ألا تحزن على الفراشات لأن المدة القصيرة التي تعيشها في حياتها لا يعني أنها حياة مأساوية. وقالت لها أمها وهي تشاهدها هي تطير تحت أشعة الشمس الدافئة بين زهور الأقحوان في حديقتهم: **انظري، إنها تعيش حياة غاية في الجمال**. فكانت أليس تحب أن تتذكر هذه المحادثة.

خرجتا من المصعد إلى الطابق الثالث، ومشتا على طول ممر مكسو بالسجاد عبر عدد من الأبواب المزدوجة، ثم توقفتا هنيهة. فأشارت المرأة إلى الأبواب وهي تغلق بشكل أوتوماتيكي خلفها، وعلقت قائلة: «إن وحدة رعاية مرضى الألزهايمر مغلقة، وهذا يعني أنه ليس بوسع أحد من المرضى تجاوز هذه الأبواب من دون معرفة الرمز السري».

نظرت أليس إلى لوحة المفاتيح المعلقة على الجدار بجانب الباب، ورأت الأرقام مرتبة بشكل فردي وبالمقلوب وبشكل عشوائي من اليمين إلى اليسار.

«لماذا الأرقام هكذا؟».

«لكي يمنع هذا النزلاء من تعلم الرمز وحفظه».

بدا لها هذا إجراء احتياطياً لا داعي له. فلو أنهم يستطيعون حفظ الرمز، لما اضطروا إلى تواجد في هذا المكان، أليس كذلك؟

«لا أعرف إن وصل مريضك إلى هذه المرحلة أم لا، ولكن التجول والقلق الليلي تصرفان شائعان لدى مرضى الألزهايمر. تسمح وحدتنا للنزلاء بالتجول في أي وقت، ولكن بأمان ومن دون المخاطرة بتعرضهم للضياع. نحن لا نعطيهم أية أدوية مهدئة في الليل أو نحبسهم في غرفهم، بل نحاول أن نساعدهم في الحصول على أكبر قدر ممكن من الحرية والاستقلالية؛ لأننا ندرك أن هذا مهم لهم ولعائلاتهم».

ظهرت امرأة صغيرة الحجم ذات شعر أبيض ترتدي ثوباً منزلياً أخضر اللون عليه زهور وردية ووقفت أمام أليس.

وقالت: «أنت لست ابنتي».

«كلا، آسفة. لست هي».

«أعيدي إلي مالي».

فأجابت الموظفة المسؤولة قائلة: «لم تأخذ نقودك يا إيفيلين. إن نقودك موجودة في غرفتك. تفقدي درج طاولتك العلوي. فأنا أظن أنك وضعتها هناك».

تأملت المرأة أليس بشك واشمئزاز، ولكنها سمعت نصيحة المسؤولة، ومشت جارة قدميها بخفّها الأبيض المتسخ عائدة إلى غرفتها.

«لديها ورقة عشرين دولاراً تحتفظ بها مخبأة لأنها قلقة من أن يسرقها أحد منها، ولكنها بالطبع تنسى أين وضعتها، وتتهم الجميع بأنهم أخذوها منها. حاولنا أن نقنعها بأن تنفقها أو تودعها في المصرف، ولكنها رفضت. ذات يوم، ستنسى أنها تملكها، وسيضع ذلك حداً للمشكلة».

بعد أن أصبحتا آمنتين من تحقيقات إيفيلين وشكوكها، تابعتا السير إلى غرفة عامة في آخر الممر من دون أن يعترض سبيلهما أحد. كانت الغرفة مليئة بأشخاص مسنين يتناولون الغداء حول طاولات مستديرة. وعندما ألقت أليس نظرة عن كثب، وجدت الغرفة مليئة بنساء مسنات.

«أرى أن هناك ثلاثة رجال فقط؟».

«في الواقع، إن اثنين فقط من بين نزلاء المركز البالغ عددهم اثنين وثلاثين نزيلاً من الرجال. فهارولد يأتي كل يوم ليتناول وجباته مع زوجته».

نظرت أليس إلى الرجلين المصابين بالألزهايمر وهما جالسان مع بعضهما بعضاً إلى طاولتهما بمعزل عن النساء. احتشد عدد من النساء في الفراغات بين الطاولات، بينما جلس عدد منهن على كراسٍ متحركة، وجميعهن لديهن شعر أبيض خفيف وعيون غائرة ومكبرة تحت عدسات النظارات السميكة. راح الجميع يأكلون طعامهم بحركة بطيئة، من دون أن يدور بينهم أي تواصل اجتماعي أو محادثات، ولا حتى بين هارولد وزوجته. كانت الأصوات الوحيدة المسموعة باستثناء أصوات الأكل تصدر من امرأة تغني أثناء تناولها الطعام، وتكرر الأغنية نفسها مرة تلو الأخرى، وهي أغنية «تحت ضوء القمر الفضي». فلم يعترض أحد على غنائها أو يصفق لها.

تحت ضوء القمر الفضي.

«كما يمكنك أن تخمني، هذه هي الغرفة المخصصة لتناول الطعام والنشاطات. إذ يتناول النزلاء هنا وجبات الفطور والغداء والعشاء في الوقت نفسه من كل يوم. فالأعمال الروتينية التي يمكن توقعها على قدر كبير من الأهمية بالنسبة إلى المرضى. كما أن عدداً من النشاطات يتم هنا على حد سواء؛ فهناك لعب البولينغ والرقص والموسيقى والهوايات. لقد قاموا بصنع بيوت العصافير الجميلة تلك صباح اليوم. بالإضافة إلى ذلك، نحن نجعل أحدهم يقرأ الصحيفة للمرضى كل يوم لنبقيهم مواكبين للأحداث.

تحت ضوء...

«هناك فرصة كبيرة لدى نزلائنا ليبقوا أجسامهم وعقولهم مشغولة وخصبة قدر المستطاع.

القمر الفضي.

«كما أننا نرحب بأفراد العائلة والأصدقاء للحضور والمشاركة في أي من هذه النشاطات، ونسمح لهم بالانضمام إلى أحبائهم لتناول أي من وجباتهم».

ومع ذلك، لم تر أليس أي أحباء باستثناء هارولد. فلا أزواج ولا زوجات ولا

أطفال ولا أحفاد ولا أصدقاء.

«لدينا أيضاً فريق طبي مدرب بشكل متخصص في حال احتاج أي من نزلائنا إلى عناية طبية إضافية».

تحت ضوء القمر الفضي.

«هل لديكم هنا نزلاء عمرهم أقل من ستين سنة؟».

«آه، كلا، أصغرهم حسبما أعتقد في السبعين. فمتوسط الأعمار هنا هو بين الثانية والثمانين والثالثة والثمانين. فمن النادر رؤية شخص مصاب بالألزهايمر تحت سن الستين».

أنت تنظرين إلى أحدهم الآن يا سيدتي.

تحت ضوء القمر الفضي.

«كم يكلف كل هذا؟».

«يمكنني أن أعطيك لائحة بالمعلومات وأنت في طريقك إلى الخروج. ولكن، بالنسبة إلى شهر كانون الثاني، إن معدل تكاليف وحدة رعاية مرضى الألزهايمر بلغت حوالي مئتين وخمسٍ وثمانين دولاراً في اليوم».

قامت أليس بالحساب الرياضي في ذهنها. مئة ألف دولار في العام مضروبة بخمس أو عشر أو عشرين سنة.

«هل يمكنني أن أجيب عن أي أسئلة أخرى من أجلك؟».

تحت ضوء...

«كلا، شكراً لك».

تبعت مرشدتها إلى الباب المغلق، وراقبتها وهي تدخل الرمز السري.

0791925

وخرجت وهي تدرك أنها لا تنتمي إلى هذا المكان.

كان يوماً من بين أندر الأيام في كامبريدج، أي من نوع الأيام الأسطورية التي يحلم بها سكان نيو إنجلند ولكنهم يظلون يشكون بوجودها كل سنة؛ فهو يوم ربيعي

مشمس، سماؤه زرقاء، ودفؤه لا يدع أية حاجة إلى ارتداء المعاطف. فكرت أليس في أن يوماً جميلاً كهذا لا يمكنها أن تضيعه سدى بالجلوس في مكتبها، ولا سيما لأنها تعاني من الألزهايمر.

انحرفت مسافة شارعين إلى الجنوب الشرقي من الساحة، ومشت إلى محل بين وجيري وهي تشعر بلهفة تعتريها وكأنها فتاة مراهقة هاربة من المدرسة.

«سأتناول ثلاث كرات من المثلجات بنكهة زبدة الفستق في كوز من فضلك».

أمسكت كوزها الثقيل والضخم وكأنها تحمل جائزة الأوسكار، ودفعت الحساب بورقة خمسة دولارات، وأسقطت ما تبقى من نقود في حقيبتها، ثم واصلت المشي نحو نهر تشارلز.

كانت قد تحولت قبل عدة سنوات إلى تناول اللبن الرائب المثلج الذي اعتبرته بديلاً صحياً عن غيره من المثلجات. ونسيت كم هو كريمي وسميك وممتع مذاق المثلجات الحقيقية. فكرت وهي تمشي بما رأته للتو في مركز الرعاية، وشعرت بأنها بحاجة إلى خطة أفضل؛ خطة لا تتضمن مكوثها للعب مع إيفيلين في وحدة رعاية مرضى الألزهايمر، ولا تكلف جون ثروة طائلة للحفاظ على حياة وسلامة زوجة لم تعد تميز هويته بعد الآن وهو لم يعد يميزها على حد سواء. ولم تكن تريد أن تصل إلى هذه المرحلة حيث يفوق العبء العاطفي والمادي إلى حد فادح أي فوائد في البقاء.

لقد كانت ترتكب أخطاء وتكابد لتعوض عنها، ولكنها أيقنت أن معدل ذكائها يفوق الحد الأدنى بشكل كبير، وأن الناس الذين لديهم معدل ذكاء معتدل لا يقتلون أنفسهم. حسناً، بعضهم يفعلون ذلك، ولكن لأسباب ليست لها أية علاقة بمعدل الذكاء.

على الرغم من التآكل المتزايد الذي عانت منه ذاكرتها، فقد ظل دماغها يخدمها بشكل جيد في مرات لا حصر لها. على سبيل المثال، في هذه اللحظة بالذات، تناولت كل كوز مثلجاتها بدون أن تدع قطرة واحدة تسقط على يدها وهي تلعقه بلسانها بطريقة تفعلها بشكل أوتوماتيكي منذ طفولتها؛ لأنها مخزنة

على الأرجح في مكان ما قرب المعلومات التي تتعلق بكيفية ركوب الدراجة وربط شريط الحذاء. في تلك الأثناء، نزلت عن الرصيف، واجتازت الشارع، بينما ظل دماغها قادراً على حل المعادلات الرياضية المعقدة الضرورية لتحريك جسدها إلى الجانب الآخر من دون أن تسقط على الأرض أو تصطدم بها سيارة مارة. تنشقت رائحة زهور النرجس التي تفوح في الشارع، ونفحة خفيفة من بهار الكاري قادمة من مطعم إيطالي عند ناصية الشارع، وهي تستمتع بنكهة الشوكولاتة الشهية وزبدة الفستق التي حفزت مسارات المتعة في دماغها؛ تلك المسارات نفسها المطلوبة من أجل الاستمتاع مع زوجها أو تناول زجاجة من الشراب الفاخر.

ولكنها أدركت أنها في وقت ما ستنسى كيف تستمتع بتناول المثلجات، أو كيف تربط حذاءها، أو كيف تمشي، كما أدركت أن عصبونات المتعة لديها ستصبح تالفة من جراء هجوم ضارٍ من مادة نشوانية، وأنها لن تعود قادرة على الاستمتاع بالأشياء التي تحبها.

تمنت لو أنها مصابة بالسرطان بدلاً من ذلك. نعم، لقد كانت على استعداد لاستبدال الألزهايمر بالسرطان بغمضة عين. ورغم أنها شعرت بالخزي لتمنيها ذلك لأنها صفقة لا طائل منها بالتأكيد، إلّا أنها سمحت لنفسها بهذه الفكرة الخيالية. فلو أنها مصابة بالسرطان، لوجدت وسائل تحارب بها هذا المرض؛ كالجراحة والعلاج الشعاعي والكيميائي، مما سيتيح لها فرصة للنجاة. وحينها، كان أفراد عائلتها وزملاؤها في هارفرد سيقفون إلى جانبها في معركتها، وسيعتبرونها معركة نبيلة. وحتى لو هزمت في النهاية، فستبقى قادرة على أن تنظر إليها بفخر، وتودعها قبل أن ترحل من هذه الحياة.

أما مرض الألزهايمر فهو وحش مختلف عن غيره من الأمراض، وليست هناك أي أسلحة يمكنها أن تقتله وتقضي عليه. شعرت أليس أن تناول العقاقير التي وصفت لها أشبه بتسديد بضعة مسدسات ماء ضعيفة في وجه نار مستعرة. تابع جون البحث في أمر الأدوية والتطور الطبي، ولكنها شكت في أن أياً من تلك العلاجات جاهز أو قادر على إحداث أي تغيير ملموس بالنسبة إليها، وإلّا لكان قد اتصل بالدكتور ديفيز وتحدث إليه مصراً على التوصل إلى طريقة للحصول

عليها من أجل علاجها. أما الآن، فكل المصابين بالألزهايمر يواجهون النتيجة نفسها؛ سواء أكانوا في الثانية والثمانين أو الخمسين، ويسكنون في مصح للرعاية أو يدرّسون في قسم علم النفس بجامعة هارفرد. فالنار المستعرة ستلتهم الجميع، ولن تدع أحداً منهم ينجو من لهيبها المستعر.

وإن اعتبر الناس أن الرأس الأصلع والوشاح المعقود عليه أمران يدلان على الشجاعة والأمل، فمفرداتها الشحيحة وذكرياتها المختفية تعبر في نظرهم عن عدم الاستقرار الذهني والجنون الوشيك. وإن توقع أولئك المصابون بالسرطان الحصول على الدعم من مجتمعهم، توقعت أليس أن تتحول إلى منبوذة ممن حولها. فأصحاب النوايا الحسنة والمثقفون أيضاً يميلون إلى الابتعاد بخوف عن المرضى العقليين، ولكنها لم تكن تريد أن تصبح شخصاً يتجنبه الناس ويخشون التقرب منه.

والآن، بعد أن تقبلت حقيقة أنها مصابة فعلاً بالألزهايمر، وأن بوسعها الاعتماد على عقارين عديمي الفائدة تقريباً متوفرين لها للعلاج، وأنها لا تستطيع أن تستبدل المرض بأي مرض آخر قابل للشفاء، فما الذي تريده؟ وعلى افتراض أن عملية الزرع الصناعي التي ستجريها آنا نجحت، فقد تمنت أن تعيش لتحمل طفل آنا بين ذراعيها وتعرف أنه حفيدها، وأن ترى ليديا وهي تمثل في دور يشعرها بالفخر، وأن ترى توم يقع في الحب. وأرادت أن تقضي إجازة لمدة عام آخر مع جون، وأن تقرأ كل كتاب تستطيع قراءته قبل أن تصبح عاجزة عن القراءة.

ضحكت قليلاً؛ متفاجئة مما اكتشفته في نفسها للتو فقط. إذ لم يكن هناك أي شيء في هذه اللائحة يتعلق بعلم اللغويات أو التدريس أو هارفرد. تناولت آخر قضمة من كوز المثلجات وهي تفكر في أنها تريد أيضاً أن تحظى بالمزيد من الأيام المشمسة الدافئة وأكواز المثلجات اللذيذة.

وعندما تجاوز عبء مرضها حدودَ سعادتها بكوز المثلجات، أرادت أن تموت، ولكنها تساءلت في قرارة نفسها: ترى، هل سيتوفر لديها حضور الذهن الكافي لتميز ما تريده عندما تصل إلى هذا المنعطف؟ راودها القلق من أن وضعها في المستقبل سيجعلها غير قادرة على تذكر هذا النوع من الخطط وتنفيذه. وفكرت

في أن الطلب من جون أو من أي من أولادها مساعدتها خيار غير وارد على الإطلاق؛ إذ لم تكن تود أن تضع أياً منهم في ذلك الموقف الصعب.

أدركت أنها بحاجة إلى خطة تلزمها في المستقبل بطريقة انتحار ترتبها لنفسها الآن. وأرادت أن تقوم باختبار بسيط تجريه على نفسها كل يوم. فكرت في الأسئلة التي سألها إياها الدكتور ديفيز وأخصائية طب الجينات؛ تلك الأسئلة التي لم تستطع أن تجيب عنها في شهر كانون الأول الماضي. فكرت في كل الأشياء التي لا تزال تريدها؛ ولم يكن الذكاء الذهني مطلوباً لأي منها. وكانت مستعدة للاستمرار بالعيش بوجود ثغرات خطيرة في الذاكرة قصيرة الأمد.

أخرجت جهاز البلاكبيري من حقيبتها الزرقاء، وهي هدية ليديا لها بمناسبة ذكرى ميلادها. وكانت تضعها كل يوم معلقة على كتفها ومسنودة على وركها اليمنى، حتى تحولت بالنسبة إليها إلى «إكسسوار» لا يمكن الاستغناء عنه؛ كخاتم زفافها البلاتيني وساعتها المخصصة للجري. فبدت جميلة جداً مع عقدها المزين بفراشة. واعتادت أن تضع في الحقيبة هاتفها المحمول وجهاز البلاكبيري ومفاتيحها، ولم تعد تخلعها إلا عندما تنام.

طبعت على الهاتف:

أجيبي عن هذه الأسئلة يا أليس:

1. في أي شهر نحن؟
2. أين تعيشين؟
3. أين يقع مكتبك؟
4. متى تحين ذكرى ميلاد آنا؟
5. كم ولداً لديك؟

إن عانيت من صعوبة في الإجابة عن هذه الأسئلة، افتحي مجلداً على كمبيوترك اسمه «الفراشة»، واتّبعي التعليمات الموجودة فيه على الفور.

ضبطت المنبه ليهتز عند الساعة الثامنة صباحاً على شكل تذكير تنبيه متكرر

كل صباح على تقويم مواعيدها، ومن دون تحديد موعد نهائي. أدركت أن هناك الكثير من المشاكل المحتملة بهذا التصميم، وأنه ليس مقاوماً للغباء بأي حال من الأحوال، ولكنها تمنّت وحسب أن تفتح ملف «الفراشة» قبل أن تتحول بنفسها إلى تلك الغبية الحمقاء.

كادت تجري جرياً إلى الصف خوفاً من أن تتأخر، ولكنها عندما وصلت اكتشفت أن المحاضرة لم تبدأ بعد. جلست على مقعد قرب الممشى، وهو رابع مقعد من الخلف. ظل بعض الطلاب يتدفقون من الأبواب في مؤخر الغرفة، ولكن بشكل عام، كان الصف جاهزاً. نظرت إلى ساعتها، ووجدتها تشير إلى 10:05. نظرت إلى ساعة الحائط، ووجدتها موافقة لساعتها، ممّا أثار استغرابها. حاولت أن تبقي نفسها مشغولة، فنظرت إلى مجلد البحث، وراجعت ملاحظات من الدرس السابق، وأعدت لائحة مهام لبقية اليوم:

المخبر

حلقة البحث

الجري

الدراسة للامتحان النهائي

عند الساعة 10:10، اعتراها الملل. فأخذت تنقر بقلمها بشكل إيقاعي.

أخذ الطلاب يتحركون في أماكنهم بقلق، ثم تفقدوا دفاتر ملاحظاتهم والساعة على الجدار، وقلبوا صفحات كتبهم وأغلقوها، وشغلوا كمبيوتراتهم المحمولة، وراحوا ينقرون على لوحات مفاتيحها، وأنهوا تناول قهوتهم، وجعدوا أوراق السكاكر والشوكولاتة ورقائق البطاطس وأنواع الوجبات الخفيفة الأخرى التي تناولوها، وراحوا يقضمون أقلامهم وأظفارهم، والتفتوا إلى الوراء ليبحثوا في مؤخر الغرفة، وانحنوا ليخفّفوا عن أصدقائهم في صفوف أخرى، ورفعوا حواجبهم وهزوا أكتافهم وتبادلوا الهمسات والضحكات.

قالت فتاة جالسة على كرسي خلف أليس: «إن محاضرنا لهذا اليوم ربما أستاذ من ضيوف الكلية».

فتحت أليس مجلد التحفيز والعاطفة مرة أخرى: يوم الثلاثاء الرابع من أيار. درس التوتر والعجز والتحكم (الفصلان رقم 12 و14)، ولكن، لا شيء عن أستاذ ضيف. تغير أسلوب الطلاب في القاعة من التوقع والترقب إلى التنافر الأخرق، وتحول الجميع إلى ما يشبه حبات الذرة على موقد ساخن. فحالما تفرقع الأولى حتى تتبعها الأخرى، ولكن لا أحد يعرف من سيكون الحبة الأولى، ومتى سيحصل ذلك. كانت القاعدة الرسمية في هارفرد تقول إنه يتعين على الطلاب انتظار الأستاذ المتأخر عشرين دقيقة قبل أن يتم إلغاء المحاضرة بشكل رسمي. لم تخش أليس من الخروج قبل غيرها، فأغلقت دفترها، ووضعت غطاء قلمها، وأعادت كل شيء إلى حقيبتها. وجدت الساعة تشير إلى 10:21. لقد انتظرت طويلاً بما فيه الكفاية.

استدارت لتغادر، ونظرت إلى الفتيات الأربع الجالسات خلفها، فنظرن جميعاً إليها وابتسمن، وهن على الأرجح ممتنات لأنها فكت الضغط عنهن وأطلقت سراحهن. رفعت معصمها لتريهن الوقت على ساعتها.

ثم قالت: «لا أعرف بشأنكن يا فتيات، ولكنّ لدي أشياء أهم لأقوم بها».

صعدت الدرج، وخرجت من المدرج عبر الأبواب الخلفية من دون أن تنظر خلفها.

جلست في مكتبها، وتفرجت على السيارات اللامعة في ساعة الذروة وهي تزحف ببطء على طول طريق ميموريال درايف. شعرت باهتزاز على جانبها. كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً. أخرجت جهاز البلاكبيري من حقيبتها الزرقاء.

أجيبي عن الأسئلة التالية يا أليس:

1. في أي شهر نحن؟
2. أين تعيشين؟
3. أين يقع مكتبك؟
4. متى تحين ذكرى ميلاد آنا؟
5. كم ولداً لديك؟

إن عانيت من صعوبة في الإجابة عن أي من هذه الأسئلة، افتحي مجلداً على كمبيوترك اسمه «الفراشة»، واتبعي التعليمات الموجودة فيه على الفور.

أيار

34 شارع بوبلار كامبريدج...

مبنى ويليام جيمس الغرفة رقم 1002

14 أيلول 1976

ثلاثة

حزيران 2004

امرأة عجوز لها شفتان وأظفار وردية تدغدغ فتاة صغيرة لا تتجاوز الخامسة من عمرها من المفترض أنها حفيدتها. يبدو على كل منهما أنها تمضي وقتاً في غاية المتعة. ويقول الإعلان: «**مدغدغة البطن الأولى في العالم تأخذ العقار الأول الموصوف لمرض الألزهايمر**». بينما أخذت أليس تقلب صفحات مجلة بوسطن شعرت أنها عاجزة عن تجاوز هذه الصفحة. فقد ملأها شعور بالكراهية حيال المرأة والإعلان؛ وكأنه ماء حار يغلي في عروقها. تفخصت الصورة والكلمات بانتظار أن تتماشى أفكارها مع ما فهمه حدسها، ولكن قبل أن تدرك سبب شعورها بهذه العداوة الشخصية تجاهها، فتحت الدكتورة موير باب غرفة الفحص.

«إذاً يا أليس. فهمت أنك تعانين من بعض الصعوبات في الاستغراق في النوم. أخبريني، ما الذي يجري؟».

«إنني أستغرق حوالي الساعة لأغط في النوم، ثم أستيقظ بعد ساعتين أو نحو ذلك، ثم أعاني من المسألة برمتها مرة أخرى».

«هل تعانين من هبات ساخنة أو أي عدم ارتياح جسدي خلال وقت النوم؟».

«كلا».

«ما هي العقاقير التي تتناولينها؟».

«الآريسيبت وناميندا وليبيتور والفيتامينين سي وإي والأسبرين».

«حسناً، لسوء الحظ، إن الأرق يمكن أن يكون أحد الأعراض الجانبية لعقار آريسيبت».

«حسناً، ولكنني لن أتوقف عن تناوله».

«أخبريني بما تفعلينه عندما تشعرين أنك عاجزة عن النوم؟».

«معظم الوقت أبقى مستلقية وأستسلم للقلق. أعرف أن هذا الأمر سيزداد سوءاً

أكثر من الآن بكثير، ولكنني لا أعرف متى سيحدث هذا. إن القلق يتملكني من أن أستغرق في النوم ذات يوم ثم أستيقظ في صباح اليوم التالي وأنا لا أعرف من أنا أو أين أنا أو ماذا أفعل. أعرف أن هذا غير منطقي، ولكنّ لدي فكرة تسيطر علي، وهي أن الألزهايمر يستطيع أن يقتل خلايا دماغي فقط أثناء نومي، وأنني طالما بقيت يقظة ومتوخية للحذر فسوف أبقى على حالي.

أعرف أن هذا القلق هو ما يبقيني مستيقظة، ولكنني عاجزة عن التخلص منه. فحالما أشعر أنني عاجزة عن النوم يتملكني القلق، وعندئذ أعجز عن النوم لأنني قلقة. من المرهق حتى مجرد الحديث عن الأمر لك».

كان جزء مما قالته لها صحيحاً فقط. فصحيح أن القلق سيطر عليها معظم الوقت، ولكنها ظلت تنام بعمق كما ينام الطفل الرضيع.

قالت الدكتورة موير: «هل يسيطر عليك هذا النوع من القلق في أي وقت آخر من اليوم؟».

«كلا».

«يمكنني أن أصف لك دواء SSRI».

«لا أريد أن أتعاطى أدوية للاكتئاب، فأنا لست مكتئبة».

ولكنها في الحقيقة لم تستبعد أن تكون مكتئبة بعض الشيء. فقد تم تشخيص إصابتها بمرض فتاك لا علاج له، وكذلك ابنتها. وتوقفت عن السفر كلّياً تقريباً، وتحولت محاضراتها الديناميكية إلى محاضرات مملة إلى حد لا يحتمل. وحتى في المناسبات النادرة التي يبقى فيها جون معها في البيت، فقد شعرت أنه بات على بعد أميال منها. إذاً، نعم، إنها حزينة بعض الشيء، ولكن الحزن استجابة ملائمة نظراً إلى وضعها الراهن، وليس سبباً وجيهاً لإضافة عقار دوائي آخر له آثار جانبية إلى جرعتها اليومية من الأدوية. ولم يكن هذا ما أتت من أجله.

«يمكننا أن نجرب ريستوريل؛ حبة واحدة كل يوم. سيجعلك تنامين بسرعة، وسيسمح لك بالنوم بشكل متواصل لست ساعات، ولن تستيقظي وأنت مترنحة في الصباح».

«كلا، إنني أريد شيئاً أقوى».

سادت فترة صمت طويل.

«أظن أنني أود أن أحجز لك موعداً لتعودي إلى هنا بصحبة زوجك، ويمكننا عندئذ أن نناقش وصف شيء أقوى لك».

«هذا الأمر لا يخص زوجي. إنني لست مصابة بالاكتئاب، ولست يائسة. فأنا أدرك تماماً ما أطلبه يا تامارا».

تفحصت الدكتورة موير وجهها بحرص، بينما تفحصت أليس وجه الطبيبة. كانت كل منهما أكبر من سن الأربعين، ومتزوجة، وامرأة عاملة ومحترفة وحاصلة على تحصيل علمي عالٍ. لم تكن أليس تعرف سياسة طبيبتها. وكان بوسعها أن ترى طبيبة أخرى إن اضطرت إلى ذلك؛ إذ لم يغب عن بالها أن مرضها سيزداد سوءاً، وأنه لم يعد بوسعها أن تخاطر بالانتظار لوقت أطول لأنها قد تنسى.

ومع أنها تدربت على حوار إضافي لتتذرع به، إلّا أنها لم تجد حاجة للجوء إليه؛ فقد أخرجت الدكتورة موير دفتر وصفاتها وشرعت تكتب.

عادت إلى غرفة الفحص الصغيرة تلك مع خبيرة علم النفس العصبي سارة. أعادت الخبيرة تقديم نفسها لأليس قبل دقيقة فقط، ولكنّ أليس سرعان ما نسيت اسمها الأخير، فاعتبرت ذلك أمراً لا يبشر بالخير. وجدت الغرفة كما تذكرتها من شهر كانون الثاني؛ فهي ضيقة وخاوية وحيادية المظهر. فقد كانت تحتوي على طاولة مكتب واحدة عليها جهاز كمبيوتر، وكرسيين ككراسي المطاعم، وخزانة ملفات معدنية ولا شيء آخر. فلا نوافذ أو نباتات أو صور أو تقويم على الجدران أو المكتب، ليست هناك أي ملهيات أو تلميحات.

بدأت سارة حديثها بكلام يوحي بأنه محادثة عادية.

«كم عمرك يا أليس؟».

«خمسون».

«متى بلغت الخمسين؟».

«في الحادي عشر من شهر تشرين الأول».

«في أي وقت من السنة نحن الآن؟».

«في الربيع، ولكن الجو بدأ يصبح صيفياً منذ الآن».

«أعرف، إن الطقس حار اليوم. وأين أنت الآن؟».

«في وحدة معالجة اضطرابات الذاكرة في مستشفى ماس جنرال في بوسطن بولاية ماساتشوستس».

«هل يمكنك أن تسمي لي أربعة أشياء موجودة في هذه الصورة؟».

«كتاب، هاتف، حصان، سيارة».

«وما هذا الشيء الموجود على قميصي؟».

«زر».

«وهذا الشيء الموجود حول إصبعي؟».

«خاتم».

«هل تستطيعين أن تهجئي لي كلمة «مياه» بالعكس؟»

«ه ا ي م».

«كرري ما سأقوله الآن: من، ماذا، متى، أين، لماذا».

فكررت أليس ما قالته.

«هل تستطيعين أن ترفعي يدك وتغمضي عينيك وتفتحي فمك؟».

ففعلت ما طلبته منها.

«ما هي الأشياء الأربعة في الصورة التي رأيتها قبل قليل؟».

«حصان، سيارة، هاتف، كتاب».

«رائع. اكتبي لي جملة هنا».

لا أصدق أنني سأصبح عاجزة عن فعل هذا يوماً ما.

«رائع. والآن، سمّي لي أكبر قدر من الكلمات التي تبدأ بالحرف «s» في دقيقة واحدة».

فعددت لها أليس عدداً من الكلمات.

«والآن، سمّي لي أكبر قدر من الكلمات التي تبدأ بالحرف «f»».

فذكرت لها أليس بعض الكلمات.

«هذا جيد».

تساءلت أليس عن عدد الكلمات التي كان بإمكانها التفوه بها قبل عام، كما تساءلت عن عدد الكلمات الذي يعتبر طبيعياً في دقيقة واحدة.

«والآن، سمّي لي أكبر قدر من أسماء الخضروات».

«هليون، بروكولي، قرنبيط، كراث، بصل، فلفل... فلفل، لا أعرف. لا أستطيع التفكير في المزيد».

«السؤال الأخير، سمّي لي أكبر عدد من الحيوانات ذات القوائم الأربع».

«كلاب، قطط، أسود، نمور، دببة، حمير متوحشة، زرافات، غزلان».

«والآن، اقرئي لي هذه الجملة بصوت مرتفع».

وسلمتها سارة قطعة ورق.

«في يوم الثلاثاء الموافق للثاني من شهر تموز في مدينة سانتا آنا بولاية كاليفورنيا، تسبب حريق اندلع باختناق ثلاثين شخصاً بمن فيهم ستة أطفال واثنان من رجال الإطفاء».

«والآن، أخبريني أكبر قدر من التفاصيل عن القصة التي قرأتها للتو».

«في يوم الثلاثاء، الثاني من تموز، في سانتا آنا بكاليفورنيا، اندلع حريق في أحد المطارات وسبب اختناق ثلاثين شخصاً بمن فيهم ستة أطفال ورجلا إطفاء».

«عظيم. الآن، سأريك سلسلة من الصور على الكروت وسأطلب منك أن تخبريني بأسماء الأشياء التي تظهر عليها».

امتحان بوسطن لتسمية الأشياء.

«حقيبة سفر، دولاب هواء، تيليسكوب، كوخ جليدي، ساعة رملية، مضرب تنس. آه، انتظري، أعرف ما هذه. إنها سلم للنباتات، ما هي؟ كلا، شبكة نافذة؟ كلا، بل تعريشة. آه، انتظري مرة أخرى. لدينا واحدة في حديقتنا في كيب. إنها توضع بين الأشجار ونستلقي عليها. يا إلهي! إنها على طرف لساني، ولكنني لا أستطيع أن أتذكرها».

دونّت سارة ملاحظة على لائحة العلامات، فأرادت أليس أن تخبرها أن نسيانها من الممكن أن يكون ببساطة حالة عادية من النسيان وليس أحد أعراض مرض الألزهايمر. فطلاب الجامعة المثاليون أيضاً يعانون بطبيعة الحال من نسيان

بعض الكلمات مرتين في الأسبوع على الأقل.

«لا بأس بذلك. لنستمر».

سمت أليس بقية الأشياء البادية في الصور من دون أي صعوبات إضافية، ولكنها ظلت عاجزة عن تحفيز العصبون الذي يرمز إلى ذلك الاسم المفقود. كانت الأرجوحة الشبكية التي يملكونها معلقة بين شجرتي صنوبر في حديقة بيتهم. فتذكرت أليس قيلولات فترات العصر التي قضتها هناك مع جون، وبهجة الظل والنسائم العليلة عندما كانت تتوسد كتفه وتتنشق رائحة مطري القماش المألوفة على قميصه القطني مندمجة مع روائح الصيف على بشرته المسمرة وملح البحر. لقد استطاعت أن تتذكر كل هذه التفاصيل، ولكنها عجزت عن تذكر اسم الأرجوحة الشبكية التي اعتادا الاستلقاء عليها.

أجرت اختبارات كثيرة أخرى كاختبار النسخ، وتذكر الأشكال الهندسية وغيرها، ثم تفقدت ساعتها، ووجدت أنها أمضت في هذه الغرفة الصغيرة أكثر من ساعة من الزمن.

«حسناً يا أليس. الآن، أريدك أن تعودي إلى تلك القصة القصيرة التي قرأتها قبل قليل. ماذا يمكنك أن تخبريني عنها؟».

حاولت إخفاء رعبها، ولكنه جثم بثقل فوق حجابها الحاجز وكاد يخنق أنفاسها. فإما أن الطرائق المؤدية إلى تفاصيل القصة غير مطروقة، أو أنها تفتقر إلى القوة الكهروكيميائية للدق بقوة كافية على العصبونات التي تؤويها لكي تسمع صوتها. خارج هذه الغرفة المنعزلة، ربما كانت ستبحث عن المعلومات على جهاز البلاكبيري أو ستعيد قراءة إيميلاتها ثم تكتب لنفسها ملاحظات للتذكير على لوحة الملاحظات، معتمدة على الاحترام الذي يقتضيه منصبها في جامعة هارفرد. خارج هذه الغرفة الصغيرة، ربما كانت ستخفي طرائقها غير المطروقة، وإشاراتها العصبية الضعيفة. ورغم معرفتها أن هذه الاختبارات مصممة للكشف عما لا تستطيع التوصل إليه، فقد وجدت نفسها في موقف حرج لا تحسد عليه.

«لا أتذكر الكثير منها بالفعل».

ها هو مرض الألزهايمر الذي ألمّ بها يقف مجرداً وواضحاً تحت الضوء

الساطع أمام سارة لتتفحصه وتحكم عليه.

«لا بأس. أخبريني بما تتذكرينه، أي شيء على الإطلاق».

«حسناً، لقد تحدثت عن أحد المطارات حسبما أعتقد».

«هل وقعت الحادثة يوم الأحد أم الاثنين أم الثلاثاء أم الأربعاء؟».

«لا أتذكر».

«إذاً، خمني وحسب».

«يوم الاثنين».

«هل حدث إعصار أم فيضان أم حريق أم انهيار ثلجي؟».

«حريق».

«هل حدثت القصة في شهر نيسان أم أيار أم حزيران أم تموز؟».

«تموز».

«أي مطار تم إغلاقه: جون وين، دوليس، أو لاكس؟».

«لاكس».

«كم هو عدد المسافرين الذين تعرضوا للاختناق: ثلاثون أم أربعون أم خمسون أم ستون؟».

«لا أعرف، ربما ستون».

«كم عدد الأطفال الذين أصيبوا: اثنان أم أربعة أم ستة أم ثمانية؟».

«ثمانية؟».

«من تعرض للاختناق أيضاً: رجلا إطفاء أم رجلا شرطة أم رجلا أعمال أم معلمان؟».

«رجلا إطفاء».

«رائع، لقد أنهينا العمل هنا تماماً. سأرافقك للعودة إلى الدكتور ديفيز».

رائع؟! أيعقل أنها تذكرت القصة، ولكنها لم تدرك أنها تعرفها؟

دخلت مكتب الدكتور ديفيز، وفوجئت عندما وجدت أن جون قد سبقها إلى هناك. فقد رأته جالساً على كرسيه الذي ظل شاغراً في جلستيها السابقتين. ها هم جميعاً هنا الآن: أليس وجون والدكتور ديفيز. لم تستطع أن تصدق أن هذا

يحدث على أرض الواقع، وأن هذه حياتها، وأنها امرأة مريضة في موعد مع طبيب الأعصاب برفقة زوجها. كادت تشعر بنفسها تمثل شخصية في إحدى المسرحيات؛ تلك المرأة المصابة بالألزهايمر. فنظرت إلى زوجها وهو يضع نصه على حضنه، ولكنه ليس نصاً في الواقع بل استمارة النشاطات اليومية. (داخل مكتب الطبيب. طبيب الأعصاب المعالج يجلس مقابل زوج المرأة. تدخل الزوجة).

«اجلسي يا أليس. لقد قضيت للتو بضع دقائق هنا مع جون».

راح جون يفتل خاتم زواجه ويهز ساقه اليمنى. كان كرسياهما متلاصقين، لذا جعل اهتزازه كرسيها يرتجف. ترى، ما الحديث الذي دار بينهما في غيابها؟ أرادت أن تتحدث إلى جون على انفراد قبل أن يبدأوا لتكتشف ما يجري، ولتجعل قصتيهما متناسبتين، ولكنها أرادت قبل ذلك أن تطلب منه الكف عن هزها.

سأل الدكتور ديفيز: «كيف حالك؟».

«إنني بخير».

ابتسم لها ابتسامة لطيفة خففت من حدة خشيتها وخوفها.

«حسناً، كيف حال ذاكرتك؟ هل هناك أي أمور إضافية تقلقك أو تغييرات طرأت منذ آخر مرة أتيت فيها إلى هنا؟».

«حسناً، لقد بدأت أعاني من صعوبة أكبر في متابعة جدولي اليومي. إذ يجب علي أن أتفقد جهاز البلاكبيري أو لائحة المهام كل اليوم. كما أنني بت أكره التحدث عبر الهاتف الآن. فإن لم أر وجه الشخص الذي أتحدث إليه، فأنا أعاني من وقت عصيب تماماً في فهم المحادثة برمتها. فأنا عادة أفقد متابعتي لما يقوله الشخص بينما أطارد الكلمات في رأسي».

«ماذا عن التشوش؟ هل عانيت من أي حوادث شعرت فيها بالارتباك أو الضياع؟».

«كلا. حسناً، إنني في بعض الأحيان أصاب بالتشوش حيال الوقت من اليوم حتى عندما أنظر إلى ساعتي، ولكنني أكتشف الوقت الصحيح في نهاية المطاف. ذات مرة، ذهبت إلى مكتبي ظناً مني أن الوقت صباح، ولم أدرك أن الوقت لا يزال منتصف الليل إلى أن عدت إلى البيت».

سأل جون: «أحقاً فعلت؟! متى حدث هذا؟».

«لا أعرف. في الشهر الماضي حسبما أعتقد».

«أين كنت أنا؟».

«كنت نائماً».

«لماذا تركتني أكتشف هذا الآن يا آلي؟».

«لا أعرف، ربما نسيت إخبارك؟».

ابتسمت، ولكن لم يبدُ أن ابتسامتها تفعل شيئاً سوى زيادة حدة خوفه بعض الشيء.

«هذا النوع من التشوش والتجوال في الليل شائع جداً، ومن المرجح أن يحدث مرة أخرى. لذا، أقترح عليكما أن تفكرا في تثبيت جرس على الباب الأمامي، أو شيء ما يوقظ جون في حال تم فتح الباب في منتصف الليل. وينبغي لك على الأرجح أن تسجلي في برنامج هيئة الألزهايمر للعودة الآمنة. أظن أن الأمر يكلف أربعين دولاراً، ثم ستضعين سوار هوية حول معصمك عليه رمز شخصي».

«لدي برنامج لجون على الهاتف المحمول، وأنا أحمله في حقيبتي في كل الأوقات».

«حسناً، هذا جيد. ولكن، ماذا إن فرغت بطارية الهاتف أو كان هاتف جون مغلقاً؟».

«ماذا عن وضع قطعة من الورق في حقيبتي وعليها اسمي واسم جون وعنواننا وأرقام هواتفنا؟».

«هذا جيد طالما أنك تحملينها على الدوام، ولكنك قد تنسين أن تأخذي حقيبتك. أما عندما ترتدين السوار فلن يتوجب عليك أن تفكري في الأمر».

قال جون: «إنها فكرة جيدة. سنحصل لها على واحد».

«ماذا تفعلين مع أدويتك؟ هل تأخذين كل الجرعات؟».

«نعم».

«هل تعانين من أي مشكلات في الآثار الجانبية كالغثيان والدوار؟».

«كلا».

«باستثناء تلك الليلة التي قضيتها في المكتب، هل عانيت من أي مشكلات في النوم؟».

«كلا».

«أما زلت تقومين بتمارين منتظمة؟».

«نعم، ما زلت أجري خمسة أميال تقريباً كل يوم».

«ماذا عنك يا جون؟ هل تجري؟».

«كلا، إنني أمشي من البيت إلى العمل وبالعكس، وهذا هو كل شيء بالنسبة إلي».

«أظن أنها ستكون فكرة حسنة إن اعتدت الجري معها. فهناك معلومات مقنعة في نماذج الحيوانات تشير إلى أن التمرين وحده من الممكن أن يبطئ عملية تراكم المادة النشوانية وانحدار الإدراك».

قالت أليس: «لقد رأيت هذه الدراسات».

«حسناً، إذاً واصلي الجري، ولكنني أفضّل أن تعتادي على الجري مع شريك لك. فبهذه الطريقة لن يتوجب علينا أن نقلق من أن تتوهي أو تتخلي عن الجري لأنك نسيت أمره».

«سأبدأ بالجري معها».

كان جون يكره الجري. ورغم أنه اعتاد لعب السكواش والتنس والجولف بين الحين والآخر، إلّا أنه لم يعتد الجري قط. كان يستطيع بكل تأكيد أن يتفوق عليها ذهنياً، ولكنها ظلت من الناحية الجسدية تتجاوزه بمراحل. أعجبتها فكرة الجري معه، ولكنها شكت في أن يلتزم بها.

«كيف مزاجك الآن، هل تشعرين أنك على ما يرام؟».

«أنا جيدة بشكل عام. إنني محبطة بكل تأكيد ومرهقة من محاولة التأقلم مع كل شيء، ويتملكني القلق مما ينتظرني في المستقبل. ولكن خلافاً لذلك، أشعر أنني على حالي، أو حتى أفضل في الواقع من نواحٍ عدة منذ أن أطلعت جون والأولاد على مرضي».

«هل أخبرت أحداً في هارفرد؟».

«كلا، ليس بعد».

«هل كنت قادرة على تدريس محاضراتك والقيام بمسؤولياتك المهنية في هذا الفصل الدراسي؟».

«نعم. لقد تطلب مني الأمر مجهوداً أكبر مما حدث في الفصل الماضي، ولكن نعم».

«هل كنت تسافرين وحدك لحضور الاجتماعات والمحاضرات؟».

«لقد توقفت عن السفر إلى حد كبير. فقد ألغيت محاضرتين جامعيتين، وتغيبت عن مؤتمر كبير في شهر نيسان. وسوف أفوت مؤتمراً آخر في فرنسا هذا الشهر. في العادة، أسافر كثيراً في الصيف، كلانا نفعل ذلك، ولكننا في هذه السنة سنقضي الصيف بأكمله في بيتنا في كيب، وسنتوجّه إلى هناك الشهر القادم».

«جيد، هذا يبدو رائعاً. حسناً، يبدو لي أنك ستنالين عناية جيدة جداً هذا الصيف. إنني أعتقد فعلاً أنه ينبغي لك أن تضعي خطة لخريف هذا العام تتضمن إخبار المسؤولين في هارفرد بوضعك، وربما تتوصلين إلى طريقة منطقية للانتقال خارج وظيفتك. وأظن أن سفرك وحدك ينبغي أن يصبح فكرة مرفوضة في ذلك الحين».

أومأت برأسها، وشعرت أنها بدأت تخشى من قدوم شهر أيلول.

«هناك بعض الشؤون القانونية التي يجب أن تخططي لها على حد سواء؛ أي توجيهات مسبقة مثل توكيل محامٍ، وكتابة وصيتك. هل فكّرت في ما إذا كنت ترغبين في التبرع بدماغك للأبحاث العلمية؟».

لقد فكرت في هذا الأمر من قبل، فتخيلت دماغها الخالي من الدماء بين يدي أحد طلاب الطب بينما يرشده الأستاذ إلى عدة مواقع، بما فيها القشرة الحسية والقشرة السمعية والقشرة البصرية التي تمتلئ بذكريات عن رائحة المحيط وأصوات أولادها ويدي جون ووجهه. وتخيلت الداطلب وهو يقطعه إلى شرائح رقيقة كشرائح اللحم. في مثل هذه الحال، تبدو التجاويف فيه شديدة الوضوح، وكذلك الفراغات التي عاشت فيها كل أفكارها وذكرياتها.

«نعم، إنني أود ذلك».

فبدا النفور والانكماش واضحين على جون.

«حسناً، سأطلب منك أن تملئي الأوراق قبل أن تغادري. جون، هل يمكنني

أن أرى الاستمارة التي تحملها؟».

ترى، ما الذي قاله عني؟ لن يتحدثا أمامي أبداً.

«متى أخبرتك أليس عن تشخيص مرضها؟».

«بعد أن أخبرتها أنت على الفور».

«حسناً، كيف يمكنك القول إنها تبلي منذ ذلك الحين؟».

«بشكل جيد، حسبما أعتقد. إن ما قالته صحيح بالنسبة إلى الهاتف. فهي لا ترد عليه بعد الآن على الإطلاق، بل تجعلني أنا أرد أو تتركه لآلة الرد. وأصبحت شديدة التمسك بهاتفها البلاكبيري كما لو أنها مدمنة. فهي أحياناً تتفقده كل بضع دقائق في الصباح قبل أن تغادر البيت، ويصعب عليّ مشاهدة هذا».

باتت تشعر أكثر فأكثر أنه غير قادر على أن يتحمل النظر إليها. وإن فعل ذلك، فهو يرمقها بنظرة عيادية وكأنه ينظر إلى أحد فئران التجارب.

«هل هناك شيء آخر؟ أي شيء ربما لم تذكره أليس؟».

«ليس هناك شيء يخطر ببالي الآن».

«ماذا عن مزاجها وشخصيتها؟ هل هناك أي تغيرات لاحظتها في ما يتعلق بهذا؟».

«كلّا، إنها على حالها. ربما أصبحت دفاعية قليلاً وازدادت هدوءاً، ولم تعد تبدأ أي محادثة بعد الآن إلا نادراً».

«وماذا عن حالك أنت؟».

«أنا؟! إنني بخير».

«لدي بعض المعلومات التي يمكنك أن تأخذها معك بخصوص مجموعتنا المخصصة لدعم مانحي الرعاية. إن السيدة دينيز داداريو هي الموظفة الاجتماعية لدينا. أنصحك بأن تحجز موعداً معها وتعلمها بما يجري».

«أسيكون هذا الموعد من أجلي أنا؟».

«نعم».

«في الواقع، إنني لست بحاجة إلى ذلك؛ فأنا على ما يرام».

«حسناً، إن المصادر موجودة هنا إن وجدت أنك بحاجة إليها. والآن، لدي بعض الأسئلة التي أود طرحها على أليس».

«في الواقع، إنني أريد أن أتحدث عن بعض العلاجات الإضافية والتجارب العيادية».

«حسناً، لنفعل ذلك. ولكنْ دعنا أولاً ننهي فحصها. أليس، في أي يوم من الأسبوع نحن؟».

«الاثنين».

«ومتى ولدت؟».

«في الحادي عشر من تشرين الأول عام 1953».

«من هو نائب رئيس الولايات المتحدة؟».

«ديك تشيني».

«حسناً، الآن سأعطيك اسماً وعنواناً وستكررينهما لي. وسأطلب منك أن تكرريهما مرة أخرى في وقت لاحق. هل أنت مستعدة؟ جون بلاك 42 شارع ويست ستريت برايتون».

«الاسم والعنوان نفساهما من المرة الماضية».

«نعم، هذا جيد جداً. هل يمكنك أن تكرريه لي الآن؟».

«جون بلاك 42 شارع ويست ستريت برايتون».

جون بلاك 42 شارع ويست ستريت برايتون.

جون لا يرتدي الأسود أبداً. وليديا تعيش في الغرب. وتوم يعيش في برايتون. وقبل ثماني سنوات كنت في الثانية والأربعين من عمري.

جون بلاك 42 شارع ويست ستريت برايتون.

«حسناً، هل يمكنك أن تعدي إلى الرقم عشرين عداً تصاعدياً ثم تنازلياً؟».

ففعلت ما طلبه.

«والآن، أريدك أن تظهري بأصابعك الرقم الذي يتوافق مع ترتيب الحرف الأول للمدينة التي أنت فيها في الأبجدية».

كررت ما قاله في رأسها، ثم رفعت علامة النصر بسبابتها اليسرى وإصبعها الوسطى.

«جيد. والآن، ماذا نسمي هذا الشيء الموجود على ساعتي؟».

«إبزيم».

«حسناً، والآن اكتبي لي جملة تتحدث عن طقس اليوم على قطعة من الورق».

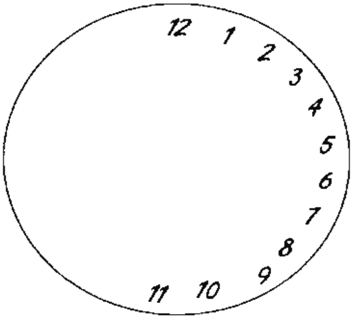
الطقس اليوم سديمي وحار ورطب.

«على الوجه الآخر للورقة، ارسمي لي ساعة تظهر الوقت على أنه الثالثة وخمس وأربعون دقيقة».

فرسمت دائرة كبيرة، وملأت الأرقام فيها بدءاً من الأعلى بالرقم 12.

ثم قالت: «عفواً، لقد رسمت دائرة كبيرة جداً».

ثم خربشت عليها بالقلم.



وكتبت: 3:45

فقال الدكتور ديفيز: «كلا، لا أريد ساعة رقمية بل قياسية».

«حسناً، هل تريد أن تعرف إن كنت أستطيع أن أرسم أم إن كنت لا أزال أعرف الوقت؟ إن رسمت لي ساعة فسأتمكن من أن أريك الساعة التي تريدها؛ فأنا لست بارعة بالرسم».

كانت آنا في طفولتها تحب الأحصنة حباً جماً، فاعتادت أن تتوسل إلى أليس كي ترسم لها صور أحصنة، فأتى أداء أليس في أفضل حالاته أشبه بكلاب التنين. وفشلت حتى في إرضاء ابنتها الصغيرة ذات المخيلة الجامحة التي تتقبل كل شيء.

كلا يا أمي، ليس هكذا، ارسمي لي حصاناً.

«في الواقع، إنني أسعى إلى القيام بكلا الأمرين يا أليس. فالألزهايمر يؤثر في الفصين الجداريين بشكل مبكر فعلاً، وهناك نحتفظ بتمثيلنا الداخلي للفراغ خارج الشخصي. ولهذا السبب يا جون، أريدك أن تخرج للجري معها».

أومأ جون برأسه، فشعرت بأنهما يتآمران عليها.

«أنت تعرف يا جون أنني لا أجيد الرسم».

«إنها ساعة يا أليس، وليست حصاناً».

صعقت لأنه لم يدافع عنها، وراحت تنظر إليه شزراً وهي رافعة حاجبيها لتمنحه فرصة أخرى ليؤكد على صحة موقفها. ولكنه قام بمجرد التحديق إليها وهو يفتل خاتم زواجه.

«إن رسمت لي ساعة، فسوف أرسم لك التوقيت».

رسم الدكتور ديفيز ساعة على ورقة جديدة، فرسمت أليس عقربين يشيران إلى الوقت الصحيح.

«حسناً. والآن، أريد منك أن تخبريني الاسم والعنوان نفسيهما اللذين طلبت منك أن تتذكريهما قبل قليل».

«جون بلاك... شارع ويست ستريت، برايتون».

«حسناً، هل الرقم هو اثنان وأربعون أم أربعة وأربعون أم ستة وأربعون أم ثمانية وأربعون؟».

«ثمانية وأربعون».

دوّن الدكتور ديفيز الكثير من الكلمات على الورقة التي رسم عليها الساعة.

«جون، من فضلك كفّ عن هز كرسيّ».

«حسناً، الآن يمكننا التحدث عن خيارات الأدوية التجريبية. هناك عدة دراسات تجرى هنا في برايام، ولكن التي تعجبني أكثر من غيرها عبارة عن دراسة من ثلاث مراحل لعقار اسمه أميليكس، وسيلتحق المرضى بهذه الدراسة هذا الشهر. يبدو أن هذا العقار يربط المادة النشوانية القابلة للذوبان ويمنع تجمعها، لذا على عكس العقاقير التي تتناولينها الآن، هناك أمل في أن يمنع هذا العقار المرض من التطور. لقد أتت نتائج الدراسة في المرحلة الثانية مشجعة، فقد تم تحملها بشكل جيد. وبعد عام على تناول العقار، يبدو أن وظائف الإدراك لدى المرضى قد توقفت عن التدهور أو ربما تحسنت».

سأل جون: «أظن أنه تتم مقارنته بالدواء الوهمي، أليس كذلك؟».

«نعم، إنه كذلك».

إذاً، من الممكن ألا أنال سوى بعض حبوب السكر. وشكت أليس في أن تتأثر المادة النشوانية بالدواء الوهمي أو بقوة التفكير المتفائل.

سأل جون: «ما رأيك بصادات أنزيم سيكريتاز؟».

وكانت هذه تعجب جون أكثر من أي شيء آخر؛ لأنها عبارة عن أنزيمات طبيعية المنشأ، تفرز مستويات طبيعية وغير مؤذية من المادة النشوانية. فالطفرة الجينية لدى أليس تجعلها غير قابلة للتنظيم الملائم، لذا فهي تنتج الكثير من المادة النشوانية، والكثير منها ضار لأنه أشبه بفتح صنبور لا يمكن إغلاقه مما يتسبب في طوفان المغسلة.

«في الوقت الحاضر، إن هذه الصادات إما شديدة السمية للاستخدام العيادي أو...».

«وماذا عن فلوريزان؟».

وكان فلوريزان عبارة عن عقار مضاد للالتهاب مثل أدفيل، وتدَّعي الشركة المصنعة له أنه يخفض من إنتاج المادة النشوانية بيتا 42؛ مما يعني ماء أقل في المغسلة.

«نعم، هناك الكثير من الاهتمام بهذا العقار. وتجرى عليه دراسة من مرحلتين، ولكن فقط في كندا والمملكة المتحدة».

«ما رأيك في أن تتناول أليس عقار فلورب إبروفن؟».

«ليست لدينا المعلومات الكافية للتأكيد على كونه فعالاً فعلاً في علاج الألزهايمر. وإن قررت عدم الالتحاق بدراسة عيادية، يمكنني القول إنه لن يسبب لها أي ضرر على الأرجح، ولكنْ إن أرادت أن تلتحق بدراسة، فسوف يعتبرون هذا العقار علاجاً استكشافياً للألزهايمر، مما سيجعلهم يستثنونها منها».

سأل جون: «حسناً، وماذا عن الأجسام المضادة أحادية النسيلة التي تسمى إيلان؟».

«إنها تعجبني، ولكن دراستها في المرحلة الأولى فقط، وقد تم إغلاق باب الالتحاق فيها. وعلى فرض أنها تجاوزت مرحلة الأمان، فهم لن يبدأوا بالمرحلة

الثانية حتى حلول الربيع من العام القادم على أقرب تقدير. وأنا أود أن أجعل أليس تلتحق بالتجربة في أقرب وقت ممكن».

سأل جون: «هل سبق لك أن أخضعت أحداً للعلاج بحقن الغلوبولين المناعي الوريدي IVIg؟».

أعجب جون بفكرة هذا العلاج. فقد ثبت أن الغلوبولين المناعي الوريدي الذي يستخرج من البلازما المتبرع بها آمن وفعال في علاج نقص المناعة الأساسي وعدد من أمراض المناعة الذاتية العضلية العصبية. وقد يكون غالي الثمن اليوم، وغير مضمون في شركة التأمين، ولكنه وجد أنه يستحق أي ثمن إن ثبتت فعاليته.

«لم أخضع أي مريض لهذا العلاج من قبل. لست ضده، ولكننا لا نعرف الجرعة المناسبة منه. كما أنها طريقة غير متقنة ولا موجهة. ولا أتوقع من تأثيراتها أن تتجاوز حدود النتيجة المتواضعة».

قال جون: «سنرضى بالنتيجة المتواضعة».

«حسناً، ولكن يجب عليكما أن تدركا أنكما ستقايضان هذا بذلك، أي أنكما إن قررتما أن تخضع أليس لعلاج IVIg، فإنها لن تعود مؤهلة لأي من تلك التجارب العيادية لتجربة العقاقير التي من المحتمل أن تكون محددة أكثر لهذا المرض».

«ولكن هذا يضمن على الأقل أنهم لن يضعوها في مجموعة الدواء المزيف».

«هذا صحيح. فهناك مخاطر بالنسبة لكلا الخيارين».

«هل سيطلبون مني التوقف عن أخذ آريسبت وناميندا للمشاركة في التجربة العيادية؟».

«كلا، بل ستظلين تتناولين هذين العقارين».

«هل يمكنني أن أخضع لعلاج بديل للإستروجين؟».

«نعم، فهناك أدلة كافية تدل على أنه يحمي إلى حد ما على الأقل، لذا سأكون راغباً في أن أكتب لك وصفة لتناول عقار كومبيباتش. ولكن مرة أخرى، سيعتبر عقاراً استكشافياً، ولن تعودي مؤهلة للمشاركة في تجربة عقار أميليكس».

«كم من الوقت سأبقى في التجربة؟».

«إنها دراسة مدتها خمسة عشر شهراً».

سألت أليس قائلة: «ما اسم زوجتك؟».

«لوسي».

«ما الذي كنت ستود أن تفعله لوسي لو أنها تعاني من هذا المرض؟».

«كنت سأرغب في أن تلتحق بتجربة عقار أميليكس».

سأل جون: «إذاً، أميليكس هو الخيار الوحيد الذي تنصحنا به؟».

«نعم».

فقال جون: «ولكنني أظن أنه ينبغي لنا أن نعطيها علاج حقن IVIg إلى جانب فلورب إبروفين وكومبيباتش».

ساد الصمت والسكون في الغرفة. لقد تم تبادل كم كبير من المعلومات في ما بينهم، فضغطت أليس بيديها على عينيها، وحاولت أن تفكر بشكل تحليلي في خيارات علاجها، وبذلت أقصى ما باستطاعتها لتقيم أعمدة وصفوفاً في رأسها لتقارن بين العقاقير. ولكنّ الجدول الخيالي لم يساعدها، فألقت به في سلة مهملات خيالها. وبدلاً من ذلك، حاولت التفكير بأسلوب مفاهيمي، وتوصّلت إلى صورة واحدة واضحة وتبدو منطقية؛ إما بندقية رش أو رصاصة واحدة.

قال الطبيب: «ليس عليكما أن تتخذا قراراً اليوم. يمكنكما العودة إلى البيت والتفكير في الأمر ملياً ثم العودة إلي».

كلا، لم تكن بحاجة إلى أن تفكر أكثر من ذلك؛ فهي عالمة متخصصة، وتعرف ما يعنيه أن تخاطر بكل شيء من دون أي ضمانات بحثاً عن حقيقة مجهولة. وكما اعتادت أن تفعل عدة مرات على مر السنوات بأبحاثها الخاصة، اختارت الرصاصة.

«أريد أن أخضع للتجربة».

قال جون: «أظن أنه ينبغي لك أن تثقي بي في هذا الموضوع يا آلي».

«ما زلت قادرة على التوصل إلى استنتاجاتي الخاصة بنفسي يا جون، وقد قررت أن أخضع للتجربة».

«حسناً، سأحضر لك الاستمارات لتوقعيها».

(داخل مكتب الطبيب؛ طبيب الأعصاب يغادر الغرفة، والزوج يفتل خاتم زواجه، والمرأة تأمل في الحصول على علاج).

تموز 2004

جون؟ جون؟ هل أنت في البيت؟ كانت واثقة من أنه ليس في البيت، ولكن التأكد من أي شيء في هذه الأيام بات مشوهاً بالكثير من الثغرات، حيث من الصعب أن يحمل المعنى الذي اعتاد أن يحمله. لقد غادر ليذهب إلى مكان ما، ولكنها لم تستطع أن تتذكر متى غادر أو إلى أين ذهب. ترى، هل ذهب إلى المتجر ليشتري بعض الحليب أو القهوة؟ هل ذهب ليستأجر فيلماً؟ في كلتا الحالتين، أدركت أنه سيعود في أية لحظة. أم هل ذهب إلى كامبريدج؟ في هذه الحالة، سيغيب بضع ساعات على الأقل، أو سيمضي الليلة بأكملها هناك. أم هل قرر أخيراً أنه لا يستطيع أن يواجه ما ينتظرهما في المستقبل وقام بمجرد المغادرة من دون أن تكون لديه النية في العودة مطلقاً؟ كلا، لقد أيقنت من أنه لن يفعل هذا أبداً.

كان بيتهما في كيب مبنياً منذ العام 1990، ويبدو أكبر حجماً وأكثر اتساعاً وأقل تقسيماً من بيتهما في كامبريدج. دخلت المطبخ. لم يكن يشبه مطبخهم في البيت بأي حال من الأحوال. فالتأثير الساطع للجدران والخزائن المطلية بالأبيض والأدوات والكراسي البيضاء والأرضية المكسوة بالسيراميك الأبيض لم يكسره سوى اللون الأزرق الذي طليت به الطاولات المصنوعة من الحجر الصابوني وكذلك الأواني الزجاجية الزرقاء الصافية. فبدا المكان أشبه بصفحة في دفتر للتلوين أضاف إليها أحدهم بضع لمسات بقلم تلوين خشبي أزرق اللون.

دلّ وجود الطبقين والمناديل الورقية المستعملة على الطاولة على تناول عشاء مكون من السلطة ومعكرونة السباغيتي بالصلصة الحمراء. وكانت الكأسان لا تزالان تحتويان على جرعة من الشراب. فأمسكت الكأس بفضول عالم أدلة جنائية، وفحصت درجة حرارة الشراب بشفتيها، فوجدته لا يزال بارداً، ولكنها شعرت أنها شبعى. تفقّدت الوقت، ووجدت أن الساعة تتجاوز التاسعة ببضع دقائق.

مضى عليهما في كيب حوالي الأسبوع الآن. في السنوات الماضية، اعتاد هذا البيت أن يفرض عليها شروط حياة الاسترخاء بعد مضي أسبوع واحد على مكوثها فيه بعيداً عن مشاغل الحياة اليومية في هارفرد، حيث تجد نفسها مستغرقة في مطالعة كتبها المفضلة. أما في هذا العام، فقد شعرت أن برنامج هارفرد اليومي بحد ذاته– رغم أنه محتشد ومتطلب– زوّدها ببنية حياة مألوفة ومريحة لأعصابها. فالاجتماعات واللقاءات الرسمية، وأوقات المحاضرات والمواعيد شكلت شيئاً أشبه بفتات الخبز التي ترشدها في طريقها خلال اليوم.

أما هنا في كيب، فلم يعد لديها أي جدول يحدد مهامها اليومية. فقد باتت تنام متأخرة، وتتناول وجباتها في أوقات غير منظمة، وتتناول أدويتها، وتقوم باختبار الفراشة كل صباح، وتجري مع جون، ولكنّ هذا لم يزوّدها ببنية كافية لحياتها. فقد شعرت أنها بحاجة إلى فتات خبز أكبر حجماً وأكثر عدداً.

فهي في أغلب الأحيان لم تكن تعرف الوقت من اليوم أو في أي يوم هي. وفي أكثر من مناسبة، جلست لتتناول طعامها من دون أن تعرف أي وجبة من وجبات اليوم تقدم إليها. وعندما وضعت لها نادلة في اليوم الفائت طبقاً من الحلازين المقلية، انهمكت بتناولها بحماسة كما لو أنها طبق من معجنات البان كيك.

كانت نوافذ المطبخ مفتوحة، فنظرت إلى المدخل، ولكنها لم تجد سيارة جون. وكان الهواء في الخارج لا يزال يحمل آثار حرارة اليوم، ويمتلئ بنقيق الضفادع الكبيرة وضحكة امرأة والمد على شاطئ هاردينغز. فتركت رسالة لجون بجانب الأطباق المتسخة.

ذهبت للمشي على الشاطئ. مع حبي، أليس.

تنشّقت هواء الليل النقي. بدت سماء منتصف الليل الزرقاء الداكنة مرصعة بالنجوم، وبقمر هلالي رفيع. لم تكن السماء مظلمة كالعادة، ولكنها أكثر ظلاماً مما كانت عليه في كامبريدج. إذ إن غياب مصابيح الشارع، وبُعد المكان عن الطريق الرئيس جعلا الإنارة الوحيدة التي تضيئه تقتصر على الأضواء الخافتة الصادرة من الشرفات والغرف في البيوت وأضواء السيارات العابرة بين الحين والآخر، وأضاء القمر الشاطئ في الجوار. في كامبريدج، كان هذا القدر من الظلام سيبث القلق

في نفسها وهي تمشي بمفردها هكذا. ولكنها هنا، على هذا الشاطئ الصغير، وفي هذا المجتمع المرح المحب للعطلات، شعرت أنها بأمان تام.

لم تجد أي سيارات مركونة في المرأب أو أحداً على الشاطئ سواها. فشرطة المدينة لم تكن تشجع على النشاط هناك في وقت متأخر. وفي هذه الساعة من الليل، لم تسمع أي صراخ أطفال أو طيور نوارس، وباتت بمنأى عن أي مكالمات هاتفية من المستحيل تجنبها، أو أي قلق يحثها على المغادرة في وقت مبكر لتصل إلى موعدها التالي، أو أي شيء يعكر عليها صفوها.

مشت على حافة الماء، وتركت مياه المحيط تغمر قدميها، فراحت الأمواج الدافئة تداعب ساقيها. كانت حرارة المياه على شاطئ هاردينغز أكثر دفئاً بحوالي عشر درجات مما هي عليه في الشواطئ القريبة التي تواجه المحيط الأطلسي البارد بشكل مباشر.

توغّلت داخل مياه المحيط أكثر، وتركتها تغمرها. وشعرت بالمياه الخالية من أعشاب البحر التي اعتادت أن تعلق بها تحتضن جسدها بنعومة. أخذت تتنفس مع إيقاع المد والجزر. وبينما هي تخطو بخفة وتطفو على ظهرها، تعجبت من نقاط الضوء الشعاعي التي انتشرت على أطراف أصابعها وعقبيها كأنها غبار الجنيات.

انعكس ضوء القمر على معصمها الأيمن، فقرأت عبارة «العودة الآمنة» المنقوشة على سوارها العريض المسطح المصنوع من الستانلس ستيل، وقرأت رقمها وهويتها وعبارة: «خلل بالذاكرة» المنقوشة على الوجه الآخر للسوار. وفي تلك اللحظة، ركبت أفكارها سلسلة من الأمواج، وانتقلت من ذلك السوار غير المرغوب فيه إلى قلادة أمها ذات الفراشة، ثم انتقلت من هناك إلى خطتها للانتحار، ثم إلى الكتب التي خططت لقراءتها، وأخيراً علقت في المصير المشترك لكل من فيرجينيا وولف وإيدنا بونتيلير. فكرت في أن تطبيق هذه الخطة سيكون بمنتهى السهولة، وأنه بوسعها أن تسبح وتواصل السباحة في عرض البحر إلى أن تصبح عاجزة عن المتابعة.

نظرت إلى المياه المظلمة، وشعرت بجسدها القوي وموفور الصحة الذي يساعدها على أن تطفو وتسبح في الماء، وكل غريزة فيها تقاوم من أجل الحياة.

نعم، لم تتذكر إن كانت قد تناولت عشاءها مع جون الليلة، أو إلى أين قال إنه ذاهب. وقد لا تتذكر ما حدث هذه الليلة في الصباح، ولكنها في هذه اللحظة لم تشعر بأنها يائسة، بل شعرت بأنها على قيد الحياة ومفعمة بالسعادة.

أعادت النظر إلى الشاطئ الذي يسطع عليه ضوء القمر الخافت، ثم ظهر شخص ما، فأدركت أنه جون قبل أن تتبيّن أياً من ملامحه من قفزته وحجمه ومشيته. لم تسأله أين كان، أو كم من الوقت غاب. ولم تشكره لأنه عاد. ولم يوبخها لأنها خرجت وحدها من دون أن تحمل هاتفها الجوال. ولم يطلب منها أن تخرج وتعود إلى البيت. بل من دون أن يتبادلا أي كلمة، خلع ملابسه وانضم إليها في المحيط.

«جون؟».

عثرت عليه وهو يطلي جدران المرأب.

قالت أليس: «كنت أناديك وأبحث عنك في أنحاء البيت كافة».

قال جون: «كنت هنا، ولم أسمعك».

سألته قائلة: «متى ستغادر لحضور المؤتمر؟».

«يوم الاثنين».

وكان جون يعتزم السفر إلى فيلادلفيا لحضور المؤتمر العالمي التاسع عن مرض الألزهايمر.

«وسيكون هذا بعد أن تصل ليديا إلى هنا، أليس كذلك؟».

«نعم، ستصل إلى هنا يوم الأحد».

«آه، صحيح».

فبعد طلب خطي من ليديا، دعتها شركة من شركات المسرح لكي تنضم إليها كفنانة ضيفة في الصيف.

سأل جون: «هل أنت مستعدة للركض؟».

لم يكن الضباب الصباحي قد انقشع بعد، فشعرت أن الهواء بارد بالنسبة إلى الملابس الخفيفة التي ترتديها.

«إنني بحاجة فقط إلى أن أرتدي طبقة أخرى من الملابس».

قرب الباب الأمامي، فتحت خزانة المعاطف. لطالما شكل ارتداء الملابس بشكل مريح في كيب في بداية الصيف تحدياً مستمراً بالنسبة إليها بسبب درجات الحرارة التي تبدأ عادة منخفضة، ثم تحلق إلى ثلاثين درجة مئوية بحلول العصر، ثم تعاود الهبوط مرة أخرى، وغالباً ما تترافق مع رياح محيطية نشطة بحلول الليل. تطلب هذا منها إحساساً خلّاقاً بالموضة، ورغبة في إضافة عدة قطع من الملابس عدة مرات في اليوم. لمست أكمام كل واحد من المعاطف المعلقة. ورغم أنها وجدت عدداً منها مثالياً الآن للجلوس أو المشي على الشاطئ، إلّا أنها بدت كلها ثقيلة جداً للجري.

صعدت إلى الطابق العلوي، ودخلت غرفة النوم. وبعد البحث في عدة أدراج، عثرت على معطف قطني خفيف وارتدته. لاحظت الكتاب الذي كانت تقرأه موضوعاً على الطاولة، فأمسكته ونزلت الدرج متجهة إلى المطبخ. صبّت لنفسها كأساً من الشاي المثلج، ودخلت الشرفة الخلفية. لم يكن ضباب الصباح المبكر قد انقشع بعد، ووجدت الطقس أبرد مما توقعت، فوضعت كأس الشاي والكتاب على الطاولة بين الكراسي، وعادت إلى البيت لتأخذ بطانية.

عادت وقد لفّت نفسها بالبطانية، وجلست على أحد الكراسي، وفتحت كتابها على الصفحة المثنية. وسرعان ما أصبحت القراءة بالنسبة إليها مهمة تفطر القلب. فقد بات يتوجب عليها أن تعيد قراءة الصفحات مراراً لتحافظ على استمرارية الفكرة والسرد. وإن تركت الكتاب في وقت ما، كان يتوجب عليها في بعض الأحيان أن تعود إلى الوراء فصلاً كاملاً لتتمكن من تذكّر تسلسل الأحداث مرة أخرى. بالإضافة إلى ذلك، شعرت بالقلق من كيفية اتخاذها قراراً بشأن ما تقرأه. ماذا إن لم يتسنَّ لها الوقت الكافي لتقرأ كل ما أرادت طوال حياتها أن تقرأه؟ كان وضع الأولويات مهمة مؤلمة بالنسبة إليها، وتذكّرها بأن الناقوس يدق بلا هوادة، وأن بعض الأمور ستبقى من دون إنجاز.

كانت قد بدأت منذ فترة بقراءة مسرحية الملك لير. لطالما عشقت تراجيديات شكسبير، ولكنها لم تقرأ هذه المسرحية بالذات. لسوء الحظ، وجدت نفسها عالقة

بعد بضع دقائق، وهذا ما أصبح الروتين المعتاد بالنسبة إليها، فراحت تعيد قراءة الصفحة السابقة، وتتبّع الخط الخيالي بين الكلمات بسبابتها، ثم شربت آخر جرعة من الشاي المثلج المتبقية في الكأس وهي تتأمل الطيور على الأشجار.

سأل جون: «ها أنت هنا. ما الذي تفعلينه؟ ألا تريدين الخروج للجري؟».

«آه، نعم، جيد. فهذا الكتاب يثير جنوني».

«لنذهب إذاً».

«هل ستذهب إلى المؤتمر اليوم؟».

«الاثنين».

«ما اليوم؟».

«الخميس».

«آه، ومتى ستصل ليديا إلى هنا؟».

«الأحد».

«أي قبل أن تغادر أنت، أليس كذلك؟».

«نعم يا آلي، لقد أخبرتك كل هذا قبل قليل. يجب أن تدونيه على جهاز البلاكبيري. أظن أن هذا سيجعلك تشعرين بالتحسن».

«حسناً، آسفة».

«هل أنت مستعدة؟».

«نعم، دعني أذهب إلى الحمام قبل أن نخرج».

«حسناً، سأنتظرك في المرأب».

وضعت كأسها الفارغة على الطاولة بجانب المغسلة، وتركت البطانية والكتاب على الكرسي في غرفة المعيشة، ثم وقفت متأهبة للتحرك، ولكن ساقيها ظلتا بحاجة إلى المزيد من الإرشادات. لماذا أتت إلى هنا؟ أعادت تذكر خطواتها: البطانية والكتاب والكأس على الطاولة، والشرفة مع جون. كان يعتزم المغادرة قريباً لحضور المؤتمر العالمي لمرض الألزهايمر. يوم الأحد ربما؟ يجب عليها أن تسأله لتتأكد من ذلك. لقد أوشكا على الخروج للركض، ولكنها وجدت الطقس بارداً بعض الشيء في الخارج، فأتت إلى هنا لتأخذ سترة. كلا، ليس ذلك. فهي

ترتدي سترتها الآن. تباً!

وبينما هي توشك على الوصول إلى الباب الأمامي، شعرت بالضغط المتزايد في مثانتها يعلن عن نفسه، فتذكرت أنها أرادت أن تدخل الحمام. أسرعت على طول الممر، وفتحت باب الحمام، ولكنها فوجئت عندما اكتشفت أنه ليس باب الحمام. فقد رأت مكنسة وممسحة ودلواً ومكنسة كهربائية وكرسياً وعلبة أدوات ومصابيح ومسحوق غسيل. إنها غرفة الأدوات!

نظرت إلى آخر الممر. المطبخ إلى اليسار، وغرفة المعيشة إلى اليمين، وهذا كل شيء. كان يوجد نصف مرحاض في هذا الطابق. نعم، لا بد من وجود ذلك. إنه هنا، ولكنها لم تعثر عليه. أسرعت إلى المطبخ، ولكنها وجدت باباً واحداً يؤدي إلى الشرفة الخلفية. أسرعت مرة أخرى إلى غرفة المعيشة، ولكن بالطبع لا يوجد حمام فيها. عاودت الدخول إلى الممر مسرعة، وهي لا تزال ممسكة بمقبض الباب.

«من فضلك، يا إلهي! من فضلك، يا إلهي!».

فتحت الباب بسرعة وكأنها ساحر يعرض أكثر خدعه غموضاً، ولكن الحمام لم يظهر هناك بشكل سحري.

كيف يمكنني أن أتوه في بيتي؟!

فكرت في الصعود إلى الطابق العلوي ودخول الحمام الموجود هناك، ولكنها شعرت بأنها عالقة ومصعوقة بشكل غريب في هذا البعد المعتم والخالي من وجود أي حمام في الطابق الأول. لم تعد قادرة على كبح نفسها أكثر من ذلك، وانتابها شعور أثيري وهي تنظر إلى نفسها؛ إلى هذه المرأة المسكينة غير المألوفة بالنسبة إليها التي تبكي في الممر. لم تشعر به كبكاء امرأة كبيرة وناضجة يمكن التحكم به، بل كبكاء طفل صغير خائف ومهزوم ولا يكبحه شيء.

لم تكن دموعها الشيءَ الوحيدَ الذي عجزت عن السيطرة عليه بعد الآن. دخل جون مسرعاً من الباب الأمامي؛ في الوقت المناسب ليشهد البول وهو يتسرب على ساقها اليمنى ويبلل بنطالها وجوربها وحذاءها الرياضي.

«لا تنظر إلي!».

«لا تبكي يا آلي. لا بأس».

«لا أعرف أين أنا».

«لا بأس. أنت هنا».

«إنني ضائعة».

«لست ضائعة يا آلي. أنت معي».

احتضنها، وراح يهزّها بنعومة من جانب إلى آخر، ويخفف عنها كما رأته يخفف عن أطفالهما بعد عدد لا حصر له من الإصابات الجسدية والظلم الاجتماعي.

«لم أستطع العثور على الحمام».

«لا بأس».

«إنني آسفة».

«لا تتأسفي. لا بأس، هيا لنغيّر ملابسك. إن الطقس يزداد دفئاً، لذا أنت بحاجة إلى ملابس خفيفة أكثر على كل حال».

قبل أن يغادر جون لحضور المؤتمر، أعطى ليديا إرشادات مفصلة تخص أدوية أليس، وبرنامج رياضتها، وهاتفها المحمول، وبرنامج العودة الآمنة المخصص لها. وأعطاها أيضاً رقم طبيب الأعصاب في حال الطوارئ. وعندما أعادت أليس تذكر هذا الخطاب الصغير في رأسها، بدا لها أشبه بتلك التعليمات التي اعتادا إعطاءها لجليسات الأطفال المراهقات قبل أن يتركا أطفالهما معهن لقضاء عطلة الأسبوع في مكان بعيد. والآن، أصبح من الضروري أن تخضع للمراقبة من قبل ابنتها.

بعد أن تناولتا العشاء معاً في المطعم، مشت أليس وليديا معاً على طول شارع مين ستريت من دون أن تتبادلا أي حديث. لقد وصل موسم الصيف إلى أوجه، ومن المظاهر التي دلت على ذلك وجود صف من السيارات الفخمة المركونة على طول الرصيف الذي يعج بالدراجات والقوارب الخفيفة وعربات الأطفال وكراسي الشاطئ والمظلات ولوحات السيارات المختلفة من كونيكتيكيت ونيويورك ونيوجيرسي بالإضافة إلى ماساتشوستس. راح أفراد العائلات يتمشون الهوينا على طول الرصيف، من دون الانتباه إلى طرق المشاة، ومن دون وجهة محددة، ثم يتوقّفون ويتراجعون ويتفرجون على واجهات المحلات وكأن لديهم

كل الوقت في العالم.

بعد السير بارتياح لمدة عشر دقائق، أصبحتا بعيدتين عن وسط المدينة المزدحم، فتوقفتا أمام المنارة، وتأملتا المنظر البانورامي للشاطئ تحتهما، قبل أن تمشيا ثلاثين خطوة نحو الرمال. وجدتا في الأسفل صفاً متواضعاً من الصنادل والأخفاف التي خلعها أصحابها في وقت مبكر من اليوم. فأضافت أليس وليديا حذاءيهما إلى آخر الصف، وواصلتا المشي. وكانت أمامهما لوحة كتب عليها:

تحذير: تيار قوي. الشاطئ معرض لأمواج قوية غير متوقعة وتيارات تهدد الحياة. لا توجد حماية. منطقة خطرة للسباحة والتجذيف والغطس وركوب الأمواج والقوارب.

تأملت أليس البحر، وأصغت إلى صوت الأمواج المتكسرة بلا هوادة على الشاطئ. ولولا وجود الجدار البحري الضخم الذي تم بناؤه على حواف البيوت الفخمة على طول شارع الشاطئ لغمرت مياه المحيط كل بيت من البيوت، ولابتلعتها كلها من دون تعاطف أو شفقة. تخيّلت مرضها كهذا المحيط المجاور لشاطئ المنارة؛ فهو عنيف ومدمر، ولا يمكن ردعه. ولكنْ ليس هناك جدار بحري في دماغها ليحمي ذكرياتها وأفكارها من هجماته المتوحشة والضارية.

قالت لليديا: «إنني آسفة لأنني لم أحضر مسرحيتك».

«لا بأس بذلك. أعرف أن السبب هو أبي هذه المرة».

«لا أطيق الانتظار لأرى المسرحية التي ستمثلين فيها في صيف هذا العام».

«حسناً».

لاحت الشمس بقرصها الضخم المتدلي فوق الماء في السماء الزهرية والزرقاء وكأنها تتأهب للغوص في المحيط الأطلسي. مشتا بجانب رجل راكع على الرمال يوجه كاميرته إلى الأفق، محاولاً أن يلتقط صورة لهذا الجمال العابر قبل أن يختفي مع غياب الشمس.

«هل هذا المؤتمر الذي يريد والدي حضوره عن مرض الألزهايمر؟».

«نعم».

«هل يحاول العثور على علاج أفضل هناك؟».

«نعم».

«أتظنين أنه سيعثر على ضالته المنشودة؟».

تأملت أليس المد وهو يقترب ويمحو آثار الأقدام؛ مدمراً في طريقه قلعة رملية مبنية بإتقان ومزينة بالأصداف، ومالئاً حفرة حفرت في وقت مبكر من اليوم بالرفوش البلاستيكية، ومجرداً الشاطئ من تاريخه اليومي، فشعرت بالغيرة من تلك البيوت الجميلة المبنية خلف الجدار الحجري.

ثم قالت: «كلا».

التقطت أليس صدفة عن الأرض ونفضت عنها الرمال، كاشفة عن لمعانها الأبيض المتألق وخطوطها الزهرية الأنيقة. لطالما أحبت ملمسها الناعم، ولكنها كانت مكسورة من أحد جوانبها. فكرت في أن تلقي بها في البحر، ثم قررت الاحتفاظ بها.

قالت ليديا: «حسناً، إنني واثقة من أنه ما كان ليكلف نفسه عناء الذهاب إلى هناك لو لم يعتقد أن بوسعه العثور على شيء مهم».

مرّت بهما فتاتان ترتديان ملابس جامعة ماساتشوستس وهما تضحكان، فابتسمت لهما أليس وألقت عليهما التحية.

قالت أليس: «أتمنى لو أنك تلتحقين بالجامعة».

«أمي، من فضلك لا تبدئي».

لم ترغب أليس في أن تبدأ أسبوعهما معاً بشجار عنيف، لذا فضّلت أن تستغرق في التفكير والتذكر وهما تمشيان. فتذكرت الأساتذة الذين أحبتهم وخشيتهم وجعلت من نفسها حمقاء أمامهم، والفتية الذين أحبتهم وخشيتهم وجعلت من نفسها حتى حمقاء أكبر أمامهم، وسهرات الليالي قبل الامتحانات، والمحاضرات والحفلات والصداقات، ولقاءها الأول مع جون. أتت ذكرياتها عن تلك الفترة من حياتها واضحة وجلية وسليمة تماماً وسهلة المنال. وبدت لها واثقة من نفسها عندما تأتي إليها كاملة وجاهزة؛ وكأنها لا تدري عن الحرب التي تحتدم على بعد سنتيمترات قليلة إلى يسارها.

كلما فكرت في كليتها، عادت أفكارها في نهاية المطاف إلى شهر كانون الثاني

من أول سنة دراسية لها. فبعد أن غادر أفراد عائلتها عقب زيارتهم لها بحوالي ثلاث ساعات، سمعت أليس صوت دق متردد على باب غرفتها في مسكن الطلاب. لا تزال حتى الآن تتذكر كل تفصيل من تفاصيل هيئة عميد الكلية الواقف عند مدخل بابها؛ التجعيدة الوحيدة العميقة بين حاجبيه، والفرق الصبياني في شعره الأشيب الشبيه بشعر الأجداد، والأزرار الصوفية على كنزته الخضراء التي بدت كبراعم الزهور، والنبرة الحذرة في صوته.

كان والدها قد انحرف بسيارته في شارع روت 93 واصطدم بإحدى الأشجار. ربما استغرق في النوم، وربما أفرط في الشرب أثناء العشاء. **لطالما أفرط في الشرب أثناء العشاء، فهذا من شيمه.** فتم نقله إلى المستشفى في مانشستر. أما والدتها وشقيقتها فقد فارقتا الحياة في الحال.

«جون؟ أهذا أنت؟».

فقالت ليديا: «كلا، هذه أنا أحضر المناشف من الخارج. فالسماء على وشك أن تمطر».

بدا الجو مشحوناً وثقيلاً، ومظهره يتوعد بمطر غزير. طوال أسبوع كامل، ظل الطقس يأتي بأيام مشمسة كتلك التي تظهر على بطاقات المعايدة، ودرجات حرارة مثالية للنوم كل ليلة. وتعاون دماغها معها طوال الأسبوع على حد سواء. فباتت تميز الفرق بين الأيام المشحونة بصعوبات في الذكريات والكلمات والحمامات، والأيام التي يلتزم فيها مرضها الصمت ولا يتدخل بحياتها. وفي تلك الأيام الهادئة، عادت إليها طبيعتها الحقيقية؛ الطبيعة التي تفهمها وتثق بها. وفي تلك الأيام، بات بوسعها تقريباً أن تقنع نفسها بأن الدكتور ديفيز والمستشارة الجينية مخطئان، أو أن الشهور الستة الأخيرة مجرد كابوس مزعج، وأن الوحش الذي يكمن تحت سريرها وينشب مخالبه في أغطيتها ضرب من الخيال.

من غرفة المعيشة، تأملت أليس ليديا وهي تطوي المناشف وتكدسها على أحد كراسي المطبخ. كانت ترتدي قميصاً قطنياً أزرق بحمّالتين رفيعتين وتنورة سوداء. بدت نظيفة بعد استحمامها. وكانت أليس لا تزال ترتدي ملابس السباحة

تحت فستان صيفي باهت عليه نقش السمك.

سألت قائلة: «هل ينبغي لي أن أغير ملابسي؟».

«إن أردت ذلك».

أعادت ليديا الفناجين النظيفة إلى الخزانة، وتفقدت ساعتها، ثم عادت إلى غرفة المعيشة وجمعت المجلات والنشرات عن الأريكة والأرض وكدستها في كومة أنيقة على طاولة القهوة، وتفقدت ساعتها مرة أخرى. وبعد ذلك، أخذت نسخة من إحدى المجلات من قمة الكومة، وجلست على الأريكة وراحت تقلب صفحاتها. بدا عليهما أنهما تقتلان الوقت، ولكن أليس لم تدرك السبب في ذلك. فهناك شيء ما لم يكن في محله.

سألت أليس: «أين جون؟».

رفعت ليديا نظرها عن المجلة وهي تبدو مستمتعة أو محرجة، أو ربما كلا الأمرين؛ فلم تستطع أليس أن تحدد شعور ابنتها.

«ينبغي أن يصل إلى البيت في أية لحظة».

«إذاً، نحن بانتظاره».

«نعم».

«أين آن؟».

«آنا في بوسطن مع تشارلي».

«كلا، أقصد أختي آن. أين آن؟».

حدقت ليديا إلى وجهها من دون أن ترمش بعينيها، وتلاشى كل السرور من وجهها.

«إن آن ميتة يا أمي. فقد توفيت في حادث سيارة مع أمك».

لم تبعد ليديا نظرها عن وجه أليس. فتوقفت أليس عن التنفس، وانقبض قلبها كقبضة اليد المشدودة، وتخدر رأسها وأصابعها، وبات العالم من حولها مظلماً وضيقاً. فاستنشقت نفساً عميقاً ملأ رأسها وأصابعها بالأوكسجين، وملأ قلبها الذي ينبض بعنف بالحزن والغضب، ثم أخذت ترتجف وانفجرت باكية.

«كلا، يا أمي، لقد حدث هذا قبل وقت طويل، أتتذكرين؟».

كانت ليديا تتحدث إليها، ولكنَ أليس لم تسمع ما قالته لها، بل استطاعت فقط أن تشعر بالغضب والحزن يكتسحان كل خلية من خلاياها، وبقلبها المريض ودموعها الساخنة. ولم تعد تسمع سوى صوتها في رأسها وهي تصيح منادية آن وأمها.

وقف جون فوق رأسيهما وهو يبدو مبللاً بالمطر.

«ما الذي حدث؟».

«لقد سألتني عن آن. إنها تظن أنها توفيت مؤخراً».

أمسك بيدها بين يديه، وراح يتحدث إليها محاولاً تهدئتها. لماذا لا يبدو منزعجاً أيضاً؟ إنه يعرف هذا منذ بعض الوقت. هذا هو السبب، ولكنه يبقي الأمر سراً عني. وأدركت أنه لم يعد بوسعها أن تثق به.

آب 2004

توفيت والدة أليس وشقيقتها وهي طالبة بالسنة الأولى في الكلية. لم تكن هناك صور لأمها وآن تملأ أي صفحة في ألبوم صور العائلة. ولم يكن هناك أي دليل على وجودهما في حفل تخرجها، أو زفافها، أو معها ومع جون والأولاد في العطل أو الإجازات أو الحفلات. لم تستطع أن تتخيل أمها امرأة مسنة، ولم تتخط آن في مخيلتها سن المراهقة. ومع ذلك، كانت واثقة كل الثقة من أنهما على وشك أن تدخلا من الباب الأمامي- ليس كشبحين عائدين من الماضي وإنما وهما حيتان ترزقان- لتمكثا معهما في بيتهما في كيب طوال فصل الصيف. وباتت خائفة نوعاً ما من أن ينال منها الارتباك إلى هذا الحد حتى وهي صاحية ومستيقظة؛ لدرجة أن تتوقع من كل قلبها زيارة من أختها وأمها الميتتين منذ وقت طويل. ووجدت هذا أكثر رعباً، لدرجة أن فكرة الزيارة بحد ذاتها لم ترعبها إلا قليلاً فقط.

جلس كل من أليس وجون وليديا حول الطاولة في الشرفة وهم يتناولون طعام الفطور. وكانت ليديا تتحدث إليهما عن أعضاء مجموعتها الصيفية وعن تجارب الأداء، ولكنها وجّهت مجمل حديثها إلى جون.

«لقد أصابني خوف شديد قبل أن أصل إلى هنا، أتدري لماذا؟ كان ينبغي لك أن ترى كل الممثلين الحاصلين على شهادات من جامعة ييل وخبرة من مسرح برودواي».

قال لها: «يا للروعة! تبدو لي مجموعة ذات خبرة عالية. ما هي معدلات الأعمار؟».

«آه، من المؤكد أنني الأصغر سناً بينهم. فمعظمهم على الأرجح في العقد الثالث أو الرابع، ولكنّ هناك رجلاً وامرأة في مثل سنك وسن أمي».

«أهما كبيران إلى هذا الحد؟».

«إنك تدرك ما أعنيه. على أية حال، لم أعرف أنني سأجد نفسي غير مؤهلة، ولكن التدريب الذي كنت أخضع له والعمل الذي كنت أنجزه سمحا لي بالحصول على الخبرة الملائمة. وهكذا، أنا أعرف تماماً ما أفعله هنا».

تذكرت أليس أنها عانت من القلق والتوتر نفسيهما في الأشهر الأولى لعملها كأستاذة في جامعة هارفرد.

«من المؤكد أنهم جميعاً لديهم خبرة أكثر مني، ولكن أياً منهم لم يدرس تقنية مايسنر. لقد درسوا جميعاً تقنيات أخرى بلا شك، ولكنني أظن بالفعل أن مايسنر هي الطريقة الأقوى للحصول على العفوية الحقيقية في التمثيل. إذاً، رغم أنني لا أحظى بالخبرة الكافية على المسرح، إلّا أنني أضفي شيئاً فريداً من نوعه على المجموعة».

«هذا رائع جداً يا عزيزتي. وهذا على الأرجح أحد الأسباب التي جعلتهم يدخلونك مجموعتهم. بالمناسبة، ما الذي تعنينه بالعفوية في التمثيل؟».

تساءلت أليس عن الشيء نفسه، ولكن كلماتها الضائعة في المادة النشوانية في دماغها تلكأت خلف كلمات جون؛ كما يحدث في أغلب الأوقات التي يتبادلان فيها حديثاً حقيقياً، لذا أصغت إلى زوجها وابنتها وهما يثرثران بلا مشقة أمامها، وشاهدتهما وكأنهما ممثلان على المسرح وهي جالسة على كرسيها بين الجمهور.

قسمت قطعة من خبز البيغل بالسمسم إلى نصفين، وتناولت قضمة منها، ولكنها لم تكن تحبها سادة. كانت هناك عدة خيارات من الأطعمة أمامها على الطاولة، كمربى التوت الأزرق، ومرطبان من زبدة الفستق، وطبق من الزبدة، وقطعة من شيء ما يشبه الزبدة البيضاء، ولكنها لا تدعى زبدة بيضاء. ماذا تدعى يا ترى؟ ليست صلصة المايونيز. كلا، إنها سميكة كالزبدة. ما اسمها؟ أشارت بسكينها إليها.

وقالت: «جون، هل يمكنك أن تمرر لي هذا الطبق؟».

مرر لها جون الزبدة البيضاء، فوضعت طبقة سميكة منها على قطعتَي الخبز وحدقت إليها. كانت تعرف بالضبط كيف يبدو طعمها وتحبه، ولكنها لم تستطع أن تجبر نفسها على أن تتناول قضمة منها إلى أن تتمكن من معرفة اسمها. راقبت ليديا أمها وهي تتأمل الخبز.

ثم تطوعت قائلة: «هذا جبن كريمي يا أمي».

«صحيح، جبن كريمي. شكراً لك يا ليديا».

رن الهاتف، فدخل جون البيت ليرد عليه. كانت أول فكرة خطرت ببال أليس أنّ المتصلةَ أمُها، وأنّها تتصل لتعلمهم أنها ستتأخر في الوصول إلى هناك، فبدت لها الفكرة معقولة، بقدر توقعها عودة جون إلى الطاولة في غضون الدقائق القليلة التالية. صححت أليس هذه الفكرة الطائشة، ووبخت نفسها، وطلبت من تلك الفكرة التنحي جانباً. فوالدتها وشقيقتها توفيتا وهي طالبة بالسنة الأولى في الكلية. بدأ الأمر يثير جنونها؛ لأنه ظل يتوجب عليها أن تذكر نفسها بهذه الحقيقة.

عندما وجدت نفسها وحيدة مع ابنتها ولو للحظة على الأقل، استغلت الفرصة لتدلو بدلوها في الحديث.

«ما رأيك يا ليديا في أن تلتحقي بالكلية لنيل شهادة في المسرح؟».

«ألم تفهمي كلمة واحدة مما قلته للتو يا أمي؟ إنني لست بحاجة إلى شهادة».

«سمعت كل كلمة مما قلته وفهمتها، ولكنني أفكر على نطاق أوسع. إنني واثقة من أن هناك جوانب في مهنتك لم تستكشفيها بعد، وأشياء تودين أن تتعلميها، ربما الإخراج مثلاً. والفكرة هنا هي أن الشهادة تفتح أمامك أبواباً في حال احتجت إلى ذلك يوماً».

«وما هي هذه الأبواب؟».

«حسناً، على سبيل المثال، الشهادة ستمنحك المصداقية للتدريس إن أردت ذلك في حياتك».

«إنني أريد أن أصبح ممثلة وليس معلمة يا أمي. فتلك أنت وليست أنا».

«أدرك هذا يا ليديا، فقد وضّحته لي بشكل وافر تماماً، ولكنني لست بالضرورة أفكر في التدريس في الجامعة أو الكلية على أية حال؛ رغم أنه بوسعك ذلك، بل أفكر في أنه بوسعك أن تديري ورشات عمل كتلك التي تحضرينها وتحبينها».

«إنني آسفة يا أمي، ولكنني لن أهدر الكثير من طاقتي وأنا أفكر في ما يمكنني فعله في حال لم أثبت براعتي كممثلة بما فيه الكفاية. فأنا لا أريد أن أشكك بنفسي وقدراتي بهذه الطريقة».

«أنا لا أشك بقدرتك على أن تبني مهنة لنفسك كممثلة. ولكن، إن قررت يوماً ما أن تؤسسي عائلة وأردت أن تبطئي من سرعتك بعض الشيء وأن تبقي في العمل في الوقت ذاته، فالتدريس في ورشات العمل حتى من بيتك قد يكون عملاً مرناً وجميلاً لكي تحظي به. وبالإضافة إلى ذلك، ليس الأمر متعلقاً دائماً بما تعرفينه ولكن بمن تعرفينه. فهناك شبكات العلاقات التي من الممكن أن تنشئيها مع الزملاء والمدرسين والخريجين. إنني واثقة من أن هناك دائرة داخلية لا يمكنك ببساطة الوصول إليها من دون أن تحصلي على شهادة أو عمل تم إثبات نجاحه في المهنة».

توقفت أليس عن الكلام بانتظار اعتراض ليديا على كلامها، ولكنها لم تقل أي شيء.

«فكري في الأمر وحسب. فالحياة تزيدك انشغالاً بمرور الأيام. وكلما كبرت في السن، اكتشفت أن التكيف يصبح أمراً صعباً. لا مانع في أن تتحدثي إلى بعض الأشخاص في مجموعتك وتحصلي على رأيهم في ما ينطوي عليه الاستمرار في مهنة التمثيل وأنت تدخلين العقد الثالث أو الرابع من عمرك وأكبر من ذلك، اتفقنا؟».

«اتفقنا».

اتفقنا. كان ذلك أقرب شيء تمكنتا من التوصل إليه من الاتفاق على الموضوع. حاولت أليس أن تفكر في شيء ما تقوله، ولكنها لم تجد أي شيء. منذ وقت طويل الآن، لم تعودا تتحدثان سوى عن هذا الأمر. وامتدت فترة الصمت بينهما أكثر فأكثر.

«كيف يجعلك الأمر تشعرين يا أمي؟».

«ماذا تقصدين؟».

«الإصابة بالألزهايمر. هل تشعرين أنك مصابة به الآن؟».

«حسناً، أعرف أنني لا أرتبك أو أكرر كلامي الآن، ولكن قبل بضع دقائق، لم أستطع أن أعثر على عبارة «جبن كريمي»، وعانيت من وقت عصيب في المشاركة في المحادثة معك ومع والدك. أعرف أن المسألة مجرد مسألة وقت قبل أن تبدأ هذه الأشياء بالتكرر، وقبل أن تصبح الفترات الفاصلة بينها أقصر. وهكذا، حتى

عندما أشعر أنني طبيعية تماماً، فأنا أعرف أنني لست كذلك. لم ينته مرضي عند هذا الحد، بل هذه مجرد فترة استراحة، لذا أنا لا أثق بنفسي».

حالما انتهت من كلامها، خشيت من أن تكون قد اعترفت بالكثير، فهي لم تكن تريد أن تصيب ابنتها بالفزع. ولكنّ ليديا لم تجفل، بل ظلت مهتمة بالموضوع، فتنفست أليس الصعداء.

«هل تعرفين متى يحدث هذا؟».

«في معظم الوقت».

«ما الذي حدث عندما لم تستطيعي أن تتذكري اسم الجبن الكريمي؟».

«كنت أعرف ما أبحث عنه، ولكن دماغي ظل عاجزاً عن الوصول إليه. الأمر أشبه بأن تقرري أنك تريدين كأس الماء تلك ولكن يدك ترفض أن تمسك بها. فتطلبين منها بلطف، ثم تهددينها، ولكنها ترفض أن تتزحزح من مكانها. وقد تتمكنين في النهاية من أن تجبريها على الحركة، ولكنك تمسكين بالمملحة بدلاً من الكأس، أو توقعين الكأس وتسكبين الماء على الطاولة كلها، أو بحلول الوقت الذي تصل فيه يدك وتمسك بالكأس وتقربينها من شفتيك تختفي الحكة من حنجرتك، ولا تعودين تشعرين أنك بحاجة إلى شرب الماء. فالحاجة إليه قد زالت وانتهت».

«هذا يبدو لي تعذيباً يا أمي».

«إنه كذلك».

«إنني آسفة جداً لأنك تعانين هكذا».

«شكراً».

مدت ليديا يدها بين الصحون والكؤوس وسنوات من البعد، وأمسكت بيد أمها، فضغطت أليس عليها وابتسمت. وأخيراً، عثرتا على موضوع يمكنهما أن تتحدثا به.

استيقظت أليس ووجدت نفسها مستلقية على الأريكة. لقد بدأت تأخذ قيلولات كثيرة مؤخراً، ربما مرتين في اليوم. وبينما أفادتها الراحة إلى حد كبير من ناحية الانتباه والطاقة، إلّا أنها وجدت أن محاولة متابعة اليوم مزعجة. نظرت

إلى الساعة على الجدار. الرابعة وخمس عشرة دقيقة. لم تستطع أن تتذكر في أي وقت غفت. تذكرت أنها تناولت الغداء مع جون، وهو عبارة عن شطيرة من نوع ما، وحدث ذلك على الأرجح قرابة الظهر. شعرت بزاوية شيء ما تضغط على وركها، واكتشفت أنه الكتاب الذي كانت تقرأه. نعم، لا بد أنها استغرقت في النوم وهي تقرأ.

الساعة الرابعة وعشرون دقيقة. كانت تجربة أداء ليديا تستمر حتى الساعة السابعة، فجلست وأرهفت السمع. وسمعت صوت صياح طيور النورس، وتخيلت سباقها المحموم بحثاً عن طعامها المكون من كل فتات طعام تركه أولئك البشر المهملون المحروقون بالشمس. نهضت وانطلقت في بحثها الخاص عن جون، وهو بحث أقل اهتياجاً من بحث النوارس. تفقدت غرفة النوم والمكتب، وبحثت في المرأب، فلم تجد السيارة. وبينما هي على وشك أن تلعنه لأنه لم يترك لها رسالة، عثرت عليها تحت مغناطيس على باب الثلاجة.

آلي، لقد ذهبت في مشوار صغير ولن أتأخر، جون.

عاودت الجلوس على أريكتها وأمسكت كتابها، وهو رواية «عقل وعاطفة» للكاتبة جين أوستن، ولكنها لم تفتحه، ولم تشعر برغبة فعلية في قراءته الآن. إذ بعد أن وصلت إلى منتصف رواية «موبي ديك» أضاعتها، ولم تعد تعرف أين وضعتها. فقلبت وجون البيت رأساً على عقب من دون جدوى، لدرجة أنهما بحثا في كل الأماكن الغريبة التي لا يمكن سوى لشخص مصاب بالخرف أن يخبئ كتاباً فيها؛ مثل الثلاجة والمجمدة وحجرة المؤن وأدراج خزانتهما وخزانة البياضات، ولكنهما لم يتمكنا من العثور عليها. فكرت في أنها على الأرجح قد تركتها على الشاطئ، وتمنت أن تكون قد فعلت ذلك فعلاً، فهذا على الأقل شيء قد تفعله قبل أن تصاب بالألزهايمر.

عرض عليها جون أن يحضر لها نسخة أخرى، وربما ذهب إلى متجر بيع الكتب. تمنت أن يكون قد فعل ذلك؛ فإن انتظرت وقتاً أطول فستنسى كل ما قرأته، وسيتوجب عليها أن تعيد قراءة الكتاب منذ البداية. وسيضيع كل ذلك العمل سدى! جعلها مجرد التفكير في ذلك تشعر بالتعب مرة أخرى. في تلك الأثناء، بدأت بقراءة

رواية جين أوستن التي لطالما أعجبت برواياتها، ولكن هذه الرواية لم تستحوذ على اهتمامها حتى الآن.

تجولت في الطابق العلوي، ثم توجّهت نحو غرفة نوم ليديا. لطالما كانت معرفتها بليديا أقل من معرفتها بولديها الآخرين. على طاولة زينتها، وجدت خواتم فضية محلاة بحجارة الفيروز، وعقداً جلدياً، وعقداً آخر من الخرز الملون مفروطاً داخل علبة كرتونية مفتوحة. وبجانب العلبة، وجدت كومة من مشابك الشعر وصينية لحرق البخور. لا بد أن ليديا تميل إلى عيش حياة الهيبيين بعض الشيء.

وجدت ملابسها ملقاة على أنحاء الأرض كافة؛ بعضها مطوي وأكثرها مبعثر، لذا لم يتبقَّ الكثير من الملابس في أدراج الخزانة. ولاحظت أن سريرها غير مرتب، فاستنتجت أن ليديا تميل إلى الفوضوية في حياتها.

أما رفوف المكتبة، فقد امتلأت كلها بكتب الشعر والمسرحيات: «الأم الليلية»، و«العشاء مع الأصدقاء»، و«الاختبار»، و«التوازن الرقيق»، و«أولينا»... فقد كانت ليديا ممثلة.

أمسكت بعض المسرحيات وراحت تقلب صفحاتها. وكانت كل واحدة منها تتألف من ثمانين إلى تسعين صفحة فقط، وبعض الصفحات بالكاد مليئة بسطور النص. ففكرت في أنه ربما يكون من الأسهل والأكثر إرضاء لها أن تقرأ المسرحيات. وخطر ببالها أن هذا سيشكل مادة للحديث بينها وبين ليديا، فوقع اختيارها على مسرحية «الدليل».

وقع نظرها على دفتر يوميات ليديا، وجهاز آيبود، وكتاب سانفورد مايسنر في فن التمثيل، وصورة محاطة بإطار على طاولتها الليلية. أمسكت أليس دفتر اليوميات، وترددت قبل أن تفتحه، ولكن قليلاً فقط. فلم يكن لديها متسع من الوقت. جلست على السرير، وقرأت صفحة تلو الأخرى من أحلام ابنتها واعترافاتها، كما قرأت عن عقبات وانفراجات في مهنة التمثيل، وعن مخاوف وآمال حول تجارب الأداء، وخيبات أمل وأفراح في ما يتعلق بالتمثيل. وقرأت عن شغف شابة ومثابرتها.

وقرأت عن مالكوم. فبينما هما يمثلان مشهداً دراماتيكياً معاً في الصف، وقعت ليديا في حبه، ولكنهما تركا بعضهما بعضاً. فشعرت أليس بالراحة لأن

ابنتها لم تكن جاهزة بعد للزواج وإنجاب الأطفال. وأرادت لها أن تجد طريقها في الحياة قبل كل شيء.

تفحصت أليس الصورة؛ صورة ليديا مع مالكوم. فبدا وجهاهما المبتسمان متلامسين، والسعادة بادية عليهما. تأملت المرأة والرجل في الصورة. لقد أصبحت ليديا امرأة.

ناداها جون من الأسفل: «هل أنت هناك يا آلي؟».

«إنني هنا في الطابق العلوي».

أعادت دفتر اليوميات والصورة إلى مكانيهما، وتسللت إلى الطابق السفلي.

سألت أليس: «أين ذهبت؟».

«ذهبت لقيادة السيارة في الأنحاء».

كان يمسك كيسين، كل واحد بيد.

«هل اشتريت لي نسخة جديدة من رواية «موبي ديك»؟».

«نوعاً ما».

أعطى أليس أحد الكيسين، فوجدته مليئاً بأقراص ليزرية: «موبي ديك» من بطولة غريغوري بيك، و«الملك لير» من بطولة لورنس أوليفيه، و«كازابلانكا»، و«صوت الموسيقى» فيلمها المفضل دائماً وأبداً.

«خطر لي أنك ستجدين هذه الأفلام أسهل بكثير من القراءة. ويمكننا أن نشاهدها معاً».

ابتسمت وقالت: «ماذا يوجد في الكيس الثاني؟».

شعرت أنها مبتهجة كطفل صغير في صباح الكريسمس. فأخرج لها من الكيس مغلفاً من البوشار الذي يُعَدّ في المايكروويف وعلبة من الحلوى.

سألته: «هل يمكننا أن نشاهد صوت الموسيقى أولاً؟».

«بكل تأكيد».

أحاطته بذراعيها، وقالت: «أحبك يا جون».

«وأنا أيضاً أحبك يا آلي».

ضغطت بوجهها على صدره، وتنشقت رائحته. أرادت أن تقول له المزيد

عما يعنيه لها، ولكنها لم تستطع أن تعثر على الكلمات. ضمها بقوة أكبر، فقد كان يعرف كل ما تريد قوله. وظلا واقفين هكذا في المطبخ في أحضان بعضهما بعضاً من دون أن يتفوّها بكلمة لوقت طويل.

قال جون: «حسناً، خذي البوشار وضعيه في المايكروويف بينما أضع أنا الفيلم. وسنلتقي عند الأريكة».

«حسناً».

ذهبت إلى المايكروويف وفتحت الباب، ثم انفجرت ضاحكة فجأة. فقد كان لا بد لها من أن تضحك.

«لقد عثرت على «موبي ديك»!».

ذات صباح، أمضت أليس بضع ساعات وحدها. وفي فترة عزلة الصباح المبكرة تلك، شربت فنجاناً من الشاي الأخضر، وقرأت بضع صفحات، ومارست بعض تمارين اليوغا على المرج في الخارج. وبينما هي في وضعية الكلب المنحدر، ملأت رئتيها بهواء المحيط الصباحي النقي، واسترسلت في الإحساس بالتمدد الممتع الغريب وشبه المؤلم لعضلات ساقيها. ومن زاوية عينها، تأملت عضلات ذراعيها المنهمكة في الحفاظ على ثبات جسدها بتلك الوضعية. فبدت جميلة وصلبة ومنحوتة بشكل رائع.

شعرت أنها في أفضل حالة جسدية وصلت إليها في حياتها. فالغذاء الجيد والتمرين اليومي تنتج عنهما قوة في عضلاتها، ومرونة في مفاصلها وساقيها، وسهولة في التنفس خلال الجري لأربعة أميال. ولكنها لم تنسَ بالطبع عقلها غير المطيع وعديم التجاوب والمائل إلى الضعف.

كانت تتعاطى عقار آريسبت، وناميندا، وحبة أميليكس التجريبية الغامضة، وعقار ليبيتور، والفيتامينين سي وإي، وأسبرين الأطفال. واعتادت أن تتناول مضادات أكسدة إضافية على شكل حبات التوت الأزرق، والشوكولاتة الداكنة، والشاي الأخضر. وجربت تناول عشبة الجينكو بايلوبا. ومارست التأمل، ونظفت أسنانها بيدها اليسرى غير المسيطرة. وعودت نفسها على الخلود إلى النوم بمجرد

أن تشعر بالتعب، ولكنّ أياً من هذه الجهود لم يبدُ أنه يضيف أي نتائج واضحة يمكنها أن تعول عليها. ربما كانت قدراتها الإدراكية ستسوء أكثر وبشكل ملحوظ لو أنها أغفلت التمرين والعقار والتوت الأزرق. وربما لو لم تقاومه، لأصبح مرضها مسعوراً. وفي الوقت نفسه، ربما لم تُحدث كل هذه الأشياء أي تأثير. لم يكن بوسعها أن تعرف ذلك ما لم تتخلَّ عن أدويتها، وتتوقف عن تناول الشوكولاتة، وتجلس بلا حراك طوال اليوم. ولكنها أيقنت أن هذه تجربة ليست على استعداد للمجازفة بخوضها.

انتقلت إلى وضعية المحارب، فأخذت نفساً، وهبطت إلى مستوى تمرين الاندفاع إلى الأمام متقبلةً الشعور بعدم الراحة والتحدي الإضافي الذي يفرضه على تركيزها وطاقتها، ومصممةً على الحفاظ على وضعيتها. فقد صمّمت على أن تبقى محاربة حتى النهاية.

خرج جون من المطبخ وشعره مشعث ومظهره مشوش، ولكنه مرتدٍ ملابس الركض.

سألت أليس: «هل تريد تناول القهوة أولاً؟».

«كلا، دعينا نذهب أولاً. سأتناولها عندما نعود».

كانا يركضان مسافة ميلين كل صباح على طول شارع مين ستريت إلى مركز المدينة ثم يعودان عبر الطريق نفسه. لاحظت أن جسم جون قد ازداد نحولاً ورشاقة بشكل ملحوظ، وبات بوسعه أن يجري تلك المسافة بكل سهولة الآن، ولكنه لا يستمتع بأي ثانية من هذه المهمة. ورغم أنه يذهب معها للجري بإذعان ومن دون أي تذمر، إلّا أنه فعل ذلك بالحماسة والإثارة نفسيهما اللتين يشعر بهما عندما يدفع الفواتير أو يقوم بغسيل الملابس؛ وهذا ما جعلها تحبه كثيراً.

آثرت أن تركض خلفه تاركةً له حرية تحديد السرعة، ومشاهدةً إياه، ومصغيةً إليه وكأنه آلة موسيقية مذهلة، ومتأملةً حركة مرفقيه المتأرجحين كالنواس، ومستمعةً إلى صوت أنفاسه الإيقاعي ونقر حذائه الرياضي على الرصيف الرملي. وإن بصق، انفجرت ضاحكة، فلم يسألها عن السبب.

وبينما هما في طريقهما للعودة، أسرعت قليلاً لتجري بجانبه. وفي نزوة

عاطفية انتابتها، كادت تقول له إنه لا يجب عليه أن يجري معها بعد الآن إن لم يكن يحب ذلك، وإن بوسعها أن تتولى أمر هذا الطريق بنفسها. وعندئذ، انعطف نحو اليمين فتبعته إلى طريق ميلك رود ثم اتجها معاً نحو البيت، ولكنها كانت ستنعطف نحو اليسار لو أنها بمفردها. وهكذا، إن مرض الألزهايمر لا يحب أن يتجاهله أحد.

عندما وصلا إلى البيت، شكرته وقبلته على وجنته المتعرقة، ثم ذهبت مباشرة قبل أن تستحم إلى ليديا، حيث وجدتها لا تزال مرتدية بيجامتها وهي تشرب قهوتها على الشرفة. كل صباح، كانت تتناقش مع ليديا في أي مسرحية تقرأها وهما تتناولان وجبة الحبوب مع التوت الأزرق، أو خبز البيغل بالسمسم مع الجبن الكريمي والقهوة أو الشاي. برهن حدس أليس عن أنه في محله. فقد استمتعت بقراءة المسرحيات في نهاية المطاف أكثر من قراءة الروايات أو السير الذاتية. واكتشفت أن حديثها عمّا قرأته للتو مع ليديا سواء أكان مشهداً أم فصلاً أم المسرحية برمتها طريقة مبهجة وقوية لتقوية ذاكرتها عنها. وأثناء تحليل المشاهد والشخصيات والحبكة مع ليديا، لاحظت أليس عمق تفكير ابنتها، وفهمها الغني للحاجة البشرية والعاطفة والصراع. فقد رأت ليديا على حقيقتها، وهذا ما جعلها تزداد حباً لها.

واليوم، ناقشتا مشهداً من إحدى المسرحيات، فتبادلتا أسئلة وأجوبة متلهفة في ما بينهما، وأتت محادثتهما ممتعة للغاية. ولأن أليس لم تعد بحاجة إلى التنافس مع جون لتكمل أفكارها، استطاعت أن تأخذ وقتها من دون أن تتأخر وتتخلف عنه.

سألتها أليس: «كيف كان شعورك وأنت تمثلين هذا المشهد مع مالكوم؟».

حدقت إليها ليديا وكأن السؤال قد نسف دماغها.

«ماذا؟!».

«ألم تمثلي هذا المشهد مع مالكوم في الصف؟».

«هل قرأت يومياتي؟».

شعرت أليس بقلبها ينقبض، فقد ظنت أن ليديا قد أخبرتها عن مالكوم.

«إنني آسفة يا حبيبتي...».

«لا أصدق أنك فعلت ما فعلته! ليس لديك الحق في ذلك».

دفعت ليديا كرسيها إلى الخلف، وخرجت غاضبة وتاركة أليس وحدها جالسة إلى الطاولة وهي تبدو مذهولة ومضطربة. وبعد بضع دقائق، سمعت أليس صوت الباب الأمامي وهو ينغلق بعنف.

قال جون: «لا تقلقي. ستهدأ بعد قليل».

طوال فترة الصباح، حاولت أن تفعل أي شيء يلهيها عن التفكير؛ فأخذت تنظف وتعتني بالحديقة وتقرأ، ولكنّ كل ما نجحت في فعله هو القلق. فقد قلقت من أن تكون قد خسرت للتو احترام ابنتها وثقتها بها وحبها لها؛ ابنتها التي بدأت للتو فقط تتعرف إليها.

بعد الغداء، مشت أليس مع جون إلى شاطئ هاردينغز، فسبحت إلى أن أنهك التعب جسدها، ولم تعد تشعر بأي شيء. شعرت بالانقباض والخواء في داخلها يختفيان، فعادت إلى كرسي الشاطئ، وتمددت وعيناها مغمضتان، واستغرقت في التأمل.

كانت قد قرأت أن التأمل المنتظم يمكنه أن يزيد من سماكة القشرة الدماغية ويبطئ من عملية ترققها المرتبطة بالتقدم بالسن. وكانت ليديا تتأمل من قبل كل يوم. وعندما أبدت أليس اهتمامها بذلك، علمتها إياه. وسواء أكان ذلك يفيد في حفظ سماكة قشرتها الدماغية أم لا، فقد أحبت أليس الوقت الذي قضته في التركيز، ومفعوله في التخلص من الضجة المزعجة والقلق في رأسها ومنحها صفاء الذهن وراحة البال.

بعد حوالي عشرين دقيقة، شعرت أنها بحالة أكثر يقظة واسترخاء ونشاطاً وحرارة، فعادت إلى المحيط لتغوص بشكل سريع هذه المرة، وتستبدل العرق والحرارة بالملح والبرودة. وعندما عادت إلى كرسيها، سمعت امرأة جالسة على كرسي بجانبها وهي تتحدث عن المسرحية الرائعة التي شاهدتها للتو في مسرح مونومي، فعاد الشعور بالانقباض ليكتسحها مرة أخرى.

في تلك الأمسية، قام جون بشي البرغر بالجبن، وأعدت أليس طبق سلطة. ولم تعد ليديا إلى البيت لتناول العشاء.

قال جون: «إنني واثق من أنها تأخرت في تجربة الأداء».

«إنها تكرهني الآن».
«لا تكرهك».
بعد العشاء، تناولت أليس كأسين من الشراب، بينما شرب جون ثلاث كؤوس من شرابه المفضل مع الثلج. ومع ذلك، لم تظهر ليديا. وبعد أن أضافت أليس جرعتها المسائية من الحبوب إلى معدتها المضطربة، جلسا معاً على الأريكة وبحوزتهما زبدية ملأى بالبوشار والحلوى، وشاهدا فيلم «الملك لير».
أيقظها جون من نومها على الأريكة، فوجدت التلفزيون مطفأ والبيت مظلماً. لا بد أنها استغرقت في النوم قبل أن ينتهي الفيلم، ولكنها لم تكن لتتذكر النهاية على أية حال، فاصطحبها جون إلى الدرج لتصعد إلى غرفة نومهما.
وقفت في جانبها من السرير ويدها على فمها غير مصدقة، والدموع تترقرق في عينيها، والقلق يتلاشى من جسدها وعقلها؛ فقد رأت دفتر يوميات ليديا موضوعاً على وسادتها.

قال توم وهو يدخل: «إنني آسف على تأخري».
قالت آنا: «حسناً، أصغوا إليّ جميعاً بما أن توم قد وصل. لدينا أنا وتشارلي أخبار لنطلعكم عليها. إنني حامل بالأسبوع الخامس، ومعي توأم!».
تبادل الجميع القبلات والعناق والتهاني، ثم الكثير من الأسئلة والأجوبة والمقاطعات، ثم المزيد من الأسئلة والأجوبة. ورغم تراجع قدرتها على متابعة ما يقال في المحادثات المعقدة بوجود الكثير من المشاركين، ارتفعت حساسية أليس لما يقال وللغة الجسد وللأحاسيس غير المنطوقة. قبل بضعة أسابيع، شرحت هذه الظاهرة لليديا، فقالت لها إنها موهبة تحسد عليها لو أنها تعمل كممثلة. وقالت لها إن الممثلين يجب عليهم التركيز لأقصى درجة لفصل أنفسهم عن اللغة اللفظية في محاولة للتأثر بشكل صادق بما يقوم به الممثلون الآخرون ويشعرون به. لم تفهم أليس الفرق الدقيق بين الأمرين، ولكنها أحبت ليديا لأنها اعتبرت إعاقتها مهارة تستحق أن تحسد عليها.
كان جون سعيداً ومبتهجاً، ولكن أليس لاحظت أنه أظهر جزءاً بسيطاً فقط

من سعادته وبهجته التي شعر بها في الحقيقة؛ ربما في محاولة منه على الأرجح لكي يحترم تحذير آنا من أن الوقت لا يزال مبكراً. وحتى من دون تحذير آنا، فقد ظل ميالاً للشك كمعظم علماء الأحياء، ولم يستطع أن يعول كثيراً على ذينك الفرخين الصغيرين قبل أن يفقسا، ولكنه في الواقع لم يكن يطيق الانتظار؛ فقد أراد أن يرى حفيديه.

أما تشارلي، فوراء سعادته وبهجته الظاهرتين عليه، استطاعت أليس أن ترى طبقة سميكة من التوتر تغطي طبقة أخرى من الرعب أكثر سماكة من سابقتها. ولاحظت أنهما ظاهرتان بشكل واضح، ولكن آنا بدت غافلة عن الأمر، بينما لم يعلق أي شخص آخر على ذلك. ترى، هل ما رأته مجرد قلق عادي يصيب أي رجل ينتظر أن يصبح أباً عمّا قريب؟ هل أصابه التوتر من مسؤولية إطعام طفلين في الوقت نفسه، ودفع أقساط التعليم الجامعي لهما في آن معاً؟ هذا قد يفسر الطبقة الأولى، ولكنْ هل انتابه الرعب أيضاً من فكرة وجود ولديه في الجامعة وزوجته مصابة بالألزهايمر؟

وقف كل من ليديا وتوم جانب بعضهما بعضاً، وهما يتحدثان إلى آنا. كان أولادها في غاية الجمال، ولكنهم لم يعودوا أطفالاً بعد الآن. فقد بدت ليديا متألقة وهي تستمتع بالخبر السعيد، بالإضافة إلى بهجتها العارمة لأن عائلتها برمتها أتت لتراها وهي تمثل دورها في المسرحية.

أما توم، فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صادقة، ولكنّ أليس لاحظت قلقاً خفيفاً لديه. فعيناه وخداه بدت منكسرة بعض الشيء، وجسده أكثر نحافة. أهي الكلية؟ أم صديقة جديدة؟ رآها وهي تتفحصه.

فسألها: «كيف تشعرين يا أمي؟».

«جيدة بشكل عام».

«حقاً؟».

«نعم، بكل صدق. إنني أشعر أنني بحال رائعة».

«تبدين هادئة جداً».

فقالت ليديا: «لأن هناك عدداً كبيراً من الناس يتحدثون بسرعة كبيرة في

الوقت نفسه».

تلاشت ابتسامة توم، وبدا على وشك البكاء. شعرت أليس بجهاز البلاكبيري في حقيبتها الزرقاء يهتز أمام وركها منبهاً إياها إلى وقت جرعتها المسائية من الحبوب، فقررت أن تنتظر بضع دقائق لأنها لم ترغب في أن تتناولها الآن أمام توم.

سألت أليس وجهاز البلاكبيري بيدها: «متى يحين موعد أدائك غداً يا ليديا؟».

«عند الساعة الثامنة».

فقال توم: «ليس عليك أن تضعي ملاحظة تتعلق بذلك؛ فنحن جميعاً هنا. ومن غير المعقول أن ننسى أن نصطحبك معنا».

سألت آنا: «ما اسم المسرحية التي سنشاهدها؟».

قالت ليديا: «مسرحية الاختبار».

سأل توم قائلاً: «هل تشعرين بالتوتر؟».

«قليلاً، لأنها ليلة الافتتاح، ولأنكم ستكونون جميعاً هناك. ولكنني سأنسى وجودكم حالما أعتلي خشبة المسرح».

سألت أليس: «متى موعد مسرحيتك يا ليديا؟».

قال توم: «لقد سألتها للتو يا أمي. لا تقلقي بشأن هذا».

قالت ليديا: «عند الساعة الثامنة يا أمي. أنت لا تساعدها يا توم».

«كلا، أنت التي لا تساعدينها. لماذا يتبغي لها أن تتذكر شيئاً لا يجب عليها أن تتذكره؟».

قالت ليديا: «لن تقلق حيال الأمر إن سجلته على الجهاز، لذا دعها تفعل ذلك وحسب».

فقالت آنا: «حسناً، لا ينبغي لها أن تعتمد على الجهاز على أية حا،ل بل ينبغي أن تمرّن ذاكرتها كلما استطاعت ذلك».

فسألت ليديا: «إذاً، ماذا تفعل؟ أينبغي لها أن تحفظ وقت مسرحيتي أم أن تعتمد بشكل كلي علينا؟».

أجابت آنا: «ينبغي لك أن تشجعيها على التركيز وإبداء الانتباه بشكل فعلي. وينبغي لها أن تتذكر المعلومات بنفسها وليس أن تصبح كسولة».

فقالت ليديا: «إنها ليست كسولة».

قالت آنا: «أنت وذلك الجهاز تساعدانها على ذلك. انظري يا أمي. متى موعد مسرحية ليديا غداً؟».

قالت أليس: «لا أعرف. ولهذا السبب سألتها».

«لقد قالت لك الجواب مرتين يا أمي. أيمكنك أن تحاولي تذكر ما قالته؟».

قال توم: «توقفي عن اختبارها يا آنا».

«كنت على وشك أن أدوّنه على جهاز البلاكبيري، ولكنكم قاطعتموني».

«لا أطلب منك أن تريه في الجهاز، بل أطلب منك أن تتذكري ما قالته».

«حسناً، لم أحاول أن أتذكره لأنني أردت أن أدوّنه».

«فكري للحظة يا أمي. متى موعد مسرحية ليديا غداً؟».

لم تعرف أليس الجواب، ولكنها أدركت أن آنا المسكينة بحاجة إلى من يوقفها عند حدها.

سألت أليس: «متى يحين موعد مسرحيتك غداً يا ليديا؟».

«الساعة الثامنة».

«الساعة الثامنة يا آنا».

قبل أن تحين الساعة الثامنة بخمس دقائق، استقروا جميعاً على مقاعدهم في الصف الثاني. وكان مسرح مونومي مسرحاً حميماً لا يحوي أكثر من مئة مقعد للمتفرجين، وخشبة مسرح لا تبعد عن مقاعد الصف الأول أكثر من بضع أقدام.

لم تعد أليس تطيق الانتظار إلى أن تطفأ الأضواء. فقد قرأت هذه المسرحية، وتحدثت عنها بشكل موسع مع ليديا، حتى إنها ساعدتها في التجارب. وكانت ليديا ستلعب دور كاثرين، ابنة الرياضي العبقري الذي وصلت به عبقريته إلى حد الجنون. لم تستطع أليس أن تنتظر لترى الشخصيات وهي تظهر إلى الحياة أمام عينيها.

بدءاً من المشهد الأول، وجدت التمثيل دقيقاً وصادقاً ومتعدد الأبعاد، فأصبحت مستغرقة بسهولة وبشكل كامل في العالم الخيالي الذي جسده الممثلون

أمام عينيها. ادعت كاثرين أنها وضعت اختباراً رياضياً هائلاً، ولكن ذلك لم يستحوذ على اهتمام حبيبها أو أختها البعيدة، ولم يصدقاها، حتى إنهما شككا كلاهما بتوازنها العقلي. فعذبت نفسها بسبب خوفها من أنها ربما فقدت عقلها كوالدها العبقري. شعرت أليس بألمها وخوفها وشعورها بالخيانة، ووجدتها ساحرة وتأخذ بالألباب منذ البداية وحتى النهاية.

بعد ذلك، خرج الممثلون إلى الجمهور، وبدت كاثرين متألقة. فأعطاها جون زهوراً، وعانقها عناقاً حاراً.

قال جون: «لقد كنت مدهشة ورائعة للغاية!».

«شكراً جزيلاً لك. أليست مسرحية رائعة!».

عانقها الآخرون، وقبلوها، وأثنوا عليها على حد سواء.

قالت أليس: «كنت متألقة. ومن الجميل مشاهدتك وأنت تمثلين».

«شكراً لك».

سألت أليس: «هل سنراك في أعمال أخرى خلال الصيف؟».

رمقت ليديا أليس بنظرة طويلة غير مريحة قبل أن تجيب.

«كلا، هذا عملي الوحيد خلال الصيف».

«هل ستمكثين هنا لموسم الصيف فقط؟».

بدا أن السؤال جعلها حزينة وهي تفكر فيه، فامتلأت عيناها بالدموع.

«كلا، سأعاود الانتقال إلى لوس أنجلوس في آخر شهر آب، ولكنني سأعود مرات أخرى كثيرة لأزور عائلتي».

قالت آنا: «هذه ابنتك ليديا يا أمي».

تعتمد صحة العصبون على قدرته على التواصل مع العصبونات الأخـرى. وقد أظهرت الدراسات أن التحفيز الكهربائي والكيميائي من كل من مُدخلات العصبون وأهدافه تدعم العمليات الخلوية الأساسية. والعصبونات التي تصبح غير قادرة على التواصل بشكل فعال مع العصبونات الأخرى تصاب بالضمور. وهكذا، فالعصبونات المهملة تصبح عديمة الفائدة إلى أن تموت في نهاية المطاف.

أيلول 2004

رغم أن فصل الخريف قد حل بشكل رسمي في جامعة هارفرد، إلّا أن الطقس ظل متشبثاً بعناد بالقوانين التابعة للتقويم الروماني. فقد كانت درجة الحرارة لا تزال ترقى إلى ثلاثين درجة مئوية في صباح ذلك اليوم عندما انطلقت أليس في طريقها إلى حرم جامعة هارفرد. في الأيام التي تسبق امتحان القبول في كل عام، لطالما تعجبت لدى رؤيتها طلاب السنة الأولى القادمين من أماكن أخرى غير نيو إنجلند. فالخريف في كامبريدج يثير في المخيلة صوراً عن أوراق الشجر المتساقطة، وقطاف التفاح، ومباريات كرة القدم، والكنزات، واللفحات الصوفية. ورغم أنه ليس من غير المعتاد الاستيقاظ في صباح يوم من أيام آخر أيلول في كامبريدج لتجد الصقيع على اليقطين، إلّا أن الأيام التي تأتي في أول شهر أيلول بشكل خاص تكون مليئة بأصوات مكيفات الهواء التي تئز بلا كلل أو توقف. ومع ذلك، في كل سنة هناك أولئك الطلاب الذين تم نقلهم حديثاً وهم يتحركون بارتباك السياح في غير موسمهم على طول أرصفة ساحة هارفرد، بينما يثقل عليهم عبء الكثير من الصوف وزيادة أحجام أكياس التسوق المليئة بكمية لا لزوم لها من القرطاسية والكنزات القطنية التي تحمل علامة هارفرد. يا لأولئك المخلوقات المساكين!

ورغم أنها لم ترتد أكثر من قميص قطني بلا كمين فوق تنورتها السوداء القطنية التي تصل إلى كاحليها، فقد شعرت أن جسمها أصبح رطباً بشكل غير مريح عندما وصلت إلى مكتب إريك ويلمان. كان مكتبه يقع فوق مكتبها بالضبط، وهو بالمساحة نفسها، ويحتوي على الأثاث نفسه، ويطل على منظر نهر تشارلز وبوسطن نفسه. ولكنّ مكتبه بدا نوعاً ما مثيراً للإعجاب أكثر من مكتبها. وفي كل مرة تدخل فيها مكتبه، كان يراودها شعور بأنها عادت طالبة جامعية. وكان هذا الشعور حاضراً بشكل خاص اليوم عندما تم استدعاؤها من قبله ليتبادل معها حديثاً وجيزاً.

سألها إريك: «كيف أمضيت عطلة الصيف؟».

«كانت عطلة مريحة للأعصاب. ماذا عن عطلتك؟».

«جيدة، مضت بسرعة كبيرة. لقد افتقدنا رؤيتك في المؤتمر في شهر حزيران».

«أعرف ذلك. وأنا افتقدت التواجد هناك أيضاً».

«حسناً، يا أليس. أريد التحدث إليك عن تقييم تدريسك لمنهجك من الفصل الماضي قبل أن تبدأ الدروس مجدداً».

«آه، لم تتسنَّ لي الفرصة للنظر إليه بعد».

كانت هناك كومة من التقييمات حول منهج التحفيز والعاطفة موجودة في مكان ما على مكتبها من دون أن تفتحها. وكان تقييم طلاب هارفرد يظل مجهول المصدر، ولا يراه سوى مدرس المادة ورئيس القسم. وفي الماضي، اعتادت أن تقرأه من باب الاعتزاز بالنفس لا أكثر؛ لأنها تدرك أنها مدرسة ممتازة، وأن تقييمات طلابها لن تأتي إلا بالاستحسان والموافقة، ولكن إريك لم يطلب منها قط أن تراجعها معه. فخشيت للمرة الأولى في مهنتها من أنها لن تعجب بصورة نفسها التي رأتها فيها.

«تفضلي. خذي بضع دقائق وانظري إليها الآن».

وسلمها نسخة من التقييم، وفي أعلاها صفحة تحتوي على ملخص لكل محتوياتها.

على مقياس من واحد؛ ويعني أعارض بشدة، إلى خمسة؛ ويعني أوافق بشدة: ساعدت المدرسة الطلاب في الوصول إلى مستوى عالٍ من الأداء.

فقيّم كل الطلاب أداءها بأربعة وخمسة.

عززت اجتماعات الصف على فهم المنهج: أربعة وثلاثة واثنان.

ساعدتنا المدرسة على استيعاب المفاهيم الصعبة والأفكار المعقدة: مرة أخرى، أربعة وثلاثة واثنان.

شجعتنا المدرسة على طرح الأسئلة ووضع وجهات النظر المختلفة بعين الاعتبار: فأعطاها طالبان تقييماً درجته واحد.

على مقياس من واحد إلى خمسة، أعطِ تقييماً إجمالياً للمدرسة.

معظم الطلاب قيموها بدرجة ثلاثة. وإن لم تخنها ذاكرتها، فهي لم تتلقَّ تقييماً أقل من أربعة في هذه الفئة.

كانت صفحة الملخص برمتها تعج بتقييمات تتراوح بين الواحد والثلاثة، فلم تحاول أن تقنع نفسها بأنها تمثل أي شيء سوى الحكم الدقيق والمتبصر الصادر من طلبتها بدون أي حقد. فقد تأثر أداؤها التدريسي بشكل ظاهري أكثر مما أدركت. ومع ذلك، ظلت على استعداد للمراهنة بكل شيء على أنها بعيدة كل البعد عن احتلال مرتبة المدرسة الأسوأ تقييماً في القسم. فربما تدهور أداؤها بشكل سريع، ولكنه لم يصل إلى حد القاع بعد.

رفعت نظرها إلى إريك مستعدة لمواجهة الموسيقى التي سيعزفها لها، ربما ليست نغمتها المفضلة، ولكنها على الأرجح لن تكون بغيضة بشكل كلي.

«لو لم أرَ اسمك على هذا الملخص لما استوقفني الأمر. إنه تقييم محترم، ولكنه ليس من النوع الذي اعتدت أن أراه منك، وهو مع ذلك ليس مريعاً. إن التعليقات المكتوبة هي ما يثير القلق بشكل خاص، لذا ظننت أنه يمكننا أن نناقش الموضوع معاً».

لم تتجاوز أليس صفحة الملخص، فأشار إلى ملاحظاته وقرأها بصوت مرتفع.

«إنها تتجاوز أقساماً ضخمة من المنهج، لذا نتجاوزها بدورنا، ولكنها تتوقع منا أن نعرفها في الامتحان».

«لا يبدو عليها أنها تعرف المعلومات التي تدرسها».

«إن المحاضرة مضيعة للوقت. كان بوسعي أن أقوم بمجرد قراءة الكتاب».

«عانيت من وقت عصيب في متابعة محاضراتها. فهي تتوه في وسطها. إن هذا المنهج ليس جيداً على الإطلاق بقدر المنهج التقديمي».

«ذات مرة، حضرت إلى القاعة ولم تدرس أي كلمة، بل قامت بمجرد الجلوس لبضع دقائق، ثم غادرت. وفي وقت آخر، قامت بتدريس المحاضرة نفسها التي درّستها في الأسبوع الفائت. لم يخطر ببالي قط أن أضيع وقت الدكتورة

هولاند، ولكنني لا أظن أنه ينبغي لها أن تضيع وقتي على حد سواء».

كان وقع ذلك الكلام قاسياً عليها أكثر بكثير مما ظنت.

«نحن نعرف بعضنا بعضاً منذ وقت طويل يا أليس، أليس كذلك؟».

«نعم».

«هل سيجعلني سؤالي فظاً ومتدخلاً بأمورك الشخصية؟ هل كل شيء على ما يرام في البيت؟».

«نعم».

«ماذا عنك إذاً؟ هل هناك احتمال بأن تكوني متوترة أو مكتئبة؟».

«كلا، ليس الأمر كذلك».

«هذا محرج بعض الشيء، ولكن يتوجب عليّ أن أسألك عنه. هل تظنين أنك تعانين من مشكلة في تناول الشراب أو المخدرات مثلاً؟».

الآن، سمعت ما يكفي. **لا يمكنني أن أعيش بسمعة مدمنة مصابة بالاكتئاب والتوتر. فالإصابة بالألزهايمر تحمل وصمة عار أقل فظاعة من ذلك.**

«إريك، إنني أعاني من مرض الألزهايمر».

فجأة، اختفى كل تعبير من وجهه. فقد هيّأ نفسه لسماع شيء عن خيانة جون؛ حتى إنه استعد لكي ينصحها باسم طبيب نفسي جيد يعرفه، وأن يساعدها في الدخول إلى مستشفى ماكلين لتتعالج، ولكنه لم يكن مستعداً لما سمعه الآن على الإطلاق.

«لقد تم تشخيص مرضي في شهر كانون الثاني. وعانيت من وقت عصيب في التدريس خلال الفصل الماضي، ولكنني لم أدرك أن الأعراض ظهرت عليّ إلى هذا الحد».

«إنني آسف، يا أليس».

«وأنا أيضاً».

«لم أتوقع هذا».

«ولا أنا».

«توقعت شيئاً مؤقتاً باستطاعتك أن تتجاوزيه وتتخلصي منه، ولكننا لا ننظر

الآن إلى مجرد مشكلة عابرة».

«كلا، ليست كذلك».

تأملته أليس وهو مستغرق في التفكير. لطالما اعتبرته بمثابة الوالد لجميع من في القسم. فهو يحميهم ويتعامل معهم بكرم، ولكن طبعه كان براغماتياً وصارماً.

«إن أولياء الأمور يدفعون أربعين ألف دولار في العام الآن، لذا لن يعتبروا هذا خبراً جيداً».

كلا، بالتأكيد لا. فهم لا يدفعون مبالغ طائلة من الدولارات ليجعلوا أبناءهم وبناتهم يدرسون عند أستاذة تعاني من الألزهايمر. كان بوسعها منذ الآن أن تسمع صوت الاحتجاجات عليها وعلى فضيحتها في أخبار المساء.

«بالإضافة إلى ذلك، هناك بضعة طلاب من صفك يعترضون على درجات امتحانهم. يؤسفني القول إن هذه المشكلة لن تزداد إلا تفاقماً».

طيلة خمس وعشرين سنة قامت بالتدريس فيها، لم يعترض أحد على درجة أعطته إياها، ولا حتى طالب واحد.

«أظن أنه ينبغي لك أن تتوقفي عن التدريس بشكل نهائي. ولكنني أريد أن أحترم الجدول الذي وضعته لنفسك. هل لديك خطة محددة؟».

«كنت آمل أن أبقى هذا العام ثم آخذ إجازتي السنوية. ولكنني لم أقدّر الدرجة التي وصلت إليها أعراض مرضي، وأنها باتت واضحة لدرجة أنها تسيء إلى محاضراتي. لا أريد أن أكون مدرسة سيئة يا إريك. فهذه ليست طبيعتي».

«أعرف أنك لست كذلك. ماذا عن إجازة طبية تمتد حتى إجازتك السنوية؟».

وهكذا، من الواضح أنه يريد منها أن تتنازل عن وظيفتها الآن. فقد أدت عملاً يُقتدى به، وأثبتت نفسها بكل جدارة، وصنعت تاريخاً لنفسها، والأهم من ذلك أنها حصلت على التثبيت. فمن الناحية القانونية، لم يعد بوسعهم طردها، ولكنها لم ترغب في أن تتولى الأمر بتلك الطريقة. فبقدر كرهها للتخلي عن وظيفتها في هارفرد، إلّا أن حربها هي حرب ضد مرض الألزهايمر، وليست ضد إريك أو إدارة الجامعة.

«لست مستعدة إلى المغادرة بعد، ولكنني أتفق معك. فبقدر ما يفطر هذا قلبي،

أظن أنه ينبغي لي التوقف عن التدريس، ولكنني أود أن أظل مستشارة لدان، كما أريد الاستمرار بحضور حلقات البحث والاجتماعات».

لم أعد أستاذة بعد الآن.

«أظن أنه بوسعنا تولي هذا الأمر. ومع ذلك، أريد منك أن تتحدثي مع دان وتشرحي له ما يجري وتتركي القرار له. وبالإضافة إلى ذلك، من الواضح أنه لا ينبغي لك أن تتولي الإشراف على أي طلاب خريجين جدد. وهكذا، سيكون دان الطالب الأخير».

لم أعد عالمة أبحاث.

«وعلى الأرجح، لا ينبغي أن تقبلي دعوات لإلقاء أي كلمات في جامعات أو مؤتمرات أخرى. فلن تكون فكرة جيدة أن تمثلي هارفرد بعد الآن. لقد لاحظت أنك توقفت عن السفر معظم الوقت، لذا أظن أنك حللت هذه المشكلة من قبل».

«نعم، موافقة».

«متى تودين أن تتولي موضوع إخبار إدارة الكلية ومسؤولي القسم؟ مرة أخرى، أؤكد لك أنني أحترم توقيتك الخاص. فافعلي هذا متى تشائين».

وهكذا، ها قد أوشكت الآن على الامتناع عن التدريس وإجراء الأبحاث والسفر وإلقاء المحاضرات. وهذا ما سيجعل الناس يلاحظون، وسيبدأون بالتخمين والتهامس ونشر الإشاعات. وقد يظنون أنها مصابة بالاكتئاب أو التوتر أو الإدمان. وربما بدأ بعضهم بفعل ذلك منذ الآن.

فقالت: «سأخبرهم. إذ ينبغي أن يعرفوا مني أنا».

١٦ أيلول 2004

أصدقائي وزملائي الأعزاء،

بعد الكثير من التفكير العميق، وببالغ الأسى والحزن، قررت أن أتنحى عن أداء مسؤولياتي في التدريس والبحث والسفر في جامعة هارفرد. ففي شهر كانون الثاني من العام الجاري، تم تشخيص إصابتي بالبداية المبكرة لمرض الألزهايمر. ورغم أنني على الأرجح ما زلت في المراحل الأولى أو المعتدلة من المرض، إلّا

أنني بدأت أعاني من فجوات في الإدراك لا يمكن توقعها، مما يجعل من المستحيل بالنسبة إلي أن ألبي متطلبات المنصب الذي أتولاه بأعلى المعايير التي لطالما اعتدت على الالتزام بها والمتوقعة مني.

ورغم أنكم لن تروني بعد الآن أعتلي المنصة في مدرجات إلقاء المحاضرات أو مشغولة بكتابة الأبحاث، إلّا أنني سأبقى مستشارة الطالب دان مالوني لرسالة الدكتوراة، وسأظل أحضر الاجتماعات وحلقات البحث، حيث آمل أن أبقى وأخدم كعضوة فعالة ومرحب بها.

مع كل حبي واحترامي
أليس هولاند

في الأسبوع الأول من الفصل الدراسي الخريفي، تولى مارتي مسؤوليات أليس التعليمية. وعندما قابلته لتسلمه مخطط المنهج ومواد المحاضرات، عانقها وعبّر عن مدى حزنه وأسفه من أجلها، وسألها عن شعورها، وطلب منها أن تخبره إن كان هناك أي شيء يستطيع فعله لها. فشكرته، وأكدت له أنها على خير ما يرام. وحالما حصل على كل شيء يحتاج إليه من أجل المنهج، غادر المكتب بأقصى سرعة ممكنة.

وتكرر الأمر نفسه تقريباً مع كل من في القسم.

«إنني آسفة جداً يا أليس».

«لا أستطيع التصديق وحسب».

«لم تكن لدي فكرة».

«هل هناك أي شيء أستطيع تقديمه؟».

«هل أنت واثقة من ذلك؟ أنت لا تبدين مختلفة على الإطلاق؟».

«إنني آسفة جداً».

«إنني بغاية الأسف».

وبعد ذلك، تركوها جميعاً وحدها بأقصى سرعة يستطيعون الابتعاد بها. ورغم أنهم ظلوا يتعاملون معها ببالغ اللطف عندما يصادفونها، إلا أنهم لم يعودوا

يصادفونها أصلاً في أغلب الأحيان، والسبب في ذلك يعود إلى حد كبير إلى جداولهم الحافلة بالأعمال وجدول أليس الفارغ الآن. ومع ذلك، وجدت أنها أسباب واهية؛ لأنهم اختاروا هذا بأنفسهم. فمواجهتها باتت تعني في نظرهم مواجهة هشاشتها العقلية، بينما تلوح أمام أعينهم فكرة أن يحدث لهم ما حدث لها بغمضة عين، لذا أصبحت مواجهتها مرعبة لهم. وهكذا، آثروا تجنبها إلى حد كبير؛ باستثناء الاجتماعات وحلقات البحث.

كان اليوم موعد أول حلقة بحث على الغداء لعلم النفس في هذا الفصل. وقفت ليزلي، وهي إحدى طالبات إريك، عند رأس طاولة المؤتمر، والعنوان معروض خلفها على الشاشة. «البحث عن أجوبة: كيف يؤثر الانتباه في قدرتنا على تحديد ما نراه». شعرت أليس أنها متوازنة ومستعدة كعادتها وهي جالسة على المقعد الأول إلى الطاولة مقابل إريك. بدأت تتناول غداءها المكون من طبق الباذنجان والسلطة، بينما انهمك كل من إريك وليزلي بالحديث، وبدأت الغرفة تمتلئ بالناس.

وبعد بضع دقائق، لاحظت أليس أن كل المقاعد حول الطاولة باتت مشغولة باستثناء المقعد المجاور لها. وبدأ الناس يتخذون أماكن للوقوف في مؤخر الغرفة. كانت المقاعد المحيطة بالطاولة موضع طمع كبير، ليس لأن موقعها يجعل من الأسهل بالنسبة إليهم رؤية العرض وحسب، ولكن لأن الجلوس يساعد على منع الارتباك الحاصل بسبب محاولة الإمساك بالطبق والقلم ودفتر الملاحظات في آن معاً. على ما يبدو، اعتبر الجميع أن الارتباك أقل إحراجاً من الجلوس إلى جانبها. نظرت إلى جميع من لم ينظروا إليها، فرأت حوالي خمسين شخصاً محتشدين في الغرفة، وهم أناس عرفتهم لسنوات عديدة حتى باتت تعتبرهم من أفراد أسرتها.

هرع دان إلى الداخل وشعره مشعث وقميصه خارج بنطاله، واضعاً نظارته بدلاً من العدستين اللاصقتين، وتلكأ للحظة ثم توجه مباشرة إلى المقعد المجاور لأليس وحجزه لنفسه على الفور بأن وضع دفتر ملاحظاته على الطاولة.

«لقد أمضيت الليلة بطولها وأنا أكتب. يجب أن أحضِر بعض الطعام. سأعود

في الحال».

استمرت كلمة ليزلي ساعة كاملة، فتطلب الأمر من أليس قدراً زائداً من الطاقة، ولكنها استطاعت أن تتابعها بانتباه حتى النهاية. وبعد أن عرضت ليزلي آخر شريحة على آلة العرض وأصبحت الشاشة سوداء، فتحت المجال للنقاش. فتقدمت أليس أولاً.

فقالت ليزلي: «نعم يا دكتورة هولاند».

«أظن أنك تفوتين هنا وجود مجموعة تحكم تقيس الإلهاء الفعلي لملهياتك. من الممكن أن تناقشي أن بعضها لسبب ما ليست ملحوظة ببساطة، وأن مجرد وجودها لا يلهي. ويمكنك أن تقيسي قدرة المواضيع على ملاحظة وحضور الملهي في آن معاً أو أن تجري سلسلة تستبدلين فيها الملهي بالهدف».

أومأ الكثير من الحضور الجالسين حول الطاولة برؤوسهم موافقين، بينما عبّر دان عن موافقته وهو يمضغ لقمة من طعامه، فأمسكت ليزلي قلمها حتى قبل أن تنهي أليس فكرتها ودوّنت بعض الملاحظات السريعة.

قال إريك: «نعم. عودي يا ليزلي من فضلك إلى شريحة التصميم التجريبي للحظة».

نظرت أليس في أنحاء الغرفة، فوجدت أنظار الجميع مثبتة على الشاشة، وهم يرهفون السمع بكل انتباه، بينما راح إريك يتوسع بشرح تعليقها. واستمر الجميع بالإيماء برؤوسهم، فشعرت بالنصر، وحتى بشيء من الغرور. فحقيقة أنها مصابة بالألزهايمر لم تعنِ أنها لم تعد قادرة على التفكير بشكل تحليلي، أو أنها لا تستحق أن تجلس بين هؤلاء الناس وأن تدلي بآرائها.

استمرت الأسئلة والأجوبة والأسئلة اللاحقة بضع دقائق، فأنهت أليس تناول وجبة غدائها، ونهض دان ثم عاد وبحوزته المزيد من الطعام، وتلعثمت ليزلي في محاولة منها للعثور على جواب عن سؤال مضاد من الطالب المتدرب عند مارتي. فتم عرض تصميمها التجريبي على الشاشة مرة أخرى، وحين قرأته أليس رفعت يدها.

قالت ليزلي: «نعم يا دكتورة هولاند؟».

«أظن أنك تفوتين هنا وجود مجموعة تحكم تقيس الفعالية الحقيقية لملهياتك. من الممكن أن بعضها ببساطة غير ملحوظة. ويمكنك أن تقيسي إلهاءك بشكل متزامن، أو أن تستبدلي الملهي بالهدف».

بدت لها وجهة نظر منطقية، واعتبرتها في الواقع الطريقة الملائمة لإجراء التجربة. ولم يكن من الممكن نشر بحثها ما لم يتم إرضاء هذه الاحتمالية بالذات. وكانت أليس واثقة من ذلك. ومع ذلك، لم يبدُ على أحد آخر أنه يلاحظ ما لاحظته. فقد نظرت إلى جميع الذين لا ينظرون إليها، ووجدت أن لغة أجسادهم توحي بالإحراج والخوف. أعادت قراءة البيانات على الشاشة، وفكرت في أن تلك التجربة بحاجة إلى تحكم إضافي. فحقيقة إصابتها بالألزهايمر لا تعني أنها لا تستطيع التفكير بشكل تحليلي أو أنها لا تعرف ما تتحدث عنه.

قالت ليزلي: «آه، حسناً، شكراً لك».

ولكنها لم تدوّن أية ملاحظات، ولم تنظر إلى عيني أليس، ولم تبدُ ممتنة لها على الإطلاق.

لم تعد لديها أي محاضرات لتلقيها، ولا أبحاث لتجريها، ولا مؤتمرات لتحضرها، ولم توجَّه إليها دعوات لإلقاء محاضرات على الإطلاق. شعرت أن الجزء الأكبر من نفسها؛ الجزء الذي أثنت عليه وعكفت على صقله وتهذيبه بكل قوتها قد مات، بينما راحت الأجزاء الأخرى الأقل إثارة للإعجاب من نفسها تبكي بحزن شفقة على حالها، وهي تتساءل عن كيفية اكتسابها أية أهمية بدونه.

تأملت المنظر الذي تطل عليه نافذة مكتبها الضخمة، وشاهدت الناس الذين يركضون على ضفّتي نهر تشارلز.

وسألت جون: «هل لديك وقت للجري اليوم؟».

فأجاب قائلاً: «ربما».

نظر من النافذة بدوره وهو يشرب قهوته، فتساءلت عمّا يتأمله، وإذا كان الناس الذين يركضون أنفسهم من جذبوا انتباهه أم هناك شيء مختلف كلياً.

قالت: «أتمنى لو أننا قضينا المزيد من الوقت معاً».

«ماذا تعنين؟ لقد أمضينا الصيف الماضي برمته معاً».

«كلا، لا أقصد الصيف فقط، بل حياتنا كلها. كنت أفكر في الأمر الآن، وأتمنى لو أننا أمضينا المزيد من الوقت معاً».

«نحن نعيش معاً يا آلي، ونعمل في المكان نفسه. لقد أمضينا كل حياتنا معاً».

في البداية، هذا ما حدث بالفعل. فقد عاشا معظم حياتيهما مع بعضهما، ولكنْ على مر السنوات تغيرت الأمور. فقد سمحا لها بأن تتغير. فكرت في الإجازات السنوية التي قضياها منفصلين، وفي تبادلهما مسؤولية الاهتمام بالأولاد فيما بينهما، وفي سفرهما والتزامهما بالعمل بشكل منفصل. لقد عاشا فعلاً بجوار بعضهما بعضاً لوقت طويل.

«أظن أننا تركنا بعضنا بعضاً وحيدين لوقت طويل».

«لا أشعر أنني متروك وحدي يا آلي. إنني أحب حياتنا، وأظن أنها تمثل توازناً جيداً بين الاستقلالية التي تتيح لكل منا متابعة شغفه الخاص وحياتنا المشتركة».

فكرت في سعيه وراء شغفه وأبحاثه التي لطالما استهلكت جل وقته أكثر منها. فحتى لو خذلته التجارب ولم تكن البيانات منسجمة واتضح له أن النظرية غير صحيحة، فإن حبه لموضوع شغفه لم يتزحزح قيد أنملة. ومهما كانت سلبياته، وحتى لو طيّر النوم من عينيه طوال الليل وجعله ينتف شعره، فقد ظل يعشقه بكل جوارحه. وقد منحها الوقت والعناية والانتباه والطاقة التي لطالما بذلها جون في عمله الإلهامَ لتعمل بجد أكبر على أبحاثها الخاصة؛ وهذا ما فعلته طوال حياتها.

«لست متروكة وحدك يا آلي. فأنا هنا إلى جانبك».

ونظر إلى ساعته، ثم تناول آخر جرعة في كوب القهوة.

وقال: «يجب علي أن أسرع إلى محاضرتي».

أخذ حقيبته، ورمى كوبه البلاستيكي في القمامة، ثم اقترب منها، وانحنى وأمسك برأسها المغطى بالشعر الأسود المجعد بين يديه، وطبع عليه قبلة رقيقة. رفعت نظرها إليه، وأجبرت شفتيها على رسم ابتسامة صغيرة وهي بالكاد تحبس دموعها إلى أن خرج من مكتبها.

لقد تمنت لو أنها هي موضع شغفه.

جلست في مكتبها، بينما اجتمع طلاب صف مادة علم الإدراك التي كانت تدرِّسها، ولكن من دون وجودها. تأملت السيارات اللامعة على طول طريق ميموريـال وهي ترتشف الشاي. كان أمامها يوم بطوله، وليس لديها أي شيء تفعله فيه. شعرت بشيء يهتز بجانب وركها، وكانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً. فأخرجت جهاز البلاكبيري من حقيبتها الزرقاء

أجيبي عن هذه الأسئلة، يا أليس:

1. في أي شهر نحن؟
2. أين تعيشين؟
3. أين يقع مكتبك؟
4. متى تحين ذكرى ميلاد آنا؟
5. كم ولداً لديك؟

إن عانيت من صعوبة في الإجابة عن هذه الأسئلة، افتحي مجلداً على كمبيوترك اسمه «الفراشة»، واتبعي التعليمات الموجودة فيه على الفور.

أيلول

34 شارع بوبلار في كامبريدج

مبنى ويليام جيمس الغرفة 1002

14 أيلول

ثلاثة

ارتشفت الشاي، وعادت لتتأمل السيارات اللامعة على طول طريق ميموريـال.

تشرين الأول 2004

جلست أليس في سريرها قلقة، وتساءلت عما تريد فعله. كان المكان مظلماً، والوقت لا يزال منتصف الليل. لم تشعر أنها مشوشة الذهن. فقد أدركت أنه يجب عليها أن تنام، ولكنها باتت تعاني من صعوبة في النوم خلال الليل مؤخراً، وذلك على الأرجح لأنها تنام كثيراً خلال النهار. أم تراها تنام خلال النهار كثيراً بسبب سهرها ليلاً؟ شعرت أنها عالقة في حلقة مفرغة، أو في سيارة مثيرة للدوار لا تعرف كيف تترجل منها. ربما إن قاومت رغبتها في النوم خلال النهار فستتمكن من النوم خلال الليل ومن كسر هذا الروتين. ولكنها كل يوم تشعر أنها خائرة القوى بحلول فترة العصر المتأخر، حيث تستسلم للراحة على الأريكة، ثم تغريها الراحة بالاستغراق في النوم.

تذكرت أنها واجهت المعضلة نفسها عندما كان أولادها لا يتجاوزون السنة الثانية من أعمارهم. فمن دون قيلولة العصر، كانت تجد أن حالتهم تصبح مزرية، وتعاني من قلة تعاونهم بحلول المساء. وإن حصلوا على قيلولتهم، ظلّوا صاحين حتى بعد مرور ساعات على موعد نومهم. ولم تستطع أن تتذكر الحل الذي لجأت إليه.

بعد كل الحبوب التي آخذها، قد يظن المرء أنني على الأقل سأعاني من بعض النعاس كتأثير جانبي. آه، لحظة. لدي وصفة لحبوب منومة.

نهضت من السرير ونزلت إلى الطابق السفلي. ورغم معرفتها نوعاً ما أنها ليست هناك، إلّا أنها أفرغت حقيبتها الزرقاء أولاً؛ محفظة وبلاكبيري وهاتف محمول ومفاتيح. ففتحت محفظتها: بطاقة ائتمان وبطاقة مصرف ورخصة وهوية جامعة هارفرد وبطاقة تأمين صحي وعشرون دولاراً وحفنة من الفكة.

بحثت في زبدية الفطر البيضاء حيث تحتفظ بالبريد، فعثرت على فاتورة

الكهرباء والغاز والهاتف وبعض الوصولات.

فتحت أدراج المكتب وخزانة الملفات في غرفة المكتب وأفرغتها من محتوياتها، كما أفرغت السلال في غرفة المعيشة من المجلات والنشرات، وقرأت بضع صفحات من مجلة الأسبوع، وعلّمت صفحة في نشرة للأزياء فيها صورة لكنزة جميلة بلون أزرق بحري أعجبتها.

فتحت درج الخردوات، وعثرت على بطاريات ومفك وشريط لاصق وصمغ ومفاتيح وعدد من الشواحن وأعواد ثقاب والكثير من الأشياء الأخرى. لا بد أن هذا الدرج على الأرجح لم يتم ترتيبه منذ سنوات. فأخرجت الدرج من مكانه وأفرغت محتوياته على طاولة المطبخ.

سألها جون: «ما الذي تفعلينه يا آلي؟».

رفعت نظرها إليه وهي مجفلة، ونظرت إلى شعره المشعث وعينيه نصف المغمضتين.

«إنني أبحث عن...».

نظرت إلى الأشياء المبعثرة أمامها على الطاولة: بطاريات، وعدة خياطة، وصمغ، وشريط لاصق، وشريط قياس، وعدة شواحن هواتف، ومفك.

«إنني أبحث عن شيء ما».

«لقد تجاوزت الساعة الثالثة يا آلي. أنت تحدثين الفوضى هنا. أيمكنك أن تواصلي البحث عما كنت تبحثين عنه في الصباح؟».

بدت نبرة صوته موحية بنفاد الصبر؛ إذ لم يكن يحب أن يزعجه أحد أثناء نومه.

«حسناً».

استلقت على السرير، وحاولت أن تتذكر ما كانت تبحث عنه. كان المكان مظلماً. أدركت أنه ينبغي لها أن تنام. أما جون فقد استغرق في النوم مجدداً وبسرعة من دون عناء، وبدأ يشخر؛ فقد كان ممّن ينامون بسرعة. اعتادت أن تستغرق في النوم بسرعة أيضاً، ولكنها عجزت عن أن تغفو. لقد بدأت مؤخراً تعاني من صعوبة كبيرة في الاستغراق في النوم خلال الليل؛ ربما لأنها كانت تنام كثيراً أثناء النهار. أم تراها أصبحت تنام في النهار لأنها لم تحصل على كفايتها من النوم في الليل؟

شعرت أنها عالقة في حلقة مفرغة أو في سيارة مثيرة للدوار لا تعرف كيف تترجل منها.

آه، لحظة. لدي وسيلة تساعدني على النوم. هناك تلك الحبوب التي وصفتها لي الدكتورة موير. أين وضعتها يا ترى؟

نهضت عن السرير ونزلت إلى الطابق السفلي.

لم تكن هناك أي اجتماعات أو حلقات بحث اليوم. ولم تجد ما يثير اهتمامها في أي من الكتب أو المجلات الدورية أو البريد في مكتبها. ولم يرسل لها دان أي أبحاث جاهزة لتقرأها، ولم تصلها أي إيميلات جديدة في صندوق الوارد. ولم تكن إيميلات ليديا اليومية لتصل قبل حلول الظهر. أخذت تراقب حركة السير خارج نافذة مكتبها، فشاهدت السيارات وهي تمر على طول منعطفات طريق ميموريـال، والناس وهم يركضون على طول منحنيات النهر، بينما راحت قمم أشجار الصنوبر تتمايل بفعل نسيم الخريف.

أخرجت من خزانة ملفاتها كل المجلدات من السلة التي كتب عليها **الطبعات الثانية لهو لاند**. لقد ألّفت أليس ونشرت في حياتها أكثر من مئة بحث. أمسكت بين يديها هذه الكومة من مقالات الأبحاث والتعليقات والتقييمات التي تختصر كل ما قامت به في مهنتها من أفكار وآراء، فوجدتها ثقيلة. فقد كانت أفكارها وآراؤها ذات وزن وأهمية. على الأقل، هذا ما كانت عليه في الماضي. والآن، افتقدت أبحاثها والتفكير فيها والتحدث عنها، كما افتقدت أفكارها وآراءها والفن الأنيق في علمها.

وضعت كومة المجلدات جانباً، واختارت كتاباً آخر من المكتبة، فوجدته كتاباً ثقيلاً على حد سواء. وكان من أكثر الإنجازات المكتوبة التي افتخرت بها؛ حيث امتزجت كلماتها وأفكارها مع أفكار جون لتشكل شيئاً فريداً من نوعه في هذه الجامعة، شيئاً ذا قيمة علمية وتأثير في كلمات الآخرين وأفكارهم. كانت تعتقد أنهما قد يؤلفان كتاباً آخر معاً يوماً ما، ولكنها أخذت تقلب الصفحات الآن من دون أن يخطر ببالها شيء، ولم تشعر أنها تريد أن تقرأ هذا الكتاب أيضاً.

تفقدت ساعتها. كان من المفترض بها وبجون أن يذهبا للجري في آخر اليوم،

ولكنها وجدت أنه لا تزال أمامها بضع ساعات قبل أن يحين ذلك الوقت، فقررت أن تجري بمفردها إلى البيت.

كان منزلهما يبعد حوالي ميل واحد عن مكتبها، فوصلت إلى هناك بسرعة وسهولة. والآن، ماذا؟ دخلت المطبخ لتعد بعض الشاي، فملأت الإبريق من ماء الصنبور ووضعته على الموقد بعد أن أشعلته، ثم ذهبت لتحضر كيس شاي، فلم تجد علبة الشاي التي تحتفظ فيها بأكياس الشاي في أي مكان على الطاولة. حدقت إلى رفوف الأطباق الثلاثة من دون أن تعثر على شيء، وفتحت الخزانة إلى يمينها. توقعت أن تجد صفاً من الكؤوس، ولكنها وجدت فيها بدلاً منها زبادي وفناجين.

أخرجت الزبادي والفناجين من الخزانة ووضعتها على الطاولة، ثم أخرجت الصحون ووضعتها بجانب الزبادي والفناجين. بعد ذلك فتحت الخزانة التالية، فلم تجد أي شيء في مكانه الصحيح على حد سواء. وسرعان ما أصبحت الطاولة مليئة بأكداس من الأطباق والزبادي والفناجين وكؤوس العصير وكؤوس الماء والقدور والمقالي والأدوات الفضية وغيرها. وأصبح المطبخ كله مقلوباً رأساً على عقب. والآن، ما الذي كنت أبحث عنه؟ صفر إبريق الشاي، فلم تعد تستطيع أن تفكر في أي شيء، فأطفأت الموقد.

سمعت صوت الباب الأمامي ينفتح. آه، جيد. ها قد عاد جون إلى البيت مبكراً.

صاحت: «لماذا فعلت هذا بالمطبخ يا جون؟».

«أليس، ما الذي تفعلينه؟».

فاجأها سماع صوت امرأة.

«آه، لورين. لقد أفزعتني».

وكانت تلك جارتها التي تسكن في الطرف المقابل من الشارع. لم تقل لورين أي شيء.

فقالت أليس: «إنني آسفة. هل تودين أن تجلسي؟ كنت على وشك أن أعد الشاي».

«هذا ليس مطبخك، يا أليس».

ماذا؟! نظرت في أنحاء المطبخ: طاولة من الغرانيت الأسود، وخزائن خشبية، وأرضية من السيراميك الأبيض، ونافذة فوق المغسلة، وغسالة أطباق إلى يمين المغسلة، وفرن مزدوج. لحظة، إنها لا تملك فرناً مزدوجاً، أليس كذلك؟ وعندئذ، لاحظت للمرة الأولى الثلاجة وصور الكلية المعلقة بالمغناطيس على بابه، وهي صور لورين وزوجها وقطتها، وصور أطفال لم تميزهم أليس.

«آه، انظري إلى ما فعلته بمطبخك يا لورين. سأساعدك في إعادة كل شيء إلى مكانه».

«لا بأس يا أليس. هل أنت على ما يرام؟».

«كلا، ليس بالفعل».

أرادت أن تهرب إلى بيتها ومطبخها. ألا يمكنهما أن ينسيا ما حدث وحسب؟ ترى، هل يجب عليها فعلاً أن تشرح لها عن إصابتها بمرض الألزهايمر الآن؟ كم كرهت الخوض في هذا الحديث!

حاولت أليس أن تقرأ ملامح وجه لورين. فبدت مندهشة وخائفة، وكأن لسان حالها يقول: إن أليس ربما فقدت صوابها. أغمضت أليس عينيها، وأخذت نفساً عميقاً، وقالت: «إنني مصابة بالألزهايمر».

ثم فتحت عينيها، فوجدت أن النظرة على وجه لورين لم تتغير.

والآن، أصبحت في كل مرة تدخل فيها المطبخ تتفقد الثلاجة لتتأكد وحسب. فإن لم تجد أي صور للورين، عرفت أنها في المنزل الصحيح. وفي حال لم يبدد ذلك شكوكها، فقد كتب جون ملاحظة بأحرف سوداء كبيرة وعلقها بالمغناطيس على باب الثلاجة.

أليس: لا تذهبي للجري من دوني.

رقم هاتفي: 617-555-1122

رقم آنا: 617-555-1123

رقم توم: 617-555-1124

وجعلها جون تعده بألا تخرج للجري من دونه. فأقسمت أنها لن تفعل ذلك أبداً، ولكن هذا لا يمنع بالطبع أنها قد تنسى.

وعلى أية حال، وجدت أن كاحلها سيستفيد من فترة الراحة. فقد لوته وهي تصعد على أحد الأرصفة في الأسبوع الماضي. لا بد أن إدراكها المكاني قد تعطل لوهلة من الزمن. فقد باتت ترى الأشياء أقرب أو أبعد، أو بشكل عام في مكان آخر غير المكان الذي توجد فيه في الواقع. ولهذا السبب، قامت بفحص عينيها، ووجدت أن بصرها سليم؛ وكأنها تتمتع بعيني شابة في العشرين من عمرها. إذاً، المشكلة لا تتعلق بالقرنية أو الشبكية. فقال جون إن الخلل كامن في معالجة المعلومات البصرية في مكان ما في قشرتها القذالية الدماغية. فعلى ما يبدو، كانت تتمتع بعيني طالبة جامعية وقشرة قذالية تعود إلى امرأة في العقد الثامن.

لا جري من دون جون؛ فقد تضيع أو تؤذي نفسها، ولكن مؤخراً لم يعد هناك جري حتى مع جون. فقد بات كثير الأسفار. وحتى عندما لم يترك المدينة، أصبح يغادر البيت مبكراً ليذهب إلى هارفرد ويتأخر في العودة. وبحلول الوقت الذي يعود فيه إلى البيت، يكون بغاية الإرهاق. فكرهت الاعتماد عليه للذهاب للجري، ولا سيما لأنه لا يمكن الاعتماد عليه.

أمسكت الهاتف وطلبت الرقم المدون على الثلاجة.

«مرحباً؟».

سألت: «هل سنذهب للجري اليوم؟».

قال جون: «لست أدري. ربما سنذهب. أنا في اجتماع الآن، وسأتصل بك لاحقاً».

«إنني حقاً بحاجة إلى الذهاب للجري».

«سأتصل بك لاحقاً».

«متى؟».

«عندما يتسنى لي ذلك».

«حسناً».

أنهت الاتصال ونظرت من النافذة، ثم أطرقت متأملة الحذاء الرياضي في

قدميها، وبعد ذلك خلعته ورمته على الجدار.

حاولت أن تتفهم وضعه والتزامه بالعمل، ولكنْ لِمَ لم يفهم أنها بحاجة إلى الركض؟ فإن كان شيء بسيط كالتمرين المنتظم يساعدها فعلاً على مقاومة تطور هذا المرض، إذاً ينبغي لها أن تركض في أغلب الأوقات. وهكذا، في كل مرة قال لها فيها «ليس اليوم»، جعلها هذا ربما تخسر المزيد من العصبونات التي كان بإمكانها أن تنقذها بدلاً من أن تتركها تموت سريعاً بشكل لا داعي له بسبب إهمال جون.

طلبت رقمه مرة أخرى.

سأل جون وهو يبدو منزعجاً: «نعم؟».

«أريدك أن تعدني بأننا سنذهب للجري اليوم».

قال لشخص آخر: «أرجو المعذرة للحظة». ثم قال لأليس: «من فضلك يا أليس، دعيني أتصل بك حالما أخرج من هذا الاجتماع».

«يجب عليّ أن أركض اليوم».

«لا أعرف بعد كيف ستجري الأمور بالنسبة إليّ اليوم».

«إذاً؟».

«لهذا السبب أعتقد أنه ينبغي لنا أن نشتري لك آلة مشي كهربائية».

فقالت: «آه، تباً لك». وأغلقت الخط في وجهه.

فكرت في أن تصرفها هذا لا يدل على قدر كبير من التفهم من جانبها، ولكنها عجزت عن السيطرة على نوبات الغضب الكثيرة التي باتت تنتابها مؤخراً. وسواء أكان هذا من أعراض تطور مرضها أم مجرد رد فعل مبرر، فهي لم تستطع أن تحدد السبب. لم ترغب في أن تركض على آلة المشي بل معه هو. ربما لا ينبغي لها أن تتصرف بعناد، فربما كانت تقتل نفسها على حد سواء.

فكرت في أنه لا يزال بإمكانها أن تمشي إلى مكان ما من دونه، ولكنْ بالطبع يجب أن يكون هذا المكان آمناً. خطر لها أنه بوسعها أن تمشي إلى مكتبها، ولكنها لم تكن تريد أن تذهب إلى مكتبها. فقد شعرت أنها ضجرة ومهملة ومنعزلة وحتى سخيفة هناك. فهي لم تعد تنتمي إلى ذلك المكان بعد الآن. وفي كل ذلك المكان

الفخم والواسع المدعو جامعة هارفرد، لم يعد هناك مكان لأستاذة بعلم النفس الإدراكي لها عقل معطل لا يدرك شيئاً.

جلست على كنبتها في غرفة المعيشة، وحاولت أن تفكر في شيء ما تفعله، فلم يخطر ببالها أي شيء ذي معنى. حاولت أن تتخيل الغد والأسبوع المقبل والشتاء القادم، فلم يخطر ببالها أي شيء. وشعرت أنها ضجرة ومهملة ومنعزلة على كنبتها في غرفة المعيشة. كانت شمس العصر المتأخر تلقي ظلالاً مزركشة ومتماوجة على طول الأرضية والجدران، فتأملت الظلال وهي تتلاشى، بينما راحت العتمة تغزو الغرفة شيئاً فشيئاً. ثم أغمضت عينيها واستغرقت في النوم.

وقفت أليس في غرفة نومها وهي تقاوم وتصارع وتئن بسبب قطعة ملابس عالقة برأسها. فبدت معركتها ضد القماش المحيط برأسها أشبه بتعبير شعري وجسدي عن الألم، فأطلقت صيحة طويلة ومدوية.

قال جون وهو يدخل الغرفة: «ما الذي يجري؟».

نظرت إليه بعين واحدة مرعوبة من خلال ثقب دائري في القماش المجعد.

«لا أستطيع أن أفعل هذا بعد الآن. لا أعرف كيف أرتدي هذه الصديرية الرياضية اللعينة. لا أتذكر كيف يجب علي أن أرتديها. ها قد أصبحت عاجزة حتى عن ارتداء ملابسي الخاصة!».

فذهب إليها، وتفحص رأسها وقال: «هذه ليست صديرية يا آلي، بل إنها سروال داخلي».

فانفجرت أليس ضاحكة.

قال جون: «هذا ليس طريفاً».

فراحت تضحك أكثر.

«توقفي عن هذا، فالأمر ليس مضحكاً. إن أردت أن تذهبي للجري، فعليك أن تسرعي بارتداء ملابسك. ليس لدي متسع كبير من الوقت».

غادر الغرفة وهو غير قادر على النظر إليها وهي واقفة هناك وسروالها الداخلي عالق برأسها وهي تضحك من جنونها السخيف.

كانت أليس تعرف أن الشابة الجالسة مقابلها هي ابنتها، ولكنها ظلت تعاني من قدر مزعج من انعدام الثقة في هذه المعلومة. ورغم أنها أدركت أن لديها ابنة اسمها ليديا، إلا أنها عندما نظرت إلى الشابة الجالسة مقابلها لم تميّزها. فمعرفتها أنها ابنتها ليديا شكلت بالنسبة إليها معرفة أكاديمية أكثر من فهم ضمني وحقيقة ثابتة، فهذه معلومة أعطيت إياها وتقبلتها على أنها صحيحة.

نظرت إلى توم وآنا الجالسين إلى الطاولة أيضاً، واستطاعت بشكل تلقائي أن ترتبط بهما بذكريات لديها عن ابنها الأكبر وابنتها الكبرى. فراحت تتخيل آنا مرتدية فستان زفافها، وفستانَي تخرجها من كلية القانون ومدرستها الثانوية، ثم تخيلتها مرتدية فستان بياض الثلج الذي كانت تصر على ارتدائه كل يوم وهي في الثالثة من عمرها. وتذكرت توم وهو مرتدٍ رداء التخرج ومعتمر قبعة التخرج، وعندما كسر ساقه وهو يتزلج على الجليد، كما تخيلت صورته وهو يضع تقويماً للأسنان، وشكله بين ذراعيها وهو رضيع.

استطاعت أن ترى تاريخ حياة ليديا على حد سواء، ولكنها لم تشعر أن هذه المرأة الجالسة مقابلها مرتبطة بشكل وثيق بذكرياتها عن طفلتها الصغرى. فجعلها هذا قلقة ومدركة بشكل مؤلم إلى أن حالتها تتدهور أكثر من ذي قبل، وأن ماضيها أصبح مفصولاً عن حاضرها. وكم بدا غريباً بالنسبة إليها أنها لم تعاني من أية مشكلة في تمييز الرجل الجالس بجانب آنا على أنه زوجها، رغم أنه دخل حياتهم قبل بضع سنوات فقط. تخيلت مرضها كشيطان يسكن رأسها، ويشق طريقاً متهوراً ومدمراً وغير منطقي، ويمزق صلة الوصل بين «ليديا الآن» و«ليديا الماضي»؛ تاركاً كل ما يتعلق بتشارلي من دون أن يمسه بسوء.

كان المطعم مزدحماً ومليئاً بالضوضاء، وتنافست الأصوات القادمة من الطاولات الأخرى على لفت انتباه أليس، بينما ظلت الموسيقى تحتل الصدارة ثم تتخلى عنها مراراً. وكان صوتا ليديا وآنا متشابهين بالنسبة إليها؛ وكأنهما الصوت نفسه. وشعرت أن الجميع يستخدمون كماً كبيراً من الضمائر في كلامهم. كما كابدت لتحدد مكان الشخص المتكلِّم الجالس إلى طاولتها ولتتابع كل ما يدور من أحاديث.

سأل تشارلي: «هل أنت بخير يا عزيزتي؟».
فقالت آنا: «الروائح تزعجني».
سألها تشارلي: «هل تريدين الخروج من هنا لدقيقة؟».
فقالت أليس: «أنا سأذهب معها».
شعرت أليس بشد في ظهرها حالما خرجتا من دفء المطعم. فقد نسيتا كلتاهما أن تحضرا معطفيهما. أمسكت آنا بيد أليس، وقادتها بين مجموعة من الشباب المدخنين الواقفين قرب الباب.
قالت آنا وهي تأخذ نفساً عميقاً من أنفها: «آه، هواء نقي».
فقالت أليس: «وهدوء».
«كيف تشعرين يا أمي؟».
قالت أليس: «إنني بخير».
ربتت آنا على ظهر يد أليس التي كانت لا تزال تمسك بها.
ثم اعترفت أليس قائلة: «كنت أفضل حالاً».
فقالت آنا: «وأنا أيضاً. هل شعرت بهذا القدر من الغثيان أثناء فترة حملك بي؟».
«نعم».
«كيف تخطيت الأمر؟».
«تستمرين بحياتك الطبيعية وحسب. فكل شيء سينتهي عما قريب».
«وقبل أن أدرك ذلك، سأرى الطفلين بين يديّ».
«لا أطيق الانتظار».
فقالت آنا: «وأنا أيضاً». ولكنّ نبرة صوتها لم تحمل الحماسة نفسها التي بدت في صوت أليس. وفجأة، امتلأت عينا ابنتها بالدموع.
«إنني أشعر بالغثيان طوال الوقت يا أمي، كما أنني مرهقة. وكلما نسيت شيئاً ما ظننت أن الأعراض بدأت تظهر علي».
«آه يا عزيزتي. هذا غير صحيح، فأنت متعبة ليس إلا».
«أعرف هذا، ولكنني لا أستطيع منع نفسي من التفكير في انقطاعك عن

التدريس، وفي كل شيء آخر بدأت تخسرينه...».

«لا تدعي هذه الأفكار تسيطر عليك. ينبغي أن يكون هذا وقتاً مبهجاً في حياتك. من فضلك، فكّري فقط بما تكسبينه أنت».

ضغطت أليس على اليد التي تمسك بها، ووضعت يدها الأخرى بلطف على بطن آنا. فابتسمت آنا، ولكن الدموع ظلت تنهمر من عينيها الحزينتين.

«إنني فقط لست أدري كيف سأتولى القيام بكل هذه الأشياء؛ أي وظيفتي والطفلين و...».

«وتشارلي... لا تنسي علاقتك مع زوجك، وتمسكي بكل ما تحظين به معه، وحافظي على التوازن في كل ما تفعلينه؛ أنت وتشارلي ومهنتك وأطفالك وكل ما تحبينه. ولا تعتبري أياً من الأشياء التي تحبينها في حياتك شيئاً مسلماً به، ومن المؤكد أنك سوف تنجحين في كل شيء. وتشارلي سيساعدك».

فهددت آنا قائلة: «من الأجدر به أن يفعل ذلك».

ضحكت أليس، فمسحت آنا دموعها بيديها، وأخرجت نفساً طويلاً وحاراً من فمها.

«شكراً يا أمي. أشعر أنني بحال أفضل الآن».

«هذا جيد».

عندما عادتا إلى داخل المطعم، جلستا على كرسييهما وتناول الجميع عشاءهم. وبعد ذلك، أمسكت المرأة الجالسة مقابل أليس، وهي ابنتها الصغرى ليديا، سكيناً وراحت تنقر بها على كأسها.

«والآن، نودّ يا أمي أن نقدم لك هديتك الكبرى».

قدمت لها علبة صغيرة مستطيلة الشكل، ملفوفة بورق ذهبي اللون، فشعرت بأنها على قدر كبير من الأهمية. فتحت أليس ورق التغليف. وفي الداخل، وجدت ثلاثة أقراص ليزرية كتب عليها: أولاد عائلة هولاند، أليس وجون، أليس هولاند.

«هذه أشرطة ذكريات لك. إن قرص أولاد هولاند عبارة عن مجموعة من المقابلات لي ولآنا وتوم صوّرتها خلال فصل الصيف، وهي تتضمن ذكرياتنا

عن طفولتنا ونشأتنا معاً. والقرص الذي يتعلق بك وبأبي يتحدث عن ذكرياتكما معاً وعن لقائكما ومواعدتكما وزفافكما وعطلاتكما والكثير من الأشياء الأخرى. وهناك بعض القصص الرائعة التي لم يكن أحد منا نحن الأولاد يعرف شيئاً عنها. أما القرص الثالث، فأنا لم أسجل عليه أي شيء بعد؛ فهو مخصّص لك لتتحدثي فيه عن قصصك إن رغبت في أن تفعلي ذلك».

«إنني أريد بكل تأكيد أن أفعل هذا. لقد أحببت هذه الهدية. شكراً لكم. لا أطيق الانتظار لأشاهد المقابلات».

أحضرت لهم النادلة فناجين القهوة والشاي وكعكة شوكولاتة عليها شمعة، فغنوا لها جميعاً، ونفخت أليس على الشمعة لتطفئها، وتمنت أمنية من قلبها.

تشرين الثاني 2004

لم يمضِ وقت طويل حتى باتت الأفلام التي أحضرها لها جون خلال الصيف تندرج في الفئة البائسة نفسها التي تندرج فيها كتبها المهجورة التي يفترض أنها حلت محلها. إذ لم تعد قادرة على أن تتابع حبكة الفيلم أو تتذكر أهمية الشخصيات إن لم تشاهدها في كل مشهد. ورغم أنها ظلت تستمتع باللحظات الصغيرة، إلا أنها لم تعد تكتسب إلا إحساساً عاماً بالفيلم عندما ينتهي وتظهر الأسماء. وإن شاهد جون أو آنا الفيلم معها، كانا ينفجران ضاحكين، أو يقفزان من الرعب، أو يشمئزان من القرف مظهرين ردود أفعال لما يجري من أحداث بطريقة واضحة، ولكنها لم تستطع أن تفهم السبب في ذلك. غير أنها أجبرت نفسها على الانضمام إليهما والتظاهر بفهم ما يجري، محاولة أن تحميهما من معرفة مقدار ضياعها. فمشاهدة الأفلام جعلتها مدركة بشدة لمدى الضياع الذي وصلت إليه.

أما الأقراص التي أعدتها ليديا، فقد أتت في وقتها المناسب تماماً. فكل قصة رواها جون أو الأولاد استمرت لبضع دقائق فقط، لذا تمكنت من استيعاب كل واحدة على حدة، ولم يتوجب عليها أن تحتفظ بالمعلومات في ذهنها في ما يتعلق بأي قصة لتدرك أو تفهم القصص التي تليها. وكانت تتفرج عليها مرة تلو الأخرى. لم تتذكر أي شيء مما تحدثوا عنه، ولكنها شعرت أن هذا طبيعي تماماً؛ لأن أياً من أولادها أو جون لم يكن يتذكر كل التفاصيل على حد سواء. وعندما طلبت منهم ليديا أن يرووا الحادثة نفسها، تذكرها كل واحد منهم بشكل مختلف عن الآخر، فحذف أجزاء وبالغ في أخرى، وأكد على وجهة نظره الخاصة. وهكذا، حتى السير الذاتية غير المشبعة بالمرض تظل عرضة للثغرات والتشوه.

ومع ذلك، بالكاد استطاعت أن تشاهد الفيديو الخاص بها. فقد اعتادت أن تتحدث بمنتهى البلاغة والفصاحة وبكل راحة أمام أي جمهور. والآن، باتت

تفرط في استخدام بعض الكلمات العامية، وتكرر كلامها بشكل محرج عدة مرات؛ ولكنها شعرت بالامتنان لأنها حظيت بهذا التسجيل الذي يحتفظ بذكرياتها وأفكارها ونصائحها مسجلة على شريط وآمنة من أن تطالها يد مرض الألزهايمر الخبيثة. وهكذا، سيشاهد أحفادها الشريط ذات يوم وسيقولون: «هذه هي جدتنا عندما كانت لا تزال تستطيع الكلام وتذكر الأشياء».

بعد أن أنهت مشاهدة القرص الخاص بها وبجون، ظلت جالسة على الأريكة بلا حراك، وهناك بطانية على حضنها، بينما تلاشت الصورة التي كانت ظاهرة على شاشة التلفزيون، وأصبحت الشاشة سوداء. راحت تصغي إلى الهدوء، فسرّها ذلك، وتنفست الصعداء وهي لا تفكر في أي شيء لبضع دقائق، ولا تسمع سوى صوت تكتكة الساعة على رف الموقد. وفجأة، اتخذ صوت التكتكة معنى بالنسبة إليها، ففتحت عينيها على وسعهما.

نظرت إلى يدها، وانتبهت فجأة إلى أن الساعة العاشرة تحين بعد عشر دقائق فقط. **يا إلهي! ما الذي ما زلت أفعله هنا؟** ألقت البطانية على الأرض، وحشرت قدميها في حذائها، وأسرعت إلى غرفة المكتب، وأغلقت حقيبة الكمبيوتر المحمول. **أين حقيبتي الزرقاء؟** لم تجدها على الكرسي ولا على المكتب ولا في أدراج المكتب ولا في حقيبة الكمبيوتر. فأسرعت إلى غرفة نومها، ولكنها لم تجدها على السرير ولا على الطاولة ولا على الخزانة ذات الأدراج ولا في خزانة الملابس ولا على المكتب. وبينما هي واقفة في الممر محاولة تذكر مكانها بعقلها المضطرب، شاهدتها معلقة على مقبض باب الحمام.

فتحتها، ووجدت فيها هاتفاً محمولاً وجهاز بلاكبيري، ولكنها لم تجد المفاتيح. لطالما اعتادت أن تضعها فيها. كلا، ذلك ليس صحيحاً تماماً. فهي في الواقع لطالما تعمّدت أن تضعها فيها، ولكنها في بعض الأحيان كانت تضعها في درج مكتبها أو في درج الأدوات الفضية أو درج الملابس الداخلية أو صندوق مجوهراتها أو صندوق بريدها أو في أحد الجيوب. وفي أوقات أخرى، كانت تتركها وحسب معلقة من ثقب في الباب. ساءها أن تفكر في عدد الدقائق التي تضيعها كل يوم وهي تبحث عن أشيائها الضائعة.

اندفعت عائدة إلى غرفة المعيشة في الطابق السفلي، ولكنها لم تجد أثراً للمفاتيح، غير أنها عثرت على معطفها معلقاً على أحد الكراسي، فارتدته ووضعت يديها في جيبيها ووجدت المفاتيح.

أسرعت إلى الباب الأمامي، ولكنها توقفت قبل أن تصل إليه. فقد فوجئت بأغرب شيء يمكنها أن تراه، وهو عبارة عن حفرة كبيرة في الأرض أمام الباب مباشرة، تمتد على عرض الممر، ويبلغ طولها حوالي ثماني أقدام أو تسع، ولا شيء سوى القبو المظلم تحتها. فكرت في أنه من المستحيل اجتيازها. كانت ألواح الخشب في الممر الأمامي معوجة وتصدر صوت صرير، وقد تحدثت مؤخراً مع جون عن استبدالها. ترى، هل اتفق جون مع مقاول؟ وهل أتى أي شخص إلى البيت اليوم؟ لم تستطع أن تتذكر. أياً يكن السبب، لم يعد بوسعها استخدام الباب الأمامي إلى أن يتم إصلاح الحفرة.

وبينما هي في طريقها إلى الباب الخلفي رن الهاتف.

«مرحباً أمي، سأصل في غضون الساعة السابعة، وسأحضر معي طعام العشاء».

قالت أليس بنبرة صوت مرتفعة بعض الشيء: «حسناً».

«إنني آنا».

«أعرف».

«إن أبي سيمكث في نيويورك حتى الغد. أتتذكرين؟ لذا، سآتي لأمضي الليلة عندك. ومع ذلك، لا أستطيع أن أخرج من العمل قبل السادسة والنصف، لذا انتظريني لنتناول طعامنا معاً. ربما ينبغي أن تدوني هذا على اللوح الأبيض على الثلاجة».

نظرت إلى اللوح الأبيض.

فرأت عبارة:

لا تذهبي للجري من دوني.

استفزها ذلك، وأرادت أن تصرخ عبر الهاتف قائلة إنها ليست بحاجة إلى جليسة أطفال، وإنها تستطيع أن تتدبر أمرها في بيتها بمفردها وبشكل جيد. ولكنها بدلاً من ذلك أطلقت نفساً عميقاً.

وقالت: «حسناً، أراك لاحقاً».

أنهت الاتصال، وهنّأت نفسها لأنها لا تزال تتمتع ببعض السيطرة على مشاعرها الفجة والمضطربة. في وقت ما لاحقاً، لن تعود لديها تلك القدرة، بل ستستمتع برؤية آنا عندما تصبح فكرة بقائها بمفردها غير واردة.

كانت ترتدي معطفها، وتحمل كمبيوترها المحمول، وتضع حقيبتها الزرقاء على كتفها. نظرت من نافذة المطبخ، فوجدت الطقس عاصفاً ورطباً وكئيباً. هل حل الصباح؟ لم تشعر برغبة في الخروج من البيت، ولم تعجبها فكرة الجلوس في مكتبها؛ فقد شعرت بالملل والتجاهل والعزلة فيه، وشعرت أنها سخيفة هناك. فهي لم تعد تنتمي إلى ذلك المكان بعد الآن.

نزعت حقيبتيها ومعطفها، ثم توجهت نحو غرفة المكتب، ولكنها سمعت فجأة صوت سقوط شيء خفيف، مما جعلها تعود أدراجها إلى المدخل الأمامي. لقد وصل البريد للتو من خلال الفتحة في الباب، وظل عالقاً على قمة الحفرة، وهو يحوم هناك في مكان ما. لا بد أنه متوازن على عارضة أو على أحد الألواح الخشبية ولذلك لم تره. **بريد يطفو في الهواء! إن دماغي تالف.** تراجعت نحو غرفة المكتب، وحاولت أن تنسى أمر الحفرة التي تتحدى الجاذبية عند المدخل الأمامي، ولكن ما فاجأها هو أنها وجدت تلك مهمة صعبة.

جلست في غرفة مكتبها معانقة ركبتيها، وهي تنظر من النافذة إلى السماء الداكنة؛ بانتظار أن تأتي آنا وتحضر معها طعام العشاء، وبانتظار جون ليعود من نيويورك لتتمكن من الذهاب للجري معه. ظلت تنتظر وتنتظر، فلم ينفعها جلوسها في شيء؛ سوى في زيادة حالتها سوءاً، ولكنها سئمت من مجرد الجلوس والانتظار.

كانت هي الشخص الوحيد الذي تعرف عنه أنه مصاب بالبداية المبكرة لمرض الألزهايمر في هارفرد، أو في أي مكان آخر. ولكن من المؤكد أنها ليست الشخص الوحيد في العالم. لقد شعرت الآن أنها بحاجة إلى أن تتعرف إلى زملائها الجدد؛ لتبدأ بالتعايش مع هذا العالم الجديد الذي فرض نفسه عليها، عالم الخرف.

طبعت الكلمات «البداية المبكرة لمرض الألزهايمر» في محرك البحث غوغل،

فظهر لها عدد كبير من الحقائق والإحصائيات.

يقدر عدد المصابين بالبداية المبكرة لمرض الألزهايمر في الولايات المتحدة بخمسمئة ألف شخص.

يُعرف عن البداية المبكرة لمرض الألزهايمر أنها تحدث تحت سن الخامسة والستين.

من الممكن أن تظهر أعراض البداية المبكرة لمرض الألزهايمر في العقد الثالث من العمر أو الرابع.

ظهر لها عدد من المواقع، ولائحة من الأعراض وعوامل الخطر الوراثي والأسباب والعلاجات. وظهرت لها مقالات متعددة عن الأبحاث واكتشاف العلاجات، ولكنها شاهدت كل هذه الأشياء من قبل.

أضافت كلمة «دعم» إلى نافذة البحث، وضغطت على زر العودة.

فعثرت على منتديات وروابط ومصادر وغرف دردشة، ولكن لمانحي الرعاية فقط. تضمنت مواضيعُ مساعدة مانحي الرعاية زيارةَ دور الرعاية، وأسئلةً عن الأدوية، وتخفيف التوتر، والتعامل مع الأوهام، والتعامل مع التجوال الليلي، والتكيف مع الإنكار والاكتئاب. ونشر الكثير من مانحي الرعاية أسئلة وأجوبة وعبارات مواساة وعلاجات للمشاكل التي تخص أمهاتهم وأزواجهم وجداتهم وأجدادهم المسنين الذين يعانون من الألزهايمر.

ماذا عن دعم المرضى المصابين بالألزهايمر أنفسهم؟ أين أولئك الناس الذين في العقد الخامس من أعمارهم ويعانون من الخرف؟ أين الناس الآخرون الذين أتاهم تشخيص مرضهم وهم في أوج نجاحهم المهني وانتزع منهم حياتهم التي اعتادوا عليها؟ لم تنكر أن الإصابة بمرض الألزهايمر أمر مأساوي في أين سنَ وأي عمر. ولم تنكر أن مانحي الرعاية بحاجة إلى الدعم النفسي والمعنوي. ولم تنكر أنهم يعانون، لأنها شعرت بمعاناة جون وشاهدتها بنفسها. **ولكن، ماذا عني أنا؟**

تذكرت بطاقة العمل التي تخص الموظفة الاجتماعية في مستشفى ماس جنرال، فعثرت عليها وطلبت الرقم.

«دينيز داداريو تتحدث».

«مرحباً يا دينيز. أليس هولاند تتحدث إليك. إنني مريضة لدى الدكتور ديفيز، وهو من أعطاني بطاقتك. إنني في الحادية والخمسين من عمري، وتم تشخيص إصابتي بالبداية المبكرة لمرض الألزهايمر قبل حوالي العام. أتساءل إن كان لدى المستشفى أي مجموعة دعم لمرضى الألزهايمر؟».

«كلا. لسوء الحظ ليس لدينا ذلك، ولكن لدينا مجموعة دعم مخصصة لمانحي الرعاية فقط. فمعظم مرضانا المصابين بالألزهايمر غير قادرين على المشاركة في هذا النوع من المنتديات».

«ولكن البعض يستطيعون ذلك».

«نعم. ولكن للأسف ليس لدينا العدد الكافي لتبرير المصادر التي سيتطلبها إنشاء هذا النوع من المجموعات».

«أي نوع من المصادر؟».

«حسناً، في مجموعة الدعم المخصصة لمانحي الرعاية، هناك حوالي اثني عشر إلى خمسة عشر شخصاً يلتقون كل أسبوع لبضع ساعات. لذا، نحن نحجز لهم غرفة مخصصة، ونقدّم لهم القهوة والمعجنات، ونوظّف بضعة أشخاص من الطاقم ليعملوا كمساعدين لهم، وندعو ضيفاً متحدثاً مرة في الشهر».

«ماذا عن مجرد غرفة فارغة حيث يستطيع المرضى المصابون بالبداية المبكرة لمرض الألزهايمر الاجتماع والتحدث عن تجاربهم؟».

أستطيع أن أحضر القهوة والكعك بنفسي حباً بالله!

«إننا بحاجة إلى موظف متفرغ في المستشفى للإشراف على المجموعة. ولسوء الحظ، ليس لدينا أحد متوفر في الوقت الحالي».

ماذا عن أحد الموظفين المخصصين للإشراف على مجموعة الدعم المخصصة لمانحي الرعاية؟

«هل يمكنك أن تعطيني معلومات للاتصال بالمرضى الذين تعرفين أنهم مصابون بالبداية المبكرة لهذا المرض ليتسنى لي تنظيم شيء ما بنفسي؟».

«للأسف، لا يمكنني أن أعطيك تلك المعلومات. هل تودين أخذ موعد

للحضور والتحدث إلي؟ لدي ساعة مفتوحة عند العاشرة من صباح يوم الجمعة الواقع في السابع عشر من شهر كانون الأول».

«كلا، شكراً».

سمعت صوت ضجة عند الباب الأمامي، فاستيقظت من قيلولتها على الأريكة. كان المنزل بارداً ومظلماً، وأصدر الباب الأمامي صوت صرير وهو ينفتح.

«آسفة لأنني تأخرت!».

نهضت أليس ومشت نحو المدخل، فوجدت آنا واقفة هناك وبحوزتها كيس ورقي بني كبير بإحدى يديها، وكومة من البريد في اليد الأخرى. وكانت تقف فوق الحفرة مباشرة.

«كل المصابيح مطفأة هنا يا أمي. هل كنت نائمة؟ لا ينبغي أن تنامي في هذا الوقت المتأخر من اليوم. لن تستطيعي النوم في الليل».

مشت أليس نحو الباب الأمامي، ثم جلست القرفصاء، ووضعت يدها على الحفرة، ولكن ملمسها لم يكن كملمس فراغ خاوٍ. مررت أصابعها على صوف السجادة السوداء؛ سجادتها السوداء التي تضعها في المدخل. لقد ظلت في مكانها لسنوات. صفعتها بيدها المفتوحة بقوة لدرجة أن الصوت الذي أصدرته أحدث صدى قوياً.

«ما الذي تفعلينه يا أمي؟».

شعرت أليس بيدها تؤلمها، وكانت شديدة الإرهاق؛ حيث لا تقوى على تحمل ذل الإجابة عن سؤال آنا. شمّت رائحة فستق قوية صادرة من الكيس جعلتها تشعر بالغثيان.

«اتركيني وحدي!».

«لا بأس يا أمي. دعينا ندخل المطبخ، ونتناول العشاء».

وضعت آنا البريد جانباً، ومدت يدها إلى يد أمها؛ اليد التي كانت تؤلمها. فأبعدت أليس يدها عنها، وصاحت في وجهها.

«دعيني وشأني! اخرجي من بيتي! إنني أكرهك! لا أريدك هنا».

أصابت كلماتها آنا بألم أقسى مما لو صفعتها بيدها، وتغيّر تعبير وجهها رغم الدموع التي تدفقت من عينيها إلى تصميم هادئ، وقالت: «لقد جلبت طعام العشاء. وأنا أتضور جوعاً، وسأبقى هنا، وسأدخل المطبخ لآكل ثم سأخلد للنوم».

وقفت أليس في المدخل وحدها، والغضب والغيظ يحتدمان في نفسها. ثم فتحت الباب، وبدأت تسحب السجادة. انتزعتها بكل قوتها إلى أن سقطت على الأرض، ثم نهضت مجدداً وسحبتها وفتلتها وصارعتها إلى أن أصبحت كلها في الخارج. وبعد ذلك، راحت تركل وتصيح عليها باهتياج، إلى أن تدحرجت على الدرجات الأمامية وسقطت بلا حياة على الرصيف.

أجيبي عن الأسئلة التالية يا أليس.

1. في أي شهر نحن؟
2. أين تعيشين؟
3. أين يقع مكتبك؟
4. متى تحين ذكرى ميلاد آنا؟
5. كم ولداً لديك؟

إن عانيت من صعوبة في الإجابة عن هذه الأسئلة، افتحي مجلداً على كمبيوترك اسمه «الفراشة»، واتبعي التعليمات الموجودة فيه على الفور.

تشرين الثاني

كامبريدج

هارفرد

أيلول

ثلاثة

كانون الأول 2004

كان عدد صفحات أطروحة دان لشهادة الدكتوراة يبلغ 142 صفحة لا تتضمن المراجع. لم تقرأ أليس أي بحث بهذا الحجم منذ وقت طويل. فجلست على الأريكة، واضعة كلمات دان على حضنها، وهناك قلم أحمر متوازن على أذنها اليمنى، وقلم تظليل زهري في يدها اليمنى لتظل مواكبة لما تقرأه. وراحت تحدد كل شيء يلفت نظرها لأهميته، لكي يتسنى لها إن احتاجت إلى مراجعة شيء ما أن تعيد قراءة الكلمات الملونة فقط.

وجدت نفسها عالقة عند الصفحة السادسة والعشرين التي أصبحت مشبعة باللون الزهري، وشعرت أن دماغها بات مكتظاً بالمعلومات؛ حتى كاد يتوسل إليها كي تمنحه قسطاً من الراحة. تخيلت الكلمات الزهرية على الصفحة تتحول إلى حلوى قطنية زهرية دبقة عالقة في رأسها. فكلما قرأت أكثر، باتت بحاجة إلى تحديد المزيد لتفهم وتتذكر ما تقرأه. وكلما حددت كلمات أكثر أصبح دماغها مكتظاً بذلك السكر الدبق الزهري الذي يسد ويعيق مسارات دماغها بالكامل. ولدى وصولها إلى الصفحة السادسة والعشرين، لم تعد تفهم أي شيء.

سمعت نغمة تنبيه تدل على وصول رسالة بالإيميل على كمبيوترها.

رمت أطروحة دان على طاولة القهوة، وذهبت إلى الكمبيوتر في غرفة المكتب، فوجدت رسالة جديدة في صندوق الوارد من دينيز داداريو.

عزيزتي أليس،

لقد أوصلت فكرتك عن إنشاء مجموعة دعم للمصابين بالبداية المبكرة للألزهايمر إلى عدد من المرضى المصابين بهذه الحالة في وحدتنا، وإلى الناس في برايام ومستشفى النساء، فوردني رد من ثلاثة أشخاص يقطنون بالجوار أبدوا اهتماماً كبيراً بهذه الفكرة، وأعطوني الإذن لأرسل لك أسماءهم ومعلومات للاتصال بهم.

(انظري إلى الملف المرفق).

وقد تودين أيضاً الاتصال بهيئة مستشفى ماس لمرضى الألزهايمر. إذ ربما يعرفون عن مرضى آخرين يرغبون في مقابلتك.

أرجو أن تبقيني على اطلاع حول كيفية سير الأمور، وأن تعلميني إن كان بوسعي أن أزوّدك بأي معلومات أو نصائح أخرى. إنني أعتذر لأننا بشكل رسمي لم نستطع أن نقدّم لك المزيد هنا.

حظاً موفقاً!

دينيز داداريو

فتحت الملف المرفق.

ماري جونسون، سبعة وخمسون عاماً، مصابة بالخرف في الفص الدماغي الأمامي.

كاثي روبرتس، ثمانية وأربعون عاماً، مصابة بالبداية المبكرة لمرض الألزهايمر.

دان سوليفان، ثلاثة وخمسون عاماً، مصاب بالبداية المبكرة لمرض الألزهايمر.

ها قد تعرفت إليهم، إلى زملائها الجدد. فأخذت تكرر أسماءهم مرة تلو الأخرى. ماري وكاثي ودان. ماري وكاثي ودان. وتملكها نوع من البهجة الرائعة ممزوجة برعب بالكاد تستطيع كبحه؛ وهو شعور اختبرته مرات عديدة خلال الأسابيع التي تسبق أيامها الأولى في روضة الأطفال والكلية والدراسات العليا. كيف تبدو أشكالهم؟ ألا يزالون يمارسون أعمالهم؟ كم مضى عليهم من الوقت وهم يتعايشون مع حقيقة تشخيص مرضهم؟ هل أعراضهم كأعراضها أم ألطف منها أم أسوأ؟ هل يشبهونها بأي شيء؟ ماذا إن اكتشفت أنها متقدمة بالمرض أكثر منهم بكثير؟

أعزائي ماري وكاثي ودان،

اسمي أليس هولاند. أبلغ من العمر إحدى وخمسين سنة. تم تشخيص

إصابتي بالبداية المبكرة لمرض الألزهايمر في العام الماضي. عملت أستاذة في علم النفس بجامعة هارفرد لمدة خمس وعشرين سنة، ولكنني تنحيت عن منصبي بسبب الأعراض التي أصابتني في شهر أيلول الماضي.

والآن، ها أنا أجلس في البيت وأشعر بالوحدة الشديدة بسبب وضعي. لذا، اتصلت بالسيدة دينيز داداريو في المستشفى للحصول على معلومات عن مجموعة دعم للمصابين بالمراحل الأولى من الخرف، ولكن لم يكن لديهم سوى مجموعة مخصصة لمانحي الرعاية، ولا شيء لنا، ولكنها أعطتني أسماءكم.

أود أن أدعوكم جميعاً إلى بيتي لتناول الشاي والقهوة ولتبادل الحديث يوم الأحد القادم، في الخامس من كانون الأول، عند الساعة الثانية عصراً. أما مرافقوكم، فهم موضع ترحيب للحضور والبقاء إن أحبوا ذلك. لقد أرفقت بهذه الرسالة عنواني، والإرشادات إلى بيتي.

أتطلع قدماً للقائكم،

أليس.

ماري وكاتي ودان. ماري وكاتي ودان. أطروحة دان. **إنه ينتظر تنقيحي لها.** عادت إلى الأريكة في غرفة المعيشة، وفتحت أطروحة دان على الصفحة السادسة والعشرين، فعاد اللون الزهري ليغزو رأسها من جديد، وشعرت بصداع. ثم راحت تتساءل عمّا إذا كان أحدهم قد ردّ على رسالتها، فتركت ذلك «الشيء» المتعلق بدان حتى قبل أن تنهي الفكرة.

كبست على زر البريد الوارد، ولكن لا جديد.

صوت تنبيه...

رفعت سماعة الهاتف.

«مرحباً؟».

لم يجب أحد. تمنت أن تكون تلك ماري أو كاتي أو دان. **أطروحة دان!**

عادت إلى الأريكة وهي تبدو متوازنة ونشيطة وقلم التظليل بيدها، ولكنّ عينيها لم تركزا على الأحرف المكتوبة على الصفحة. وبدلاً من ذلك، استغرقت بأحلام اليقظة.

ترى، ألا يزال بوسع ماري وكاثي ودان أن يقرأوا ستاً وعشرين صفحة ويفهموا ويتذكروا كل ما قرأوه؟ ماذا إن كنت الوحيدة التي تظن أن سجادة موضوعة في مدخل البيت حفرة؟ ماذا إن كنت الوحيدة التي تتدهور حالتها؟ استطاعت أن تشعر بنفسها وهي تتدهور وتنهار داخل تلك الحفرة الجنونية وحدها.

راحت تئن: «إنني وحدي. إنني وحدي. إنني وحدي». وغاصت أكثر فأكثر في أوهام حفرتها الوحيدة كلما سمعت صوتها يتفوّه بتلك الكلمات.

صوت تنبيه...

أفزعها صوت جرس الباب وأخرجها من تخيلاتها. ترى، هل وصلوا؟ هل دعتهم لزيارتها اليوم؟

«دقيقة واحدة!».

فركت عينيها بكميها، ومررت أصابعها في شعرها المتلبد وهي تمشي. أخذت نفساً عميقاً وفتحت الباب، ولكنها لم تجد أحداً هناك.

كانت الهلوسات السمعية والبصرية حقائق مفروغاً منها بالنسبة إلى نصف مرضى الألزهايمر، ولكنها حتى تلك اللحظة لم تعان من أي منها، أو إن هذا حدث ربما بالفعل. فأثناء تواجدها وحدها في البيت، لم تكن هناك وسيلة واضحة تساعدها على معرفة ما إذا كان ما تختبره حقيقة أم مجرد وهم من أوهام الألزهايمر. فالحالات التي أصيبت فيها بالارتباك والتضليل وكل تلك الأشياء الخرفة ليست مظللة بالقلم الزهري لتبدو واضحة بشكل لا يدع مجالاً للخطأ ويميزها عمّا هو طبيعي وواقعي وصحيح. فمن وجهة نظرها هي، لم تستطع أن تميز الفرق بين هذا وذاك. فالسجادة حفرة، والصفارة صوت جرس الباب.

تفقدت صندوق الوارد مرة أخرى، فوجدت رسالة واحدة.

مرحباً يا أمي،

كيف حالك؟ هل ذهبت لحضور غداء حلقة البحث بالأمس؟ هل ذهبت للجري؟ لقد كانت دروسي رائعة كالمعتاد. لدي تجربة أخرى اليوم لصالح إعلان تجاري لمصرف. سنرى ما سيجري. كيف حال والدي؟ هل سيعود إلى البيت هذا الأسبوع؟ أعرف أن الشهر الماضي كان شاقاً. سآتي إلى البيت قريباً!

مع حبي،
ليديا.
صوت تنبيه...
رفعت سماعة الهاتف.
«مرحباً؟».
ولكن، لا شيء. فتحت درج خزانة الملفات العلوي، ووضعت الهاتف داخله، وسمعته يصطدم بالقعر المعدني وأغلقت الدرج. **لحظة، ربما يكون هاتفي المحمول.**
فبدأت تنشد بصوت مرتفع وهي تطوف في أنحاء البيت: «الهاتف المحمول... الهاتف المحمول...». لكي تبقي هدف بحثها حاضراً في ذهنها.
بحثت عنه في كل مكان، ولكنها لم تستطع العثور عليه. وبعد ذلك، تذكرت أنه يجب عليها البحث عن حقيبتها الزرقاء، فغيرت كلمات النشيد.
«الحقيبة الزرقاء... الحقيبة الزرقاء...».
عثرت عليها فوق منضدة المطبخ، ووجدت هاتفها المحمول داخلها، ولكنه كان مطفأ. ربما كانت الضجة هي صوت الساعة المنبهة من بيت أحد الجيران. استعادت وضعيتها على الأريكة، وعاودت فتح أطروحة دان على الصفحة السادسة والعشرين.
سمعت صوت رجل يقول لها: «مرحباً».
فرفعت أليس نظرها وعيناها مفتوحتان على وسعهما وكأنها رأت شبحاً.
سألها الصوت المنفصل عن الجسد الماثل أمامها: «أليس؟».
«نعم؟».
«هل أنت مستعدة للذهاب يا أليس؟».
ظهر جون عند عتبة باب غرفة المعيشة والترقب بادٍ عليه، فتنفست الصعداء براحة، ولكنها ظلت بحاجة إلى المزيد من المعلومات.
«هيا بنا، سنلتقي بوب وسارة لتناول العشاء، وقد تأخرنا عن الموعد».
العشاء، لقد انتبهت لتوها فقط أنها تتضور جوعاً. لم تتذكر أنها تناولت أي

طعام اليوم، وربما لهذا السبب لم تستطع أن تقرأ أطروحة دان. إذ ربما كانت بحاجة إلى تناول شيء من الطعام، ولكن فكرة العشاء والمحادثة في مطعم مليء بالضوضاء استنزفتها حتى أكثر من قبل.

«لا أريد الذهاب لتناول العشاء، فأنا أمضي وقتاً عصيباً الآن».

«وأنا أيضاً أمضيت يوماً عصيباً. لنذهب ونتناول عشاء لطيفاً معاً».

«اذهب وحدك. أما أنا فأريد أن أبقى في البيت وحسب».

«هيّا، ستمضين وقتاً ممتعاً. لم لا نذهب إلى حفلة إريك. سيكون من المفيد لك أن تخرجي من البيت. إنني واثق من أنهم سيسرون لرؤيتك؟».

كلا، لن يسرهم ذلك، بل سيشعرون بالراحة لأنني لست موجودة. فأنا مجرد فيل مصنوع من حلوى القطن الزهرية، وأجعل الجميع يشعرون بعدم الراحة، وأحوّل العشاء إلى سيرك مجنون يتلاعب به الجميع بشفقتهم وتوترهم وابتساماتهم المرغمة مع كؤوس شرابهم وشوكهم وسكاكينهم.

«لا أريد أن أذهب. قل لهم إنني أعتذر عن الحضور؛ فأنا لا أشعر برغبة في ذلك».

صوت تنبيه...

لاحظت أن جون قد سمع الضجة أيضاً، فتبعته إلى المطبخ. فتح باب المايكروويف وأخرج منه فنجاناً.

«إن هذا بارد جداً. هل تريدين أن تعيدي تسخينه؟».

لا بد أنها أعدت الشاي في الصباح ولكنها نسيت أن تشربه. وبعد ذلك، من المؤكد أنها وضعته في المايكروويف لتعيد تسخينه فنسيته داخله.

«كلا، شكراً».

«حسناً. إن بوب وسارة ينتظراننا الآن على الأرجح. هل أنت واثقة من أنك لا تريدين الذهاب؟».

«نعم، واثقة».

«لن أغيب طويلاً».

قبّلها ثم ترك البيت من دونها، فوقفت ساكنة في المطبخ، حيث تركها لوقت

طويل حاملة فنجان الشاي البارد بين يديها.

تأخر الوقت، وأوشكت أن تأوي إلى فراشها، ولكن جون لم يعد إلى البيت من العشاء بعد. وقبل أن تصعد إلى الطابق العلوي، لفتت انتباهها شاشة الكمبيوتر الزرقاء التي راحت تومض في غرفة مكتبها، فدخلت لتتفقد صندوق الوارد بحكم العادة، ومن دون أي فضول فعلي.

وها هي رسائلهم قد وصلت.

عزيزتي أليس،

اسمي ماري جونسون، وأبلغ من العمر سبعة وخمسين عاماً. تم تشخيص مرضي قبل خمس سنوات. إنني أعيش في الشاطئ الشمالي؛ ليس بعيداً كثيراً عنك. يا لها من فكرة رائعة تلك التي خطرت لك! إنني أود الحضور بكل تأكيد. سوف يوصلني زوجي باري إلى بيتك، ولكنني لست واثقة من أنه يريد البقاء. لقد تقاعدنا باكراً، لذا نحن نمضي كل الوقت معاً في البيت، وأظن أنه يود أن يبتعد عني ولو قليلاً فقط. أراك قريباً.

ماري.

مرحباً يا أليس،

اسمي دان سوليفان، وعمري ثلاثة وخمسون عاماً. تم تشخيص مرضي قبل ثلاث سنوات. إنه مرض وراثي في عائلتي. فوالدتي وخالي وإحدى خالاتي كلهم مصابون به، وكذلك أربعة من أبناء أخوالي وخالاتي. وهكذا، فقد توقعت هذا المصير وتعايشت معه في العائلة منذ نعومة أظفاري. من المضحك أن التعايش مع المرض لم يجعل من تشخيصه أمراً سهلاً على الإطلاق. إن زوجتي تعرف المكان الذين تعيشين فيه قرب هارفرد، فقد التحقت ابنتي بهارفرد. إنني أدعو كل يوم ألّا تصاب ابنتي بهذا المرض.

دان.

مرحباً يا أليس،

شكراً لك على رسالتك ودعوتك. لقد تم تشخيص مرضي مثلك قبل عام. ومع ذلك، شكّل الأمر راحة بالنسبة إليّ بعد أن ظننت أنني فقدت عقلي. فقد بدأت أتوه في غمرة المحادثات، وأعاني من صعوبة في إنهاء جملي، وأنسى طريقي إلى البيت. ولم أعد أفهم جدول مواعيدي بعد الآن. وأصبحت أرتكب أخطاء في جداول أولادي. فأنا لدي ابنة في الخامسة عشرة، وابن في الثالثة عشرة. كنت في السادسة والأربعين فقط عندما ظهرت الأعراض علي، لذا لم يخمن أحد قط أنه مرض الألزهايمر.

أظن أن الأدوية تساعدني كثيراً. فأنا أتعاطى عقاري آريسبت وناميندا. أمر بأيام جيدة وأخرى سيئة. أما الأيام الجيدة، فيستغلها الناس وحتى أفراد عائلتي كحجة ليزعموا أنني على خير ما يرام، وأنني أتظاهر بالمرض! إنني لست تواقة للفت الانتباه إلى هذا الحد! وعندئذ، يحل يوم سيئ، فلا أستطيع أن أفكر في الكلمات أو أركز على أي شيء، وأصبح عاجزة عن أداء أي مهمات متعددة على الإطلاق. أشعر بالوحدة مثلك تماماً، ولا أطيق الانتظار لمقابلتك.

كاثي روبرتس.

ملاحظة: هل لديك أي علم عن شبكة دعم الخرف العالمية؟ ادخلي إلى موقعهم التالي: www.dasninternational.org إنه موقع رائع للناس الذين يعانون من المراحل الأولى والبداية المبكرة مثلنا؛ للتنفيس عن مشاعرنا، والحصول على الدعم، ومشاركة المعلومات في ما بيننا.

وأخيراً، ها قد ظهر زملاؤها ووعدوها بالمجيء.

خلع كل من ماري وكاثي ودان معاطفهم، ثم عثر كل واحد منهم على كرسي في غرفة الجلوس. أما أزواجهم، فقد احتفظوا بمعاطفهم، وودعوهم على مضض، وغادروا المنزل برفقة جون لتناول القهوة في مقهى جيري.

كان لماري شعر أشقر يصل إلى ذقنها، وعينان بنيتان مستديرتان، وكانت تضع

نظارة ذات إطار داكن. أما كاثي، فكانت تتصف بوجه يبدو عليه الذكاء، وعينين تبتسمان حتى قبل أن تبتسم شفتاها؛ فأحبتها أليس على الفور. وكان لدان شارب سميك، وشعر خفيف، ويكاد يصبح أصلع، وهو ذو بنية ضخمة. قد يظنهم المرء أساتذة يزورونها من المدينة، أو أعضاء في نادي الكتاب، أو مجرد أصدقاء قدامى.

قالت أليس: «أيريد أحدكم أن أقدم له شيئاً للتفكير؟».

حدق كل منهم إلى الآخر وكأنهم غير راغبين في الرد على سؤالها. ترى، هل اعتراهم الخجل قبل المبادرة بالحديث.

فقالت كاثي: «هل قصدت أن تقولي شيئاً للشرب يا أليس؟».

«نعم، ماذا قلت إذاً؟».

«قلت للتفكير».

احمر وجه أليس؛ إذ لم يكن استبدال كلمة بأخرى أول انطباع تريد أن تقدمه لهم.

فعلق دان قائلاً: «حسناً، إنني في الواقع أرغب في بضعة فناجين من التفكير. فتفكيري يكاد يصبح فارغاً منذ أيام، لذا أود أن أعيد ملأه من جديد».

فضحكوا جميعاً على كلامه، وشكّل هذا رابطاً فورياً بينهم. أحضرت لهم القهوة والشاي، بينما استهلت ماري رواية قصتها.

«كنت أعمل وكيلة عقارات لاثنين وعشرين عاماً. وفجأة، بدأت أنسى المواعيد والاجتماعات والبيوت المفتوحة، وأذهب إلى البيوت ناسية المفاتيح. وتهت في طريقي ذات مرة وأنا متوجهة في سيارتي لأُري إحدى الزبونات ملكية معروضة للبيع في حي أحفظه عن ظهر قلب. فرحت أقود السيارة لخمس وأربعين دقيقة على غير هدى، في حين لم يكن الأمر يتطلب مني أكثر من عشر دقائق للوصول. لا يسعني أن أتخيل ما خطر ببالها.

كما أصبحت أستشيط غضباً بسرعة، وأنفجر في وجه الوكلاء الآخرين في المكتب؛ رغم أنني لطالما كنت هادئة ومحبوبة. وفجأة، بت معروفة بسرعة غضبي، وبدأت أفسد سمعتي بين الناس؛ وكانت سمعتي تشكل رأس مالي. فوصف لي طبيبي دواء مضاداً للاكتئاب. وعندما لم يجدِ ذلك الدواء نفعاً، وصف لي دواء

آخر، ثم دواء ثالثاً، وهكذا...».

قالت كاثي: «ظللت لوقت طويل أعتقد أنني مرهقة لأنني أتولى الكثير من المهام في وقت واحد. فقد كنت أعمل بنصف دوام كصيدلانية، وأربي طفلين، وأدير البيت وأنا أجري من مهمة إلى أخرى كدجاجة رأسها مقطوع. كنت في السادسة والأربعين من عمري فقط، لذا لم يخطر ببالي أنني ربما مصابة بالخرف. وعندئذ، ذات يوم حين كنت في العمل، نسيت أسماء الأدوية، ولم أعرف كيف أقيس كمية عشرة ميلمترات. وفي تلك اللحظة، أدركت أنني معرضة لأن أعطي المرضى النسبة الخطأ من عقار ما، أو عقاراً مختلفاً. بتعبير آخر، كنت أجازف بتعريض حياة الناس للخطر. وهكذا، خلعت رداء المعمل، وعدت إلى البيت مبكرة، ولم أعد إلى هناك قط. وشعرت أنني مدمرة، وظننت أنني فقدت عقلي».

سألت ماري: «ماذا عنك يا دان؟ ما هي الأشياء الأولى التي لاحظتها؟».

«اعتدت أن أؤدي الكثير من الأعمال المفيدة في البيت. وذات يوم، لم أعرف كيف أصلح بعض الأشياء التي لطالما أصلحتها بنفسي. اعتدت أن أحافظ على ورشتي مرتبة، وأن أضع كل شيء في مكانه. أما الآن، فهي في حالة فوضى تامة. اتهمت أصدقائي بأنهم عبثوا بالمكان واستعاروا أدواتي ولم يعيدوها عندما عجزت عن العثور عليها، ولكنني اكتشفت أنني السبب. كنت أعمل إطفائياً، فبدأت أنسى أسماء الأشخاص الذين يعملون معي في فوج الإطفاء، ولم أعد أستطيع أن أكمل جملي، ونسيت كيف أعد فنجاناً من القهوة. لاحظت الشيء نفسه عند أمي في فترة مراهقتي؛ فقد كانت تعاني من البداية المبكرة للمرض على حد سواء».

شاطروا بعضهم بعضاً قصصاً عن أعراضهم المبكرة، وصراعهم للحصول على تشخيص صحيح، وطرائقهم في التكيف مع الخرف. فراحوا يومئون ويضحكون ويبكون على قصص الأيام الضائعة، والأفكار الضائعة، وأحلام الحياة الضائعة. شعرت أليس أنها حرة، وأن صوتها مسموع، وشعرت أنها طبيعية.

سألت ماري: «أما زال زوجك يعمل يا أليس؟».

«نعم. إنه منهمك بأبحاثه وتدريسه في هذا الفصل الدراسي. كان يسافر كثيراً في الفترة الأخيرة، ومرضي يصعب الأمور عليه الآن، ولكننا نحن الاثنين لدينا

إجازة سنوية في نهاية الفصل القادم؛ مما سيسمح لنا بأن نبقى في البيت معاً لعام كامل».

قالت كاثي: «تستطيعين أن تنجحي، فقد أوشكت على الوصول».

بضعة أشهر فقط.

أرسلت آنا ليديا إلى المطبخ لتعد بودنغ الشوكلاتة البيضاء. وبعد أن بات الحمل واضحاً عليها الآن ولم تعد تشعر بالغثيان، بدا على آنا أنها تأكل بنهم، وكأنها في مهمة للتعويض عن السعرات الحرارية التي خسرتها خلال أشهر الغثيان الصباحي.

قال جون: «لدي أخبار جديدة. لقد عرض عليّ منصب رئيس قسم بيولوجيا السرطان وبرنامج الوراثة في مركز سلوان كيترينغ».

قالت آنا وهي تمضغ لقمة من التوت البري المغطى بالشوكولاتة: «وأين يقع هذا المركز؟».

«في مدينة نيويورك».

لم يتفوه أحد بكلمة.

فقالت آنا: «حسناً، لا بد أنك لا تفكر جدياً في قبول هذا المنصب، أليس كذلك؟».

«بل إنني أفكر في الموافقة فعلاً. فقد ذهبت إلى هناك عدة مرات في خريف هذا العام، وهو موقع مثالي بالنسبة إليّ».

سألت آنا: «ولكن، ماذا عن أمي؟».

«لم تعد تعمل بعد الآن. فهي بالكاد تذهب إلى حرم الجامعة».

فقالت آنا: «ولكنها بحاجة إلى البقاء هنا».

«كلا، ليست بحاجة إلى ذلك؛ فهي ستأتي معي».

قالت آنا: «آه، من فضلك. إنني آتي للجلوس معها في الليل عندما تتأخر في العمل، وأنام عندها عندما تسافر إلى خارج المدينة. وتوم يأتي عندما يتسنى له ذلك في العطلات الأسبوعية. نحن لسنا هنا طوال الوقت، ولكن...».

«هذا صحيح. أنتم لستم هنا طول الوقت، لذا لا تعرفون مدى السوء الذي يتطور إليه وضعها. إنها تتظاهر بأنها تعرف أكثر بكثير مما تعرفه في الواقع. أتظنين أنها ستقدر مكوثنا في كامبريدج بعد عام من الآن؟ إنها لا تميز حتى أين هي الآن. ومن الممكن أن نبلي بلاء حسناً جداً في نيويورك. فأنا أستطيع أن أقول لها إنها ساحة هارفرد، ولن تعرف الفرق بينهما».

فقال توم: «بل ستعرف يا أبي. لا تقل هذا الكلام».

«حسناً، لن ننتقل قبل أيلول. لا يزال أمامنا وقت طويل».

فقالت آنا: «لا يهم متى سيحدث هذا؛ فهي بحاجة إلى البقاء هنا. وستتدهور حالتها كثيراً إن انتقلتما».

قال توم: «وأنا أوافقك الرأي».

كانوا يتحدثون عنها وكأنها غير جالسة على كرسيها على بعد بضع أقدام فقط، أو وكأنها صماء. وكانوا يتحدثون عنها أمامها من دون أن يشركوها معهم وكأنها مصابة بالألزهايمر.

«إن هذا المنصب على الأرجح لن يتاح لي مرة أخرى في حياتي. وهم يريدونني».

قالت آنا: «أريدها أن تتمكن من رؤية التوأمين».

«إن نيويورك ليست بعيدة إلى هذا الحد، وليس هناك ما يضمن أنكم جميعكم ستبقون في بوسطن».

قالت ليديا: «أنا قد أكون هناك».

وقفت ليديا في مدخل الباب بين غرفة المعيشة والمطبخ. لم ترها أليس هناك قبل أن تتحدث، فجعلها ظهورها المفاجئ في المكان تجفل.

«لقد تقدمت بطلبات للالتحاق بجامعات كل من نيويورك وبرانديس وبراون وييل. وإن تم قبولي في جامعة نيويورك، وفي حال سافرتما أنت وأمي إلى هناك، فبإمكاني أن أعيش معكما وأساعدك. وإن بقيتما هنا، فبإمكاني أن ألتحق بجامعة براون أو برانديس لأبقى قريبة منكما أيضاً».

تمنت أليس أن تقول لليديا إن تلك كليات ممتازة، وأن تسألها عن برنامجها

واهتماماتها. وأرادت أن تعبّر لها عن فخرها بها، ولكن أفكارها انتقلت من حيز التفكير إلى فمها ببطء شديد اليوم، وكأنها تسبح أميالاً في مياه طينية قبل أن تصبح مسموعة، بينما غرق معظمها في مكان ما على طول الطريق.

قال توم: «هذا رائع يا ليديا».

سألت آنا: «هكذا إذاً؟! ستستمر بعيش حياتك ببساطة وكأن أمي ليست مصابة بالألزهايمر، وكأنه ليس لدينا الحق في الاعتراض على هذا القرار؟».

فقال جون: «إنني أقدم الكثير من التضحيات».

لقد أحبها طوال حياته، ولكنها جعلت هذا مهمة سهلة بالنسبة إليه. وكانت تعتبر الوقت المتبقي لهما معاً فرصة ثمينة لا تعوض، فهي لم تستطع أن تعرف كم من الوقت ستظل قادرة على الاعتماد على نفسها، ولكنها أقنعت نفسها بأنها تستطيع أن تصمد حتى نهاية عطلتهما السنوية. عطلة سنوية أخيرة معاً، وهذا ما رفضت أن تقايضه بأي شيء آخر.

ومع ذلك، كان هو على ما يبدو راغباً في المقايضة. **كيف يمكنه ذلك**؟! راح السؤال يصارع في ذلك النهر الموحل في رأسها من دون أن يعثر على إجابة. كيف يمكنه ذلك؟ وراح الجواب عن السؤال يركل عينيها من الخلف كالمطرقة، ويعتصر قلبها بعنف. فقد توجب على أحدهما أن يضحي بكل شيء.

أجيبي عن الأسئلة التالية يا أليس:

1. في أي شهر نحن؟
2. أين تعيشين؟
3. أين يقع مكتبك؟
4. متى تحين ذكرى ميلاد آنا؟
5. كم ولداً لديك؟

إن عانيت من صعوبة في الإجابة عن هذه الأسئلة، افتحي مجلداً على كمبيوترك اسمه «الفراشة»، واتبعي التعليمات الموجودة فيه على الفور.

كانون الأول

ساحة هارفرد

هارفرد

نيسان

ثلاثة

كانون الثاني 2005

«استيقظي يا أمي. كم من الوقت مضى عليها وهي نائمة؟».

«حوالي ثماني عشرة ساعة».

«هل حدث هذا معها من قبل؟».

«بضع مرات».

«إنني قلقة يا أبي. ماذا إن أفرطت في تناول جرعة دوائها بالأمس؟».

«كلا، فقد تفقدت علب الحبوب وموزع الدواء».

استطاعت أليس أن تسمعهما وهما يتحدثان، وفهمت ما يقولانه، ولكنها لم تبدِ أي اهتمام بكلامهما. فقد شعرت أنها تتنصت على محادثة تجري بين اثنين من الغرباء عن امرأة لا تعرفها. فلم تكن لديها أية رغبة في الاستيقاظ من النوم، ولم تكن حتى تدرك أنها نائمة.

«آلي، هل تستطيعين سماعي؟».

«هذه أنا يا أمي. أنا ليديا. هلّا تستيقظين».

تحدثت المرأة المدعوة ليديا عن رغبتها في الاتصال بالطبيب، أما الرجل المدعو أبي فقد عبّر عن رغبته في ترك المرأة المدعوة آلي نائمة لبعض الوقت. وبعد ذلك، تحدّثا عن طلب بعض الطعام المكسيكي ليتناولا العشاء في البيت، فربما تمكنت رائحة الطعام في البيت من إيقاظ المرأة التي تدعى آلي. وبعد ذلك، اختفى الصوتان، وعاد كل شيء من حولها مظلماً وهادئاً مجدداً.

شاهدت نفسها تمشي على طول طريق رملي يؤدي إلى غابة كثيفة، ثم عبرت سلسلة من الطرق المتعرجة خارجة من الغابة إلى جرف مكشوف شديد الانحدار. مشت إلى الحافة، ونظرت من فوقها، فوجدت المحيط تحتها متجمداً وصلباً،

وشاطئه مدفون تحت ركام كبير من الثلج. وجدت المنظر الماثل أمامها مجرداً من الحياة، وخالياً من الألوان، وساكناً إلى حد لا يطاق. صاحت منادية جون، ولكن صوتها لم يُسمع، فاستدارت لتعود أدراجها، ولكنها اكتشفت أن الطريق والغابة قد اختفيا. أطرقت ونظرت إلى كاحليها النحيلين الشاحبين وقدميها الحافيتين. وعندما لم يعد لديها خيار آخر، استعدت للقفز عن الجرف.

والآن، جلست على أحد كراسي الشاطئ، ودفنت قدميها في الرمل الناعم والدافئ ثم أخرجتهما منه مراراً، وتفرّجت على كريستينا، صديقتها المفضلة من أيام روضة الأطفال– والتي لا تزال في الخامسة من عمرها– وهي تطير طائرة ورقية على شكل فراشة. وتأملت زهور الأقحوان الزهرية والصفراء على ملابس السباحة التي ترتديها كريستينا، والأجنحة الزرقاء والبنفسجية على الطائرة الورقية، والزرقة في السماء، والشمس الصفراء، والطلاء الأحمر على أظفارها. وبالفعل، بدا كل لون تراه أكثر إشراقاً ووضوحاً من أي شيء آخر شاهدته في حياتها. وبينما هي تنظر إلى كريستينا، غمرها الفرح والحب؛ ليس لصديقة الطفولة وحدها، ولكنْ أيضاً للألوان الجريئة التي تأخذ بالألباب على ملابسها وطائرتها الورقية.

رأت كلاً من شقيقتها آن وابنتها ليديا– وهما في السادسة عشرة من عمريهما– مستلقيتين بجانب بعضهما بعضاً على منشفتَي شاطئ مخططتين بألوان الأحمر والأبيض والأزرق، بينما تلمع بشرتاهما العسليتان بملابس السباحة الزهرية تحت الشمس. فلفت نظرها أيضاً تألقهما وألوانهما الشبيهة بألوان الرسوم المتحركة ومنظرهما الساحر.

سأل جون: «هل أنت مستعدة؟».

«إنني خائفة قليلاً».

«استعدي الآن وإلا فلا».

نهضت من مكانها، فثبّت جون مظلة باراشوت برتقالية اللون إلى جذعها، ثم ضغط على الإبزيم وعدّله إلى أن شعرت أنها ثابتة وآمنة، وتمسك بكتفيها ليحول دون القوة الخفية التي تشدها إلى الأعلى.

سأل جون: «هل أنت مستعدة؟».

«نعم».

وأفلتها في الحال، فحلقت بسرعة مثيرة نحو ألوان السماء. وبدت الرياح التي سافرت عبرها مليئة بدوامات مبهرة من ألوان الأزرق والخزامى والفوشيا. أما المحيط فقد لاح تحتها وكأنه لوحة فنية من ألوان الأزرق الفيروزي والبحري والبنفسجي.

طارت طائرة كريستينا الورقية بحرية، وراحت تحلّق بمفردها في الجوار. فكان ذلك أروع منظر شاهدته أليس في حياتها. وأرادت الحصول عليها أكثر من أي شيء رغبت فيه في حياتها، فمدت يدها لتمسك بخيطها، ولكنّ تحركاً مفاجئاً في تيار الهواء جعلها تدور حول نفسها، فنظرت خلفها، ولكن مظلتها البرتقالية المتوهجة بلون الشمس حجبت عنها الرؤية. للمرة الأولى، اكتشفت أنها عاجزة عن مواجهة نفسها، فنظرت إلى الأرض، وبحثت عن النقاط الحيوية التي جلس فيها أفراد عائلتها، وتساءلت إن كانت هذه الرياح الجميلة المفعمة بالحياة ستعيدها إليهم.

كانت ليديا مستلقية وهي منطوية على نفسها إلى جانبها فوق الأغطية على سرير أليس. اختفت الظلال بينما امتلأت الغرفة بضوء النهار الناعم والخافت.

سألت أليس: «هل أنا أحلم؟».

«كلا، أنت مستيقظة».

«كم مضى علي وأنا نائمة؟».

«مضى يومان حتى الآن».

«آه، كلا! أنا آسفة».

«لا بأس يا أمي. يسرني أن أسمع صوتك مجدداً. هل تظنين أنك أخذت الكثير من الحبوب؟».

«لا أتذكر. ربما فعلت ذلك، ولكنني لم أتعمد حدوثه».

«قلقت عليك».

نظرت أليس إلى ليديا، وتأملت عن قرب ملامح وجهها، فميّزت كل تقاسيمها

كما يميّز الناس البيت الذي نشأوا فيه، أو كما يميّزون أصوات آبائهم وتجاعيد أيديهم؛ من دون أي جهد أو تفكير متعمد. ولكنّ ما أثار استغرابها هو أنها عانت من وقت عصيب في تمييز ليديا كشخص كامل.

قالت أليس: «كم أنت جميلة! أخشى أن يأتي يوم أنظر فيه إليك من دون أن أعرف من أنت».

«أظن أنه حتى لو أتى هذا اليوم ولم تعرفيني، فسوف تظلين تعرفين أنني أحبك».

«ماذا إن رأيتك ولم أعرف أنك ابنتي، ولم أعرف أنك تحبينني؟».

«عندئذ، سوف أقول لك إنني أحبك، وسوف تصدقينني».

أعجبت أليس بهذا الكلام. ولكن، هل سأحبها أنا على الدوام؟ هل يكمن حبي لها في رأسي أم في قلبي؟ كانت الأستاذة العالمة في داخلها تعتقد أن العواطف ناتجة عن دوائر كهربائية معقدة في الدماغ، وتلك الدوائر بالنسبة إليها في هذه اللحظة عالقة في خنادق، حيث تخوض معركة لن ينجو منها أحد. أما الأم في أعماقها، فقد أيقنت أن الحب الذي تكنه لابنتها آمن بعيداً عن العالم المجنون الكامن في عقلها؛ لأنه يستوطن صميم قلبها.

«كيف حالك يا أمي؟».

«لست جيدة كما ينبغي. لقد مرّ عليّ هذا الفصل بصعوبة من دون عملي في هارفرد، بالإضافة إلى تطور المرض، ووالدك الذي بالكاد يمكث في البيت. لقد أمضيت وقتاً صعباً جداً أكاد لا أقوى على احتماله».

«إنني آسفة جداً. أتمنى لو أنني أستطيع البقاء هنا وقتاً أطول. في الخريف القادم، سأصبح قريبة منك أكثر. فكرت في الانتقال الآن، ولكنني حصلت على دور في مسرحية رائعة. إنه دور صغير، ولكن...».

«لا بأس. إنني أتمنى أيضاً أن أتمكن من رؤيتك أكثر، ولكنني لن أطلب منك أن تكفي عن عيش حياتك الخاصة من أجلي».

والآن، فكرت في جون.

«إن والدك يريد أن ينتقل إلى نيويورك. فهناك عرض مقدم له من سلوان

كيتيرينغ».

«أعرف. فقد كنت هناك».

«لا أريد أن أذهب».

«لم أستطع أن أتخيلك وأنت تفعلين ذلك».

«لا أقوى على ترك هذا المكان. إذ ستحين ولادة التوأمين في شهر نيسان».

«لا أطيق الانتظار لرؤية ذينك الطفلين».

«وأنا أيضاً».

تخيلت أليس نفسها وهي تحملهما بين ذراعيها، وتخيلت جسديهما الدافئين وأصابعهما الصغيرة المنحنية وأقدامهما المكتنزة الناعمة وعيونهما المنتفخة المستديرة. تساءلت إن كانا سيشبهانها هي أم جون. وماذا عن رائحتهما؟ لم تكن تطيق الانتظار لتشم رائحة حفيديها الزكية.

إن معظم الأجداد يبتهجون لدى تخيلهم حياة أحفادهم، ويملأهم الأمل بحضور حفلاتهم الموسيقية وحفلات ذكرى ميلادهم وتخرجهم وزفافهم. ورغم أنها أيقنت أنها لن تكون موجودة لحضور الحفلات الموسيقية وحفلات ذكرى ميلادهما وتخرجهما وزفافيهما، إلا أنها ستكون موجودة لتمسك بهما وتشم رائحتهما. وأدركت أنها ستكره نفسها طوال حياتها إن جلست وحدها في مكان ما في نيويورك بدلاً من ذلك.

«كيف حال مالكوم؟».

«بخير. لقد شاركنا بمسيرة الذاكرة معاً في لوس أنجلوس؟».

«كيف يبدو شكله؟».

ارتسمت ابتسامة ليديا على شفتيها قبل أن تجيب عن السؤال.

«إنه فارع الطول، ويحب الخروج، وهو خجول بعض الشيء».

«كيف يتصرف بوجودك؟».

«إنه بالغ اللطف. وهو يحب ذكائي، ويشعر بفخر شديد بتمثيلي، ويتفاخر بي طوال الوقت؛ وهذا محرج لي بعض الشي. لا بد أنك ستحبينه».

«وكيف تتصرفين أنت معه؟».

فكرت ليديا في الأمر لبضع ثوان وكأنها لم تفعل ذلك من قبل.

«على طبيعتي».

«جيد».

ابتسمت أليس، وضغطت على يد ليديا، وفكرت في أن تسألها عما يعنيه هذا لها، ولكن الفكرة تبخرت بسرعة من رأسها قبل أن تتفوه بها.

سألت أليس: «ما الذي كنا نتحدث عنه للتو؟».

فقالت لها ليديا عارضة عليها بعض التلميحات: «مالكوم ومسيرة الذاكرة ونيويورك».

«إنني أذهب للمشي هنا في الأنحاء وأشعر بالأمان. وحتى لو شعرت أنني تهت قليلاً، ففي نهاية المطاف أرى معلماً مألوفاً من معالم المكان، وأناساً في المتاجر يعرفونني ويرشدونني إلى الاتجاه الصحيح. كما أن الفتاة التي تعمل في مقهى جيري تحافظ دائماً على محفظتي ومفاتيحي. لدي أصدقاء مجموعة الدعم هنا أيضاً، وأنا بحاجة إليهم. لن يكون بوسعي أن أتعلم التجول في نيويورك الآن، لذا سأفقد ما تبقى من استقلاليتي هناك. والوظيفة الجديدة تعني أن والدك سيعمل طوال الوقت، لذا سأفقده هو أيضاً».

«يجب عليك أن تقولي هذا لأبي يا أمي».

كانت محقة في قولها، ولكنّ أليس وجدت أنه من الأسهل أن تقول لها هذا الكلام.

«إنني فخورة بك يا ليديا».

«شكراً».

«وفي حال نسيت، أريدك أن تعرفي أنني أحبك».

«وأنا أيضاً أحبك يا أمي».

قالت أليس: «لا أريد أن أنتقل إلى نيويورك».

فأجاب جون: «لا يزال الوقت مبكراً على هذا الموضوع. لذا، ليس علينا أن نتخذ قراراً بشأنه الآن».

«ولكنني أريد أن أتخذ قراراً الآن. وقد اتخذت قراري. إنني أريد أن أصارحك برأيي بكل وضوح حيال هذه المسألة بينما لا يزال بوسعي القيام بذلك. وأنا لا أريد أن أنتقل إلى نيويورك».

«وماذا إن انتقلت ليديا إلى هناك؟».

«وماذا إن لم تفعل؟ كان ينبغي لك أن تناقش الأمر معي على انفراد قبل أن تعلنه للأولاد».

«فعلت ذلك».

«كلا، لم تفعل».

«بلى، فعلت ذلك عدة مرات».

«آه، إذاً أنا لا أتذكر. كم هذا مريح لك!».

أخذت نفساً من أنفها وأخرجته من فمها، وسمحت للحظة هدوء أن تخرجها من جو جدال المدرسة الابتدائية الذي بدآ يتورطان فيه.

«جون، أعرف أنك كنت تلتقي أناساً من سلوان كيترينغ، ولكنني لم أدرك قط أنهم أرادوا بذلك إغراءك بتولي منصب لديهم في السنة القادمة. وكنت سأعترض لو عرفت ذلك».

«لقد أخبرتك عن سبب ذهابي إلى هناك».

«جيد. هل هم موافقون على السماح لك بأخذ إجازتك السنوية، ثم البدء بعملك اعتباراً من شهر أيلول؟».

«كلا، فهم بحاجة إلى شخص ما الآن. لقد عانيت الكثير من المشقة في مفاوضتهم حتى هذه اللحظة، ولكنني ما زلت بحاجة إلى بعض الوقت لإنهاء بعض الأشياء في المختبر هنا».

«أليس بإمكانهم توظيف أحد ما بشكل مؤقت، حيث يتسنى لك أن تمضي إجازتك السنوية معي، ثم يصبح بوسعك البدء بالعمل بعد ذلك؟».

«كلا».

«هل سألتهم قبل أن تجزم بذلك؟».

«أصغي إليّ. إن هذا المجال مليء بالمنافسة في الوقت الحاضر، وكل ما فيه

يتحرك بسرعة شديدة. نحن على وشك التوصل إلى اكتشافات ضخمة، وأعني بهذا أننا قاب قوسين أو أدنى من التوصل إلى علاج للسرطان. إن شركات الأدوية تبدي اهتمامها بما لدينا، ولكنّ كل الدروس والشؤون الإدارية في هارفرد لا تفعل شيئاً سوى أنها تبطئ من سرعتي. وإن لم أنتهز هذه الفرصة، فقد أدمر فرصتي الوحيدة في التوصل إلى اكتشاف علمي له أهمية حقيقية».

«هذه ليست فرصتك الوحيدة؛ فأنت شديد البراعة والذكاء، ولست مصاباً بداء الألزهايمر؛ لذا سوف تدق بابك فرص أخرى عديدة في حياتك».

نظر إليها ولم ينبس بحرف، فتابعت كلامها قائلة: «إن السنة القادمة بالنسبة إليّ هي فرصتي الوحيدة يا جون، وليست فرصتك أنت. فالسنة القادمة هي فرصتي الأخيرة لعيش حياتي بينما أدرك ما تعنيه بالنسبة إليّ. لا أظن أن لدي الكثير من الوقت لأعيش فيه على طبيعتي، وأريد أن أقضي هذا الوقت معك، ولا أصدق أنك لا تريد أن نقضيه معاً».

«بل أريد ذلك. سنكون معاً».

«هذا محض هراء، وأنت تدرك هذا. إن حياتنا هنا؛ حياتنا مع توم وآنا والتوأمين وماري وكاثي وادن وربما ليديا. إن قبلت هذه الوظيفة فسوف تعمل طوال الوقت، وأنت تدرك هذا تمام الإدراك، وهذا سيجعلني وحيدة كل الوقت. ليس لهذا القرار علاقة برغبتك في المكوث معي فقط، ولكنه سيسلبني كل ما تبقى لي في حياتي. إنني لست ذاهبة».

«لن أعمل طوال الوقت، أعدك بذلك. وماذا إن عاشت ليديا في نيويورك؟ ماذا إن تمكنت من المكوث مع آنا وتشارلي أسبوعاً في الشهر؟ هناك طرائق يمكننا بواسطتها أن نحل هذه المسألة حيث لا تبقين وحدك».

«ماذا إن لم تأتِ ليديا إلى نيويورك؟ ماذا إن التحقت بجامعة برانديس؟».

«لهذا السبب أظن أنه ينبغي لنا الانتظار لنتخذ قرارنا في وقت لاحق؛ عندما يتوفر لدينا المزيد من المعلومات».

«أريدك أن تحصل على الإجازة السنوية».

«ليس الخيار بالنسبة إليّ يا أليس أن أقبل بالمنصب في سلوان أو آخذ الإجازة

السنوية، بل الخيار هو إما القبول بالمنصب أو الاستمرار في وظيفتي هنا في هارفرد. إذ لا يمكنني أن آخذ السنة القادمة إجازة بأي حال من الأحوال».

أصبح بصرها مكسواً بغشاوة، بينما راح جسدها ينتفض، وعيناها تحترقان بدموع الغضب.

«لا أستطيع أن أفعل هذا بعد الآن. من فضلك! لم أعد قادرة على الصمود أكثر من ذلك من بدونك! يمكنك أن تأخذ السنة إجازة إن أردت ذلك، وهذا ما أريد منك أن تفعله».

«ماذا إن رفضت العرض وأخذت السنة إجازة ولكنك لم تعودي تعرفين من أنا!؟».

«ماذا إن ظللت أعرفك الآن ولكنني في السنة القادمة لم أعد أعرفك؟ كيف تقوى حتى على مجرد التفكير في قضاء الوقت المتبقي لنا معاً قابعاً في مخبرك اللعين؟ أنا ما كنت لأفعل هذا بك».

«ما كنت لأطلب منك ذلك».

«لم يكن ليتوجب عليك ذلك».

«لا أظن أنني أستطيع أن أفعل هذا يا أليس. إنني آسف، ولكنني لا أظن أنني أقوى على المكوث في البيت سنة كاملة لأقوم بمجرّد مشاهدة كل ما يسلبك إياه ذلك المرض. لا أستطيع أن أتحمل مشاهدتك وأنت عاجزة عن ارتداء ملابسك أو تشغيل التلفزيون. أما عندما أمضي وقتي في المختبر، فلن يتوجب علي أن أشاهدك وأنت تضعين ملصقات تذكرك بالأشياء على الخزائن والأبواب كافة. إنني لا أقوى على مجرد البقاء في البيت ومشاهدة حالتك وهي تزداد سوءاً، فهذا يقتلني».

«كلا، يا جون. إنه يقتلني أنا وليس أنت. ستزداد حالتي سوءاً سواء أكنت في البيت لتشاهدني أو تختبئ في مختبرك. إنك تفقدني كما أفقد نفسي، ولكنك إن لم تمضِ السنة القادمة معي، فعندئذ سنفقدك أولاً. أنا مصابة بالألزهايمر. أما أنت، فما عذرك؟».

أخرجت العلب المعدنية والصناديق والزجاجات والكؤوس والأطباق

والزبادي والقدور والمقالي، وكدست كل شيء على طاولة المطبخ. وعندما لم يتبقَّ لديها مكان، وضعت ما تبقى من أشياء على الأرض.

أخرجت كل المعاطف من خزانة الممر، وفتحت سحاباتها، وقلبت جيوبها إلى الخارج، فعثرت على نقود وتذاكر ومناديل ورقية. وبعد كل عملية بحث، كانت تلقي المعاطف المسكينة على الأرض.

وبعد ذلك، ألقت المخدات عن الآرائك والكراسي، وأفرغت درج مكتبها وخزانة الملفات، ثم أفرغت محتويات حقيبة كتبها وحقيبة كمبيوترها المحمول وحقيبتها الزرقاء. ونقّبت عبر أكوام الأغراض وهي تلمس كل غرض بيدها لتسجل اسمه في رأسها، ولكن لا شيء.

لم يكن بحثها يتطلب منها أن تتذكر الأماكن التي سبق لها أن بحثت فيها؛ فأكوام الأغراض المقلوبة رأساً على عقب دلتها على عمليات تنقيبها السابقة. ومن مظهر الأشياء، أدركت أن عملية البحث غطت الطابق الأول بأكمله. أخذت تتعرق وهي مضطربة ومرتبكة، ولكنها لم تكن لتستسلم، فأسرعت جرياً صاعدة إلى الطابق العلوي.

بحثت في سلة الغسيل، وعلى الطاولتين بجانب السرير، وفي أدراج غرفة النوم، وأدرج الخزانة، وصندوق مجوهراتها، وخزانة البياضات، وخزانة الأدوية. حمام الطابق السفلي! أسرعت في نزول الدرج مرة أخرى وهي تتعرق باهتياج.

فوجدت جون واقفاً في المدخل وقدماه غارقتان في المعاطف حتى كاحليه.

سألها: «ما الذي يجري هنا بحق الله؟».

«إنني أبحث عن شيء ما».

«ما هو؟».

لم تستطع أن تعرف اسمه، ولكنها كانت واثقة من أنها تتذكره وتعرفه في مكان ما في رأسها.

«سأعرفه عندما أعثر عليه».

«إن المكان عبارة عن كارثة حقيقية هنا. يبدو الأمر وكأننا تعرضنا للسرقة».

لم تخطر الفكرة في بالها، ولكن خطر ببالها الآن أن هذا قد يفسر سبب عدم

عثورها عليه.

«يا إلهي! ربما سرقه أحد».

«لم يسرقنا أحد، بل أنت التي قلبت المنزل رأساً على عقب».

عثرت على سلة مليئة بالمجلات لم تمسها من قبل بجانب الأريكة في غرفة المعيشة، فتركت جون ونظرية السرقة التي طرحها من حيث يقف في مدخل البيت، ورفعت السلة الثقيلة، وسكبت المجلات على الأرض، وراحت تنقب بينها، ثم ابتعدت عنها. فتبعها جون.

«كفّي عن هذا يا أليس. إنك حتى لا تعرفين ما تبحثين عنه».

«بل أعرف».

«ما هو إذاً؟».

«لا أستطيع التحديد».

«ماذا يشبه شكله؟ فيمَ تستخدمينه؟».

«قلت لك إنني لا أعرف، ولكنني سأعرف عندما أعثر عليه. يجب أن أعثر عليه وإلا فسأموت».

فكرت في ما قالته للتو، ثم قالت: «أين أدويتي؟».

دخلا المطبخ، وشقا طريقهما بين علب الحبوب وعلب الحساء والتونا، فعثر جون على علب فيتاميناتها وأدويتها على الأرض، وعلى موزع الدواء المخصص لأيام الأسبوع على طاولة المطبخ.

وقال: «ها هي».

ولكن الحاجة الملحة، والشعور بأنها تخوض معركة حياة أو موت لم يتبددا لدى رؤيتها علب الدواء.

«كلا، ليست هذه».

«هذا محض جنون. يجب أن تتوقفي عن هذا البحث، فقد تحول البيت إلى مقلب قمامة».

قمامة!

فتحت سلة القمامة، وأخرجت الكيس وأفرغت محتوياته على الأرض.

«أليس!».

مررت أصابعها بين قشور الأفوكادو، ودهن الدجاج اللزج، والمناديل الورقية المجعدة، والعلب الكرتونية الفارغة، وأنواع القمامة الأخرى، فعثرت على القرص الليزري الذي كتب عليه «أليس هولاند». أمسكت العلبة الرطبة بين يديها وتفحصتها. حقاً لم أقصد أن أرمي هذا القرص.

فقال جون: «ها هو أخيراً! لا بد أنه هو. يسرني أنك عثرت عليه».

«كلا، ليس هذا ما أبحث عنه».

«حسناً. من فضلك، هناك قمامة تغطي أنحاء الأرضية كافة. كفّي عن هذا وحسب، واذهبي واجلسي واسترخي، فأنت مصابة بحالة اهتياج. ربما إن جلست واسترخيت عادت الذكرى إليك».

«حسناً».

ربما إن جلست ساكنة، فستتذكر ما تبحث عنه وأين وضعته، أو ربما ستنسى أنها كانت تبحث عن شيء ما.

الثلج الذي بدأ يتساقط في اليوم السابق إلى أن تراكم بسماكة قدمين في أنحاء نيو إنجلند كافة توقّف عن الهطول لتوه فقط. ربما ما كانت لتلاحظه لولا صوت صرير المساحتَين وهما تتحركان يميناً ويساراً على نافذة السيارة الأمامية التي جفت حديثاً، فأوقفهما جون عن العمل. لاحظت أن الثلج مجروف عن الطرقات، ولكن سيارتهما كانت السيارة الوحيدة في الشارع. لطالما أحبت أليس الشعور بالهدوء الذي يتبع عاصفة ثلجية، ولكنه اليوم أثار أعصابها.

قاد جون السيارة إلى موقف سيارات مقبرة ماونت أوبورن؛ وهو عبارة عن مكان متواضع لركن السيارات تم جرف الثلج منه، ولكن المقبرة بحد ذاتها وطرق المشي فيها وشواهد القبور ظلت مغطاة بطبقة من الثلج.

قال: «كنت أخشى أن نجدها لا تزال بهذا الشكل. سيتوجب علينا أن نعود في يوم آخر».

«كلا، انتظر. دعني ألقي نظرة عليها لدقيقة واحدة».

كانت الأشجار القديمة، وأغصانها المتشعبة والمتجمدة تحكم هذا العالم الأبيض العجيب. استطاعت أن ترى عدداً ممّا يفترض أنها القمم الرمادية لشواهد القبور الطويلة المزخرفة التي دفن فيها أموات كانوا أثرياء ومميزين في الماضي، حيث بدت بارزة من فوق سطح الثلج، ولكنّ هذا كل شيء. فكل الشواهد الأخرى كانت مدفونة تحت ركام من الثلج. جثث متحللة مدفونة تحت التراب والحجارة. والتراب والحجارة مدفونة تحت الثلج. كل شيء حولها كان متشحاً باللونين الأسود والأبيض ويبدو متجمداً وميتاً.

«جون؟».

«ماذا؟».

تفوّهت باسمه بصوت مرتفع كسرت به جدار الصمت بشكل مفاجئ، مما جعله يجفل.

«لا شيء. يمكننا أن نذهب الآن. لا أريد أن أبقى هنا».

«يمكننا أن نحاول العودة إلى هناك مرة أخرى خلال الأسبوع إن أردت ذلك».

فسألت أليس: «إلى أين ؟».

«إلى المقبرة».

«آه».

جلست إلى طاولة المطبخ، فصبّ جون الشراب في كأسين، وأعطاها إحداهما، فراحت تدير الكأس بحكم العادة. ظلت مراراً تنسى اسم ابنتها التي تعمل ممثلة، ولكنها استطاعت أن تتذكر كيف تدير كأسها، وتعرف أنها تحب فعل هذا. يا له من مرض مجنون! أعجبتها الحركة اللولبية للشراب في الكأس، ونكهته، والدفء الذي شعرت به وهو يستقر في معدتها.

وقف جون أمام باب الثلاجة المفتوحة، وأخرج قطعة من الجبن، وليمونة، وشيئاً حاراً، وبضع حبات من خضار حمراء.

سألها: «ما رأيك بطبق الدجاج بالصلصة الحمراء؟».

«جيد».

فتح المجمدة، وراح ينقب داخلها، ثم سأل: «هل لدينا دجاج؟».

فلم ترد عليه.

«آه، كلا يا أليس».

واستدار ليريها شيئاً في يده، فوجدت أنه جهاز البلاكبيري الخاص بها.

«إنه جهاز البلاكبيري. لقد عثرت عليه الآن في المجمدة».

وأخذ يضغط على الأزرار ويهزه ويفركه.

ثم قال: «يبدو لي أن الماء قد دخل فيه. يمكننا أن ننتظر لنرى ما سيحدث بعد أن يذوب الثلج، ولكنني أعتقد أنه تالف».

فانفجرت باكية وهي مفطورة القلب.

«لا بأس. إن اتضح أنه تالف، فسأحضر لك واحداً جديداً».

كم أنا سخيفة لأنني أنزعج بسبب جهاز إلكتروني معطل! ربما أجهشت بالبكاء حزناً على موت أمها وأختها وأبيها، وربما تملكها شعور توقعته من قبل ولكنها لم تستطع أن تعبر عنه بشكل ملائم في المقبرة. بدا لها هذا منطقياً أكثر، ولكنه ليس صحيحاً. فربما جسّد لها تلف جهازها موت منصبها في هارفرد ونعيها لمهنتها. وجدت هذا تفسيراً منطقياً أكثر، ولكن ما شعرت به مثّل لها حزناً لا يمكن مواساته بسبب تلف جهاز البلاكبيري نفسه.

شباط 2004

ألقت بنفسها على الكرسي بجانب جون مقابل الدكتور ديفيز وهي تشعر بأنها منهكة عقلياً وعاطفياً. وكانت قبل قليل تجري عدة اختبارات نفسية عصبية في تلك الغرفة الصغيرة مع تلك المرأة التي تجري الاختبارات؛ لوقت طويل أشبه بالتعذيب. شعرت أن الكلمات والمعلومات والمعاني في أسئلة المرأة والإجابات عنها أشبه بفقاعات الصابون التي تتطاير في الجو في يوم عاصف. فقد عصفت بها الرياح بعيداً عنها باتجاهات كثيرة، مما جعلها تصاب بالدوار. وتطلّب الأمر منها جهداً عظيماً وتركيزاً هائلاً لتستطيع متابعتها بشكل متواصل. وحتى إن تمكنت من الانتباه إلى عدد منها لفترة بسيطة من الزمن، فقد كانت في نهاية المطاف تنفجر بشكل لا مفر منه! وهكذا، اختفت وانفجرت من دون سبب واضح في غياهب النسيان؛ وكأنها لم تدخل حيز الوجود قط. والآن، حان دور الدكتور ديفيز ليتولى لعبة الفقاعات بنفسه.

سأل الطبيب: «حسناً يا أليس. هل يمكنك أن تهجئي لي كلمة «مياه» عكسياً؟».

لو أنها سئلت هذا السؤال قبل ستة أشهر أو نحو ذلك لربما اعتبرته سؤالاً سخيفاً جداً، بل مهيناً، ولكنها اليوم وجدته سؤالاً جاداً ويتطلب منها بذل جهد كبير. لقد شعرت الآن بالقلق والإهانة إلى حد ما؛ فقط من هذا السؤال، وليس بقدر قلقها وشعورها بالإهانة قبل ستة أشهر. وشيئاً فشيئاً، بدأت تشعر بنمو مسافة كبيرة بينها وبين وعيها لنفسها وشعورها بأليس بحد ذاتها؛ بكل ما تعرفه وتفهمه وتحبه وتكرهه وما تشعر به وتدركه. فقد تحول كل هذا إلى فقاعة صابون تطير في السماء، وتحلق عالياً لدرجة تجعل من الصعب عليها أن تحدد مكانها، ولا يحميها من الانفجار سوى غشاء بالغ الرقة.

راحت تهجئ كلمة «مياه» من بدايتها إلى نهايتها في سرّها وهي تمد أصابعها

الخمس في يدها اليسرى، حيث تمثل كل إصبع حرفاً.

لفظت أول حرف ثم طوت إحدى أصابعها، ثم هجأتها بشكلها الصحيح مرة أخرى وتوقفت عند إصبع الخاتم التي طوتها.

وهجأت حرفاً آخر، ثم كررت العملية نفسها.

وهجأت الحرف الثالث وهي تمد إصبع سبابتها وإبهامها وكأنهما مسدس، ثم همست بالحرفين المتبقيين لنفسها.

وابتسمت، ورفعت قبضة يدها بشكل يوحي بالانتصار. نظرت إلى جون الذي راح يفتل خاتم زواجه بتوتر وهو يبتسم لها ابتسامة فاترة.

قال الدكتور ديفيز: «عمل جيد». وابتسم لها ابتسامة عريضة، وبدا متأثراً، فأعجبت به أليس.

«والآن، أريد منك أن تشيري إلى النافذة بعد أن تلمسي خدك الأيمن بيدك اليسرى».

رفعت يدها اليسرى إلى وجهها، ولكن...

سألت أليس: «هل يمكنك أن تعيد لي الاتجاهات مرة أخرى؟». وظلت يدها اليمنى أمام وجهها.

تصرف الدكتور ديفيز بتعاطف، وكأنه والد يسمح لطفله بأن ينجو بفعلته عندما يسترق النظر إلى أوراق الآخرين في لعبة الورق، أو بالمضي بضعة إنشات في لعبة سباق قبل إشارة البدء، وقال لها: «أشيري إلى النافذة بعد أن تلمسي خدك الأيمن بيدك اليسرى».

رفعت يدها اليسرى إلى خدها الأيمن قبل أن ينهي كلامه، ثم مدت يدها اليمنى إلى النافذة بأقصى سرعة، ثم تنفست الصعداء.

قال الدكتور ديفيز: «جيد، يا أليس».

لم يقدم جون أي مديح أو إيماءة تدل على السعادة أو الفخر.

«حسناً، والآن أريدك أن تكرري لي الاسم والعنوان نفسيهما اللذين طلبت منك أن تتذكريهما في وقت مبكر».

الاسم والعنوان. اعتراها شعور غريب؛ كشعورها لدى استيقاظها من النوم

ليلاً، وهي تعرف أن حلماً قد راودها. ورغم أنها تدرك أنه يتعلق بشيء معين، إلا أنها مهما حاولت أن تفكر فيه فتفاصيل الحلم راوغتها واختفت إلى الأبد.

«جون الفلاني. في كل مرة تسألني هذا السؤال، ولم أتمكن قط من تذكر أين يعيش ذلك الشخص».

«حسناً، دعينا نخمن. هل اسمه جون بلاك أم جون وايت أم جون جونز أم جون سميث؟».

لم تكن لديها فكرة، ولكنها لم تمانع أن تجرب حظها.

«سميث».

«هل يعيش في إيست ستريت أم ويست ستريت أم نورث ستريت أم ساوث ستريت؟».

«ساوث ستريت».

«هل بلدته هي آرلينغتون أم كامبريدج أم برايتون أم بروكلين؟».

«بروكلين».

«حسناً يا أليس. أين ورقة العشرين دولاراً؟».

«في محفظتك؟».

«كلا. في وقت مبكر خبّأت ورقة من فئة عشرين دولاراً في مكان ما في الغرفة. هل تتذكرين أين وضعتها؟».

«هل فعلت هذا أثناء وجودي هنا؟».

«نعم. هل هناك أي أفكار تخطر ببالك؟ سأدعك تحتفظين بها إن عثرت عليها».

«حسناً، لو أنني أعرف ذلك، فمن المؤكد أنني كنت سأكتشف طريقة ما لأتذكر مكانها».

«إنني واثق من أنك كنت ستفعلين ذلك. هل لديك أية فكرة عن مكانها؟».

لاحظت أن تركيز نظره تحرك للحظة قصيرة إلى يمينها، فوق كتفها، ثم عاد ليستقر عليها. فالتفتت إلى الوراء، وشاهدت خلفها لوحاً أبيض معلقاً على الجدار كتبت عليه بضع كلمات باللون الأحمر. **غلوتومات إل تي بي موت الخلية المبرمج.**

وكان القلم الأحمر موضوعاً على صينية في الأسفل، وبجانبه ورقة مطوية قيمتها عشرون دولاراً. فنهضت وهي مسرورة إلى اللوح الأبيض وحصلت على جائزتها.

ضحك الدكتور ديفيز وقال: «لو أن كل مرضاي أذكياء مثلك، لأعلنت إفلاسي على الفور».

قال جون: «لا يمكنك أن تحتفظي بها يا أليس، فقد رأيته ينظر إليها».

فقالت أليس: «بل فزت بها».

قال الدكتور ديفيز: «لا بأس. لقد عثرت عليها».

قال جون: «هل من الطبيعي أن تكون هكذا بعد سنة واحدة فقط رغم تناولها الأدوية؟».

«حسناً، هناك على الأرجح بضعة أشياء تحدث هنا. فمرضها على ما يبدو بدأ قبل وقت طويل من تشخيصه في شهر كانون الثاني الماضي. ولا بد أنكم- هي وأنت وعائلتكما وزملاؤها- قد تجاهلتم عدداً من الأعراض، واعتبرتموها محض صدفة أو شيئاً طبيعياً، أو عزوتموها إلى التوتر أو عدم الحصول على قسط وافر من النوم أو الإفراط في الشرب أو غير ذلك، ولكن بداية مرضها ربما يعود تاريخها إلى عام أو اثنين أو ربما أكثر من ذلك.

كما أنها سيدة تتمتع بقدر عالٍ من الذكاء. وإن كان الإنسان العادي يملك، لنعط مثالاً بسيطاً، عشرة مشابك عصبية تؤدي إلى معلومة ما، فمن الممكن بكل سهولة أن تكون لدى أليس خمسون منها. وعندما يفقد الإنسان العادي هذه المشابك العصبية العشرة، فتلك المعلومة يصبح من المتعذر الوصول إليها، أي ينساها. وفي هذه الحالة، من الممكن لأليس أن تفقد تلك المشابك العشرة وتظل لديها أربعون طريقة أخرى للوصول إلى الهدف. وهكذا، لم تكن خسائرها التشريحية ملحوظة بشكل عميق أو وظيفي في بداية المرض».

فقال جون: «ولكنها بحلول هذا الوقت خسرت أكثر من عشرة».

«نعم، أعتقد أن هذا قد حدث للأسف. فذاكرتها القريبة تتراجع الآن إلى القاع، بنحو نسبة ثلاثة بالمئة مقارنة مع الأشخاص القادرين على إكمال هذه الاختبارات. كما أن معالجتها اللغوية قد انحسرت بشكل ملحوظ. بالإضافة إلى أنها تفقد وعيها

الذاتي، وكل هذا من المتوقع أن نراه.

ولكنها أيضاً داهية إلى حدٍّ مدهش. فقد استخدمت اليوم عدداً من الطرائق المبتكرة للإجابة بشكل صحيح عن الأسئلة التي لم تستطع أن تتذكرها».

فقال جون: «وبغض النظر عن ذلك، هناك الكثير من الأسئلة التي لم تستطع أن تجيب عنها بشكل صحيح».

«نعم، هذا صحيح».

سأل جون: «إن الوضع يزداد سوءاً بشكل سريع. ألا يمكننا أن نزيد الجرعة التي تتناولها من كل من دواء آريسبت أو نامیندا؟».

«كلا، فهي تتناول الآن الجرعة القصوى من كل منهما. لسوء الحظ، إن هذا المرض يتطور وينحدر باستمرار، وليس له علاج. إنه يزداد سوءاً على الرغم من أي علاج متوفر حتى هذه اللحظة».

قال جون: «ومن الواضح أنها إما تتناول الدواء الوهمي، أو أن ذلك العقار المدعو آميليكس لا يحدث أي مفعول».

توقف الدكتور ديفيز للحظة وكأنه يفكر في ما إذا كان يوافقه الرأي أو لا.

«أعرف أنك مثبط العزيمة، ولكنني في كثير من الأحيان كنت ألاحظ فترات غير متوقعة من الاستقرار يبدو فيها على المرض أنه يتوقف عن التطور، ومن الممكن أن يستمر هذا لبعض الوقت».

أغمضت أليس عينيها، وتصورت نفسها واقفة بثبات في وسط سهل منبسط واسع. استطاعت أن تراه، ووجدته شيئاً يستحق أن تتأمل حدوثه. أيستطيع جون أن يراه أيضاً؟ ألا يزال بوسعه أن يأمل من أجلها أم فقد الأمل منذ الآن؟ والأسوأ من ذلك، ترى، هل تمنى في الواقع أن يصيبها انهيار سريع لتصبح لينة ومطواعة ليأخذها إلى نيويورك في الخريف؟ هل سيختار أن يقف معها في وسط السهل أم أن يدفعها من أعلى التلة إلى القاع؟

شبكت ذراعيها، وأنزلت ساقها عن ساقها الأخرى، ووضعت قدميها الاثنتين جنباً إلى جنب على الأرض.

سأل الدكتور ديفيز: «أما زلت تركضين يا أليس؟».

«كلا، بل توقفت قبل فترة، والسبب في ذلك يعود إلى جدول مواعيد جون، وقلة تعاون مني أنا. فأنا لم أعد ألاحظ الأرصفة أو المطبات في الطريق، كما أنني أسيئ تقدير المسافات. وقد تعرضت لعدد من السقطات المريعة. وحتى في البيت، فأنا أظل أنسى تلك الأشياء المرتفعة الموجودة عند مداخل الأبواب، فأصبحت أتعثر عند كل غرفة أدخلها، وتعرضت لعدد هائل من الكدمات».

«حسناً يا جون. من الأفضل إما أن تزيل الأشياء المعيقة للمشي عند الأبواب، أو أن تدهنها بلون صارخ، أو أن تغطيها بشريط لاصق ذي لون ساطع لكي تتمكن أليس من ملاحظتها؛ وإلا فإنها في نظرها تندمج مع الأرض وحسب».

«حسناً».

قال الدكتور ديفيز: «أخبريني يا أليس عن مجموعة الدعم التي شكلتها».

«نحن أربعة أشخاص، نلتقي مرة في الأسبوع لبضع ساعات في بيت كل واحد منا، ونراسل بعضنا بعضاً بالإيميل. وهذا رائع، فنحن نتحدث عن كل شيء».

لقد طرح عليها الدكتور ديفيز وتلك المرأة في الغرفة الصغيرة الكثير من الأسئلة لسبر أغوار دماغها؛ أسئلة مصممة لتقيس المقدار الدقيق للدمار الحاصل في رأسها، ولكن لم يكن أحد يفهم ما بقي حياً داخل دماغها أكثر من ماري وكاثي ودان.

«أود أن أشكرك لأنك قمت بالمبادرة، وملأت الفجوة الواضحة في نظام الدعم لدينا هنا. إن توصلتُ إلى معرفة أي مرضى جدد يعانون من المراحل المبكرة للمرض، فهل أرشدهم إلى كيفية التواصل معك؟».

«نعم، من فضلك. وأقترح أيضاً أن تخبرهم عن الشبكة الدولية لدعم مرضى الخرف وتأييدهم. إنه عبارة عن منتدى على الإنترنت للمرضى المصابين بالخرف. لقد قابلت عشرات الناس هناك من أنحاء البلاد كافة ومن كندا والمملكة المتحدة وأستراليا. حسناً، لم ألتقهم وجهاً لوجه بل على الإنترنت، ولكنني أشعر أنني أعرفهم وأنهم يعرفونني معرفة حميمة أكثر من الكثير من الناس الذين قابلتهم طوال حياتي. إننا لا نضيع أي وقت؛ لأننا لا نملك متسعاً من الوقت على أية حال، بل نتحدث عن كل الأمور التي تهمنا».

تململ جون على كرسيه وأخذ يهز ساقه.

«شكراً لك يا أليس. سأضيف هذا الموقع إلى مجموعة معلوماتنا المعيارية. ماذا عنك يا جون؟ هل تحدثت إلى موظفتنا الاجتماعية هنا أو ذهبت لحضور أي من اجتماعات مجموعات الدعم؟».

«كلا، لم أفعل ذلك. لقد تناولت القهوة عدة مرات مع أزواج أعضاء مجموعة دعمنا، ولكن خلافاً لذلك لم أفعل أي شيء».

«قد تود أن تفكر في الحصول على بعض الدعم بنفسك. إنك لا تعاني من المرض، ولكنك تتعايش معه كل يوم من خلال تعاملك مع أليس، وهذا وضع صعب على مانحي الرعاية. إنني ألاحظ الناقوس الذي يدق كل يوم على أفراد العائلات الذين يأتون إلى هنا. هناك السيدة دينيز داداريو، الموظفة الاجتماعية هنا في مجموعة الدعم المخصصة لمانحي الرعاية. كما أن جمعية ماساتشوستس لمرض الألزهايمر لديها عدة مجموعات دعم. إن المصادر متوفرة هنا من أجلك، لذا لا تتردد في حال احتجت إليها».

«حسناً».

قال الدكتور ديفيز: «بالحديث عن جمعية الألزهايمر يا أليس، لقد تلقيت لتوي هذا البرنامج عن مؤتمر رعاية الخرف السنوي، وأرى أنك ستلقين فيه الكلمة الافتتاحية».

كان مؤتمر رعاية الخرف عبارة عن اجتماع قومي للمتخصصين الذين يعملون في رعاية الناس المصابين بالألزهايمر وعائلاتهم، حيث يجتمع أطباء الأعصاب وأطباء الممارسة العامة وأطباء الوراثة وأخصائيو علم النفس العصبي والممرضات والممرضون والموظفون الاجتماعيون في مكان واحد لتبادل المعلومات حول طرائق التشخيص والعلاج ورعاية المرضى. بدا المؤتمر شبيهاً بمجموعة دعم أليس ولكن على نطاق أوسع، ولغير المصابين بالخرف. وكان اجتماع هذه السنة سيعقد في الشهر المقبل في بوسطن.

قالت أليس: «نعم. أريد أن أسألك، هل ستكون هناك؟».

فقال الدكتور ديفيز: «نعم، من المؤكد أنك ستجدينني في الصف الأول. لم

يطلبوا مني قط أن ألقي كلمة في هذا المؤتمر. إنك امرأة شجاعة ومميزة يا أليس».

كانت مجاملته التي وجدتها صادقة وغير موحية بالتنازل هي الدفعة التي احتاجت إليها بعد أن تعرضت للكثير من المعاناة القاسية بسبب الاختبارات العديدة التي أجرتها اليوم. أما جون، فقد أخذ يفتل خاتمه، ثم نظر إليها والدموع في عينيه وعلى شفتيه ابتسامة مرغمة سببت لها الحيرة.

آذار 2005

وقفت أليس على المنصة وخطابها المطبوع بيدها، ونظرت إلى الناس الجالسين في قاعة الاجتماعات الكبرى في الفندق. في الماضي، كانت تتمتع بالقدرة على تأمل الجمهور وتخمين عدد الناس الجالسين بدقة شبه خارقة، ولكنها مهارة لم تعد تملكها بعد الآن. ورغم ذلك، وجدت العدد كبيراً. إذ أخبرتها منظمة المؤتمر، أياً يكن اسمها، أن أكثر من سبعمئة ألف شخص سجلوا حضورهم للمؤتمر. كانت أليس قد ألقت عدداً كبيراً من الخطابات لجمهور بذلك العدد وأكبر منه. وتضمن جمهورها عدداً كبيراً من الشخصيات المهمة، ومن بينهم فائزون بجائزة نوبل.

اليوم، جلس جون في الصف الأول، وظل ينظر إلى الخلف من فوق كتفه. لم تلحظ حتى تلك اللحظة أنه ارتدى كنزته القطنية الرمادية جالبة الحظ التي اعتاد أن يحتفظ بها فقط لأيام نتائج معمله الحاسمة، فابتسمت لتصرفه الدال على تصديقه الخرافات.

جلس كل من آنا وتشارلي وتوم بجانب جون وهم يتحدثون إلى بعضهم بعضاً. وبعد بضعة مقاعد، جلس كل من ماري وكاثي ودان مع أزواجهم. أما الدكتور ديفيز، فقد جلس في المقدمة مستعداً وهو يحمل قلمه ودفتر ملاحظاته. وحضر عدد هائل من أخصائيي الصحة المهتمين بالعناية بمرضى الخرف. قد لا يكون هذا أهم أو أكبر جمهور تلقي عليه خطاباً، ولكن من بين كل الخطابات التي ألقتها في حياتها، شعرت أن هذا الخطاب سيحدث أقوى تأثير على الإطلاق.

مررت أصابعها ذهاباً وإياباً على جناحَي الفراشة المرصعة التي تدلت من العقد حول عنقها، واستقرت على عظم صدرها. تنحنحت وتناولت رشفة ماء، ثم لمست جناحَي الفراشة مرة أخرى طلباً للحظ. **إنها مناسبة خاصة يا أمي.**

«صباح الخير. اسمي الدكتورة أليس هولاند. لست أخصائية أعصاب أو طبيبة صحة عامة. فشهادة الدكتوراة التي أحملها هي في علم النفس. عملت أستاذة في جامعة هارفرد لخمس وعشرين سنة، حيث أعطيت دروساً في علم النفس المعرفي، وأجريت أبحاثاً في مجال اللغويات، وألقيت محاضرات في أنحاء العالم كافة.

ومع ذلك، أنا لست هنا لأتحدث إليكم بصفتي خبيرة في علم النفس أو اللغة، بل بصفتي خبيرة في مرض الألزهايمر. إنني لا أعالج المرضى، ولا أجري اختبارات عيادية أو دراسات على الجينات أو الحمض النووي، أو أقدم المشورة للمرضى وأفراد عائلاتهم، ولكنني أصبحت خبيرة بهذا المرض لأنني قبل عام من الآن تم تشخيص إصابتي بالبداية المبكرة لمرض الألزهايمر.

يشرفني أن أحظى بهذه الفرصة للتحدث إليكم اليوم، على أمل أن أقدم لكم فكرة حول الشكل الذي تكون عليه الحياة مع مرض الخرف. في المستقبل القريب، ورغم أنني سأظل أعيش هذه الحياة، فإنني سأصبح غير قادرة على وصفها والتحدث عنها، وبعد ذلك أيضاً بوقت قصير، لن أعود حتى أعرف أنني مصابة بالخرف. إذاً، حديثي معكم اليوم فرصة ذهبية لا تقدر بثمن.

نحن المرضى المصابين بالمراحل المبكرة لم نصبح غير مؤهلين بشكل كلي بعد. فنحن لا نفتقر إلى اللغة أو الآراء التي تشكل أهمية لمن حولنا. ومع ذلك، نحن لسنا مؤهلين لدرجة تجعلنا موضع ثقة لأداء أي من المتطلبات أو المسؤوليات التي كانت تعهد إلينا في حياتنا السابقة. فنحن نشعر أننا لسنا هنا ولا هناك، وكأننا شخصيات خرافية مجنونة في عالم أسطوري غريب. ويا له من مكان مثير للوحدة والإحباط لكي نكون فيه!

لم أعد أعمل في هارفرد أو أقرأ أو أكتب مقالات الأبحاث أو الكتب. إن حقيقتي الآن مختلفة كلياً عما كانت عليه قبل وقت ليس بطويل، وهي حقيقة مشوهة. فالطرائق العصبية التي أستخدمها لأحاول فهم ما تقولونه وما أفكر فيه وما يحدث حولي مغمورة بالمادة النشوانية. وأصبحت أكابد لأعثر على الكلمات التي أريد قولها. وغالباً ما أسمع نفسي أتفوه بالكلمات الخطأ. لم يعد بوسعي أن أقيّم الأبعاد المكانية بشكل موثوق؛ مما يجعلني أوقع الأشياء أو أسقط على الأرض.

ومن الممكن أن أتوه على بعد شارعين من بيتي. كما أن ذاكرتي قصيرة الأمد باتت معلقة ببضعة خيوط مهترئة ليس إلا.

إنني أفقد أيامي الماضية. وإن سألتموني عما فعلته بالأمس، وما حدث وما رأيته وشعرت به وسمعته، فسأعاني معاناة شديدة لأعطيكم التفاصيل. قد أخمن بعض الأشياء بشكل صحيح؛ فأنا بارعة بالتخمين، ولكنني لن أعرف حقيقة ما يجري. فأنا لا أتذكر الأمس ولا اليوم الذي قبله.

ليست لدي أية سيطرة على ذكريات الأيام الماضية التي أحتفظ بها، وتلك التي تحذف من ذاكرتي. فهذا المرض لا يمكن مساومته على أي شيء. لا يمكنني أن أعطيه أسماء رؤساء الولايات المتحدة بدلاً من أسماء أولادي، ولا أن أضحي له بأسماء عواصم الولايات مقابل احتفاظي بذكرياتي مع زوجي.

في أغلب الأحيان، تنتابني خشية من المستقبل. ماذا إن استيقظت ذات يوم ولم أعد أعرف من هو زوجي؟ ماذا إن لم أعرف أين أنا؟ أو كيف أميز صورتي في المرآة؟ ألن أعود أنا؟ هل ذلك الجزء من دماغي المسؤول عن هويتي الفريدة هش وضعيف أمام هذا المرض؟ أم إن هويتي شيء يتعدى نطاق العصبونات والبروتينات والجينات الدفاعية والحمض النووي؟ هل روحي ونفسي منيعتان أمام مخالب الألزهايمر الضارية؟ أظن أنهما كذلك.

إن تشخيص إصابتي بمرض الألزهايمر أشبه بأن يسمني أحد بحرف قرمزي. فهذه أنا الآن؛ شخص مصاب بالخرف. وهكذا سأظل لبعض الوقت أعرّف عن نفسي، وهكذا سيعرفني الآخرون. ولكنني لست ما أقوله أو ما أفعله أو ما أتذكره، بل إنني في الحقيقة أكثر من ذلك بكثير.

فأنا زوجة وأم وصديقة، وسأصبح جدة عما قريب. وما زلت أشعر وأفهم وأستحق الحب والسعادة في هذه العلاقات. وما زلت عضواً مشاركاً ونشيطاً في مجتمعي. لم يعد دماغي يعمل بشكل جيد، ولكنني أستخدم أذني للإصغاء إلى الناس بلا شروط، وكتفي لمن يريد أن يبكي عليها، وذراعي لمعانقة الآخرين المصابين بالخرف. ومن خلال مجموعة دعم للمصابين بالمراحل الأولى من الخرف والشبكة الدولية لدعم مرضى الخرف وتأييدهم ومن خلال التحدث إليكم

اليوم، أنا أساعد المرضى الآخرين ليعيشوا حياة أفضل، وليتعايشوا بشكل أحسن مع المرض. لست شخصاً محتضراً، بل أنا امرأة حية تعيش مصابة بالألزهايمر. وأريد أن أفعل هذا بأفضل شكل أستطيع الوصول إليه.

إنني أود أن أشجع على التشخيص المبكر، وأن أحث الأطباء على عدم الافتراض عندما يشتكي لهم مرضى في العقد الرابع أو الخامس من مشاكل بالذاكرة والإدراك أنها مجرد حالات اكتئاب أو توتر أو انقطاع طمث. فكلما تم تشخيص المرض بشكل مبكر وملائم، بات بوسع المرضى البدء بتناول الأدوية على أمل تأخير تطور المرض، والحفاظ على موطئ قدم في فترة الاستقرار؛ بما فيه الكفاية لجني فوائد علاج أفضل أو علاج شافٍ في المستقبل. لا يزال لدي أمل في التوصل إلى علاج شافٍ لي ولأصدقائي الذين يعانون من الخرف، ولابنتي التي تحمل الطفرة الوراثية نفسها. قد لا أتمكن أبداً من استعادة ما فقدته من قبل، ولكنني أستطيع أن أحافظ على ما أملكه. فلا يزال لدي الكثير.

من فضلكم، لا تنظروا إلى وصمة عارنا وتصفونا بانتهاء الصلاحية، بل انظروا إلى عيوننا وتحدثوا إلينا. ولا تفزعوا أو تأخذوا الأمور على محمل شخصي إن ارتكبنا أخطاء؛ لأن هذا ما سنفعله. فنحن سنكرر أنفسنا، وسنعجز عن وضع الأشياء في أماكنها الصحيحة، وسنتوه ونرتبك، وسننسى أسماءكم وما قلتموه لنا قبل دقيقتين، ولكننا أيضاً سنبذل كل جهدنا لنعوض عن خسائرنا الإدراكية ونتغلب عليها.

إنني أشجعكم لكي تمدونا بالقوة، وليس لتحدوا من قدراتنا. إن تعرض شخص ما لإصابة في الحبل الشوكي، وإن فقد أحدهم أحد أطرافه أو تعرض لإعاقة وظيفية بسبب سكتة دماغية ألمت به، فإن أفراد العائلة والمختصين يعملون بكل جد لإعادة تأهيل ذلك الشخص، وللعثور على طرائق تساعده في التكيف وتدبر أمره على الرغم من تلك الخسائر. اعملوا معنا، وساعدونا لنطور أدوات نعوّض بها عن الخسائر التي تصيب ذاكراتنا ولغتنا وإدراكنا. وشجعوا انضمامنا إلى مجموعات الدعم؛ فنحن يمكننا أن نساعد بعضنا بعضاً– أي كل من الناس الذين يعانون من الخرف ومانحي رعايتهم– على الخروج من هذه الأرض الخرافية المرعبة التي لا

توصلنا إلى أي مكان.

إن أيامي الماضية تتلاشى، وأيامي القادمة غير مؤكدة. إذاً، لماذا أعيش؟ إنني أعيش لليوم الحاضر، واللحظة الحالية فقط. وفي يوم قريب، سأنسى أنني وقفت هنا أمامكم وألقيت هذه الكلمة. ولكن، لمجرد أنني سأنسى هذا يوماً ما، فهذا لا يعني أنني لم أعش هذا اليوم بكل ثانية فيه. سأنسى غداً، ولكنّ هذا لا يعني أن هذا اليوم لم يشكل أهمية في حياتي.

لم يعد يطلب مني أن ألقي محاضرات عن اللغة في الجامعات، أو أحضر مؤتمرات علم النفس في أنحاء العالم كافة، ولكنني هنا أمامكم اليوم، أقدم لكم ما آمل أنه أكثر حديث مؤثر قدمته في حياتي؛ رغم أنني مصابة بمرض الألزهايمر.

شكراً لكم».

رفعت نظرها عن ورقة خطابها للمرة الأولى منذ بداية كلمتها. فهي لم تتجرأ على إبعاد عينيها عن الكلمات المسطورة على الصفحات إلى أن انتهت؛ خوفاً من أن تتوه في الكلام. ومما فاجأها مفاجأة حقيقية، أن كل من في القاعة وقفوا وشرعوا بالتصفيق لها. فكان ذلك أكبر من أقصى آمالها. فقد تمنت شيئين بسيطين فقط: ألا تفقد القدرة على الكلام أثناء الخطاب، وأن تمضي حتى نهايته من دون أن تجعل من نفسها تبدو مغفلة.

نظرت إلى الوجوه المألوفة في الصف الأمامي وأدركت بدون أدنى شك أنها تجاوزت بكثير حدود توقعاتها المتواضعة. فقد رأت وجوه كل من كاثي وذان والدكتور ديفيز مشرقة بسعادة. ورأت ماري تجفف عينيها بمنديل ورقي زهري. أما آنا، فقد راحت تبتسم وتصفق من دون أن تتوقف للحظة لتمسح الدموع التي تتدفق على وجهها. وظل توم يصفق ويهلل وكأنه بالكاد يقوى على منع نفسه من أن يجري إليها ليعانقها ويهنئها. ولم تكن هي أيضاً تطيق الانتظار لتعانقه.

أما جون، فقد وقف من دون أي ارتباك، وهو يبدو بارزاً بطوله الفارع، وبكنزته القطنية الرمادية جالبة الحظ، وهناك حب نابع من عينيه، وفرحة في ابتسامته وهو يصفق لها بحرارة.

نيسان 2005

كانت الطاقة المطلوبة لتكتب كلمتها، وتلقيها بنجاح، وتصافح الناس، وتتحدث بطلاقة مع مئات الحاضرين المتحمسين في مؤتمر رعاية مرض الخرف تعتبر طاقة هائلة بالنسبة إلى شخص طبيعي لا يعاني من مرض الألزهايمر. أما بالنسبة إلى مريضة ألزهايمر، فقد كان الجهد المبذول منها أكثر من هائل بالفعل. فقد تمكنت في ما بعد من المحافظة على وظائفها لبعض الوقت؛ بعد ارتفاع حماستها وذكرى تصفيق الجمهور لها وثقتها المتجددة في حالتها الداخلية. فقد اعتبرت نفسها الآن أليس هولاند البطلة الشجاعة الجديرة بالإعجاب.

ولكنّ تلك البهجة شيء ليس من السهولة الحفاظ عليه. فقد بدأت ذاكرتها تخذلها مجدداً، وفقدت شيئاً من ثقتها بنفسها عندما نظفت أسنانها بمرطب البشرة، ثم فقدت المزيد منها عندما حاولت أن تتصل بجون طوال فترة الصباح بجهاز التحكم بالتلفزيون. وبعد ذلك، فقدت كل ما تبقى منها عندما أعلمتها رائحة جسدها الكريهة بأنها لم تستحم منذ أيام، ولكنها لم تستطع أن تستجمع ما يتطلبه الأمر من شجاعة أو معرفة لتدخل الحمام. فقد عادت الآن أليس هولاند ضحية مرض الألزهايمر.

لقد استُنزفت طاقتها، من دون مصدر لتعوض منه، وتلاشت فورة نشاطها، وسُرقت منها ذكرى نصرها وثقتها بنفسها، وعانت من ثقل ساحق ومرهق لأعصابها. فباتت تنام في وقت متأخر من الليل، وتمكث في السرير لساعات بعد الاستيقاظ، وتجلس على أريكتها وتبكي من دون سبب محدد. ولم يكن يوجد أي قدر من النوم أو البكاء كافٍ لإعادة ملء الخواء في روحها.

أيقظها جون من نوم عميق، وألبسها ملابسها، فسمحت له بأن يفعل ذلك. لم يطلب منها أن تسرح شعرها أو تنظف أسنانها، فلم تأبه للأمر. اصطحبها بسرعة إلى

السيارة، فأسندت رأسها إلى النافذة الباردة. وبدا العالم في الخارج رمادياً مزرقاً. لم تعرف إلى أين سيذهبان، وشعرت بأنها غير مبالية وغير مهتمة بالسؤال عن أي شيء.

ركن جون السيارة في مرأب ما، ثم ترجلا ودخلا أحد المباني عبر باب في المرأب. أزعجها الضوء الأبيض الفلوري وآلم عينيها. نظرت إلى الممرات الواسعة والمصاعد واللافتات على الجدران: قسم الأشعة، قسم الجراحة، قسم الولادة، قسم الأعصاب. **قسم الأعصاب!**

دخلا إحدى الغرف. وبدلاً من غرفة الانتظار التي توقعت رؤيتها، رأت امرأة نائمة على سرير، ولها عينان متورمتان ومغمضتان، وهناك محلول معلق بيدها.

همست أليس: «ما خطبها؟».

فقال جون: «لا شيء. إنها متعبة ليس إلا».

«إنها تبدو بحال مريعة».

«صه، أنت لا تريدين أن تسمع هذا الكلام».

لم تبد لها الغرفة شبيهة بغرفة في مستشفى. فقد لاحظت أنها ذات أرضية خشبية، وتحوي سريراً آخر أصغر حجماً وغير مرتب بجانب سرير تلك المرأة النائمة، وجهاز تلفزيون كبيراً في الزاوية، ومزهرية جميلة تحوي زهوراً صفراء وزهرية على الطاولة. ربما لم يكن هذا مستشفى. قد يكون فندقاً. ولكن، لماذا تضع تلك المرأة أنبوب محاليل في يدها؟

دخل شاب جذاب وبحوزته صينية عليها فناجين قهوة. **إنه طبيبها** ربما. ثم لاحظت أنه يعتمر قبعة رياضية، ويرتدي بنطال جينز وكنزة قطنية. **إنه ربما عامل خدمة الغرف.**

همس جون للشاب قائلاً: «تهانينا».

«شكراً. لقد غادر توم للتو فقط، ولكنه سيعود بعد عصر هذا اليوم. تفضلا بالجلوس، فقد أحضرت القهوة للجميع والشاي لأليس. سأذهب وأحضر الطفلين».

لقد كان ذلك الشاب يعرف اسمها.

عاد الشاب وهو يجر عربة عليها سريران مستطيلان بلاستيكيان، وكل منهما يحوي طفلاً صغيراً، جسمه ملفوف بكامله تقريباً بملاءة، ورأسه مغطى بقبعة بيضاء

لا يظهر منها سوى وجهه.

قال الشاب: «سأوقظها، فمن المؤكد أنها لا تريد أن تنام أثناء أول لقاء يجمع بينكم. استيقظي يا عزيزتي. لدينا زوار».

استيقظت المرأة مرغمة، ولكنها عندما رأت أليس وجون ارتسمت البهجة على عينيها المتعبتين، وأضفت عليهما الحياة. وحين ابتسمت، بدا وجهها فجأة أنه ينتمي إلى مكانه الصحيح. آه، يا إلهي! هذه آنا!

قال جون: «تهانينا لك يا عزيزتي. إنهما جميلان». وانحنى نحوها ليقبلها من جبينها.

«شكراً، يا أبي».

«تبدين بحال رائعة. كيف تشعرين؟ هل أنت بخير؟».

«شكراً، إنني بخير، ولكنني مرهقة فقط. هل أنتما مستعدان. ها هما. هذه أليسون آن. وهذا الشاب الصغير اسمه تشارلز توماس».

سلّم الشاب أحد الطفلين إلى جون، ورفع الطفلة التي تضع شريطاً زهرياً على قبعتها وقدمها لأليس قائلاً: «هل تودين حملها؟».

فأومأت أليس برأسها.

حملت الطفلة الصغيرة النائمة، ووضعت رأسها على باطن مرفقها ومؤخرتها على يدها، ورفعت جسمها الصغير أمام صدرها، وأسندت أذنها إلى قلبها. تنفّست الطفلة الصغيرة النائمة أنفاساً سريعة عبر أنفها الصغير الدائري، فقبّلتها أليس على خدها الزهري الممتلئ.

قالت أليس: «لقد أنجبت طفليك يا آنا».

فقالت آنا: «نعم يا أمي. وها أنت تحملين حفيدتك، واسمها أليسون آن».

«إنها مدهشة. لقد أحببتها».

حفيدتي! ونظرت إلى الطفل ذي الشريط الأزرق بين ذراعي جون. حفيدي!

سألت أليس: «لن يصابا بالألزهايمر مثلي، أليس كذلك؟».

«كلا يا أمي. لن يحدث هذا».

أخذت أليس نفساً عميقاً مستنشقة رائحة حفيدتها الزكية، وملأت نفسها

بإحساس بالراحة والسلام لم تعهده منذ وقت طويل.

«لقد تم قبولي في جامعتي نيويورك وبرانديس يا أمي؟».

فقالت أليس: «آه، كم هذا رائع! أتذكر عندما التحقت بالجامعة. ماذا ستدرسين؟».

«المسرح».

«هذا رائع. لقد اعتدت ارتياد جامعة هارفرد، وأحببت المكان هناك. ما هي الكلية التي قلت إنك ستلتحقين بها؟».

«لم أقرر بعد. فقد تم قبولي في جامعتي نيويورك وبرانديس».

«بأي منهما تريدين أن تلتحقي؟».

«لست واثقة بعد. لقد تحدثت إلى والدي، وهو يريد مني أن ألتحق بجامعة نيويورك».

«هل تريدين أن تذهبي إلى نيويورك؟».

«لست أدري. فهي تتمتع بسمعة أفضل، ولكنني أرى أن برانديس أفضل منها لأنني سأكون قريبة من آنا وتشارلي والطفلين وتوم، وأنت وأبي إن بقيتما هنا».

سألت أليس: «إن بقينا أين؟».

«هنا في كامبريدج».

«أين سأكون إذاً؟».

«نيويورك».

«لست ذاهبة إلى نيويورك».

كانتا جالستين بجانب بعضهما على الأريكة، وهما تطويان ملابس الطفلين، وتفصلان الزهري عن الأزرق، بينما راحت الصور المعروضة في التلفزيون تومض على وجهيهما من دون صوت.

«الأمر وحسب أنني إن قبلت الدخول إلى برانديس ثم انتقلت أنت وأبي إلى نيويورك، فسوف أشعر عندئذ بأنني في غير مكاني المناسب، وأنني اتخذت القرار الخطأ».

توقفت أليس عن طي الملابس، ونظرت إلى تلك المرأة، فوجدتها شابة رشيقة وجميلة، ولكنها بدت أيضاً متعبة وقلقة.

سألت أليس: «كم عمرك؟».

«أربعة وعشرون عاماً».

«أربعة وعشرون. لقد أحببت سن الرابعة والعشرين. ففي هذه السن، تشعرين أن الحياة كلها لا تزال بانتظارك، وأن كل شيء ممكن. هل أنت متزوجة؟».

توقفت الشابة الجميلة والقلقة عن طي الملابس، ونظرت إلى أليس بشكل مباشر متأملة عينيها . وكانت للشابة عينان صادقتان بنيتان فاتحتان راحتا تتفحصانها.

«كلا، لست متزوجة».

«هل لديك أطفال؟».

«كلا».

«إذاً، ينبغي لك أن تفعلي ما تريدينه فقط».

«ولكن، ماذا إن قرر والدي أن يقبل الوظيفة في نيويورك؟».

«لا يمكنك أن تتخذي قراراً من هذا النوع بناء على ما قد يفعله الآخرون أو لا يفعلونه. فهذا قرارك أنت، وتعليمك أنت. أنت شابة ناضجة، وليس عليك أن تفعلي ما يريده والدك. اتخذي قرارك بناء على ما هو صحيح في حياتك».

«حسناً، سأفعل هذا. شكراً لك».

ضحكت الشابة الجميلة ذات العينين البنيتين الجميلتين ضحكة استمتاع، ثم تنهدت وواصلت طي الملابس.

«لقد قطعنا شوطاً طويلاً يا أمي».

فلم تفهم أليس ما عنته بكلامها، وقالت لها: «إنك تذكرينني بطلّابي. فقد عملت مستشارة للطلاب في الماضي، وكنت بارعة جداً بذلك».

«نعم، هذا صحيح. ولا تزالين كذلك».

«ما اسم الكلية التي تريدين الالتحاق بها؟».

«برانديس».

«أين تقع؟».

«في حي والشام، على بعد بضع دقائق من هنا فقط».

«وماذا ستدرسين؟».

«التمثيل».

«هذا رائع. هل ستمثلين في مسرحيات؟».

«نعم».

«مثل شكسبير؟».

«نعم».

«أحب شكسبير، ولا سيما المسرحيات التراجيدية».

«وأنا أيضاً».

اقتربت الشابة الجميلة من أليس وعانقتها، وبدت رائحتها منعشة ونظيفة كرائحة الصابون. اخترق عناقها أليس، كما اخترقتها عيناها البنيتان الفاتحتان. وشعرت أليس أنها سعيدة وأنها مقربة منها.

«من فضلك، لا تنتقلي إلى نيويورك يا أمي».

«نيويورك! لا تكوني سخيفة. إنني أعيش هنا، فلماذا أنتقل إلى نيويورك؟».

قالت الممثلة: «لا أعرف كيف تفعلين هذا. لقد سهرت معها معظم الليل، وأشعر الآن أنني أهذي. أعددت لها البيض المخفوق والخبز المحمص والشاي عند الساعة الثالثة فجراً».

قالت أم الطفلين: «كنت مستيقظة في ذلك الوقت. لو كان بوسعنا أن نجعلك ترضعين، لاستطعت أن تساعديني في إطعام أحد هذين الطفلين».

كانت الأم جالسة على الأريكة بجانب الممثلة وهي ترضع الطفل ذا الملابس الزرقاء، بينما حملت أليس الطفلة ذات الملابس الزهرية. دخل جون الغرفة بعد أن استحم وارتدى ملابسه حاملاً فنجان قهوة بإحدى يديه وصحيفة باليد الأخرى. وكانت النساء جميعاً يرتدين بيجاماتهن.

قال جون: «شكراً لك يا ليديا على سهرك في الليلة الماضية. فقد كنت بحاجة ماسة إلى النوم».

سألت الأم: «كيف تعتقد بحق الله يا أبي أنه بوسعك الذهاب إلى نيويورك لتفعل هذا بمفردك من دون مساعدتنا؟!».

«سوف أوظف ممرضة منزلية. في الواقع، بدأت بالبحث عنها منذ الآن».

فقالت الممثلة: «لا أريد أن يهتم بها الغرباء؛ فهم لن يعانقوها ويعاملوها بحب كما نفعل نحن».

وأضافت الأم: «كما أن الغريبة لن تعرف تاريخها وذكرياتها مثلما نعرفها نحن. إذ يمكننا نحن في بعض الأحيان أن نملأ فراغاتها ونقرأ لغة جسدها؛ وذلك لأننا نعرفها حق المعرفة».

«لم أقل إننا لن نعتني بها بعد الآن، بل أحاول فقط أن أتصرف بواقعية وعملية. ليس علينا أن نحمل هذا العبء وحدنا طوال حياتنا. ستستأنفين عملك في غضون بضعة أشهر، وستعودين إلى البيت كل ليلة لتهتمي بالطفلين اللذين لم تريهما طوال اليوم.

وأنت ستبدئين دراستك في الكلية التي حدثتني مطولاً عن برنامجها الدراسي المكثف. أما توم فيُجري عملية جراحية بينما نتحدث. إنكم جميعاً معرضون لأن تصبحوا أكثر انشغالاً مما كنتم عليه من قبل. وأمكم هي الشخص الأخير في العالم الذي يود منكم التضحية بنوعية حياتكم من أجلها. فهي لن ترغب أبداً بأن تصبح عبئاً عليكم».

قالت الأم: «إنها ليست عبئاً علينا، بل هي أمنا».

راح الثلاثة يتحدثون بسرعة كبيرة، ويستخدمون الكثير من الضمائر في كلامهم. وبدأت الطفلة ذات الملابس الزهرية تتحرك وتبكي بشكل يشتت الانتباه، فلم تستطع أليس أن تكتشف ما يتحدثون عنه أو من يتحدثون عنه، ولكنها استطاعت أن تحدد من تعابير وجوههم ونبرة أصواتهم أن المناقشة جادة. وبدا على المرأتين اللتين ترتديان بيجامتين أنهما تقفان في صف واحد.

«ربما يكون من المنطقي أكثر بالنسبة إلي أن آخذ إجازة أمومة لمدة أطول بقليل. فأنا أشعر بأنني على عجلة من أمري في العودة إلى العمل. وتشارلي موافق على هذا الاقتراح؛ وهذا ما أجده منطقياً لأتمكن من البقاء مع أمي».

«هذه هي فرصتنا الأخيرة يا أبي لنقضي وقتاً معها. لا يمكنك أن تذهب إلى نيويورك وتسلبنا هذه الفرصة».

«أصغي إلي! لو أنك وافقت على الالتحاق بكلية نيويورك بدلاً من برانديس لقضيت كل الوقت الذي تريدينه معها. أنت اتخذت قرارك، وأنا سأتخذ قراري».

سألت الأم: «لماذا ليس لأمي أي رأي في هذا القرار؟».

وقالت الممثلة: «إنها لا تريد أن تعيش في نيويورك».

فقال جون: «إنكما لا تعرفان ما تريده».

«لقد قالت إنها لا تريد ذلك. اذهب واسألها. لمجرد أنها تعاني من مرض الألزهايمر فهذا لا يعني أنها لا تعرف ما تريده أو ما لا تريده. عند الساعة الثالثة صباحاً من فجر هذا اليوم، أرادت أن تأكل البيض المخفوق مع الخبز المحمص، ولم ترغب في تناول الحبوب أو اللحم. ومن المؤكد أنها رفضت العودة إلى فراشها. إنك تختار أن تتجاهل ما تريده لمجرد أنها تعاني من الألزهايمر».

آه، إنهم يتحدثون عني.

«إنني لا أتجاهل ما تريده، بل أفعل أفضل ما أستطيع الوصول إليه لمصلحة كل منا. ولو أنها حصلت على كل شيء تريده من جانب واحد، لما كنا حتى نجري هذه المحادثة الآن».

سألت الأم: «ما الذي يعنيه هذا؟».

«لا شيء».

فقالت الأم: «يبدو لي أنك لا تدرك أنها لم تمت بعد، أو تعتقد أن الوقت المتبقي لها ليس مهماً بعد الآن. إنك تتصرف كطفل أناني».

أجهشت الأم بالبكاء الآن، ولكنها بدت غاضبة. بدا شكلها وصوتها شبيهين بآن شقيقة أليس، ولكن لا يمكنها أن تكون آن. فذلك مستحيل لأن آن لم تنجب أي أطفال.

قال جون: «من أين لك أن تعرفي أنها تجد معنى لهذا؟ أصغي إلي، ليس الأمر متعلقاً بي وحدي. فهي نفسها قبل أن يصيبها المرض لم تكن لترغب في أن تبقى هنا بهذه الحالة».

سألت المرأة الباكية التي تشبه آن بشكلها وصوتها: «ما الذي يعنيه هذا؟».

«لا شيء. استمعي إلي، إنني أفهم وأقدر كل ما تقولينه، ولكنني أحاول أن أتخذ قراراً منطقياً وليس عاطفياً».

فسألته المرأة التي لا تبكي: «لماذا؟ ما الخطأ في أن تكون عاطفياً حيال هذا الموضوع؟ لماذا تعتبر هذا أمراً سلبياً؟ لماذا لا يكون القرار العاطفي هو القرار الصحيح؟».

«لم أتوصل إلى قرار نهائي بعد. وأنتما الاثنتان لن تؤثرا فيّ بالقوة لأتخذ قراراً على هواكما. فأنتما لا تعرفان كل شيء».

فقالت المرأة الباكية بصوت مرتعش وموحٍ بالتهديد: «إذاً، أخبرنا يا أبي، ما هو الشيء الذي لا نعرفه؟».

ألزمه تهديدها الصمت للحظة.

«ليس لدي وقت لهذا الآن، فلدي اجتماع».

ونهض متخلياً عن النقاش، وترك النساء والطفلين وحدهم، وأغلق الباب الأمامي بقوة لدى مغادرته المنزل؛ مما جعل الطفل ذا الملابس الزرقاء يجفل بعد أن كان قد استغرق في النوم بين ذراعي أمه، فراح ينتحب. ويبدو أن العدوى قد انتشرت، فأجهشت المرأة الأخرى بالبكاء؛ ربما لأنها شعرت هي أيضاً أنها تركت وحدها. والآن، أخذ الجميع يبكون: الطفلة ذات الملابس الزهرية، والطفل ذو الملابس الزرقاء، والأم، والمرأة الجالسة بجانبها. الجميع بكى باستثناء أليس، فهي لم تشعر بالحزن أو الغضب أو الهزيمة أو الخوف بل بالجوع.

«ماذا سنتناول على العشاء؟».

أيار 2005

وصلا إلى المنضدة بعد الانتظار لوقت طويل في الصف.

فقال جون: «حسناً يا أليس، ماذا تريدين؟».

«سآخذ ما ستطلبه أنت، أياً يكن».

«أنا سأطلب الفانيليا».

«هذا جيد. سأطلب مثلك».

«أنت لا تريدين الفانيليا، بل تريدين شيئاً فيه شوكولاتة».

«حسناً إذاً. سأتناول شيئاً فيه شوكولاتة».

اعتبرت الأمر بسيطاً ولا يستدعي أي مشاكل، ولكنْ من الواضح أن التوتر قد اعتراه بسبب هذا الحديث.

«سآخذ كوز مثلجات بنكهة الفانيليا، وهي ستأخذ كوز مثلجات بنكهة الشوكولاتة مع الكريما، كلاهما من الحجم الكبير».

وعندما ابتعدا عن المتاجر والناس المحتشدين، جلسا على كرسي مغطى بالرسوم عند ضفة النهر، وبدآ يأكلان مثلجاتهما. شاهدا بضع بجعات تقضم العشب على بعد بضع أقدام منهما. وقفت البجعات مخفضة رؤوسها وهي منهمكة بقضم العشب وغير منزعجة على الإطلاق من وجود أليس وجون. ضحكت أليس وهي تتساءل إن كانت البجعات تفكر في الشيء نفسه حيالهما.

«هل تعرفين في أي شهر من السنة نحن يا أليس؟».

كان المطر قد تساقط في وقت مبكر من اليوم، ولكن السماء بدت صافية الآن. وشعرت بحرارة الشمس والمقعد الجاف تدفئ عظامها، فأمدها الدفء بشعور رائع. كان هناك الكثير من البراعم الزهرية والبيضاء على شجرة التفاح المجاورة لهما متناثرة على الأرض وكأنها زينة في إحدى الحفلات.

«نحن في فصل الربيع».

«في أي شهر في الربيع؟».

راحت أليس تلعق الشوكولاتة من كوز مثلجاتها وهي تفكر ملياً في سؤاله. لم تستطع أن تتذكر آخر مرة نظرت فيها إلى التقويم. فقد مضت فترة طويلة منذ أن توجب عليها التواجد في مكان معين وفي موعد محدد. وفي حال احتاجت إلى التواجد في مكان معين وموعد محدد، فقد كان جون يعرف ذلك نيابة عنها، ويحرص على أن تصل إلى هناك في الوقت الذي يفترض بها فيه أن تصل إليه. ولم تعد تستخدم آلة للتذكير بالمواعيد، ولم تعد تضع ساعة حول معصمها.

حسناً، لنر. شهور السنة.

«لا أعرف. أي شهر هو؟».

«أيار».

«آه».

«هل تعرفين متى تحين ذكرى ميلاد آنا؟».

«أهي في شهر أيار؟».

«كلا».

«حسناً، أظن أن ذكرى ميلاد آن تحل في فصل الربيع».

«كلا، أنا أقصد آنا وليس آن».

صدر صوت محرك شاحنة صفراء مرتفع من فوق الجسر بالقرب منهما، فأجفلت منه أليس. فردت إحدى البجعات جناحيها، وصاحت وهي تنظر إلى الشاحنة مدافعة عنهما. فتساءلت أليس إن كانت شجاعة أم متهورة تسعى إلى المشاكل. وضحكت وهي تفكر في الإوزة الشجاعة.

لعقت مثلجاتها، وتفحصت فن العمارة في البناء القرميدي الأحمر مقابل النهر. كان لديه عدد كبير من النوافذ، وساعة لها أرقام عتيقة الطراز، وقبة ذهبية في قمته. بدا مكاناً مهماً ومألوفاً.

سألت أليس: «ما ذلك المبنى هناك؟».

«إنها كلية الأعمال، وهي جزء من هارفرد».

«آه، هل درّست أنا في ذلك البناء؟».

«كلا، بل درّست في مبنى مختلف يقع في ذلك الجانب من النهر».

«آه».

«أين يقع مكتبك يا أليس؟».

«مكتبي أنا؟ في هارفرد».

«نعم، ولكن أين في هارفرد؟».

«في مبنى يطل على هذا الجانب من النهر».

«أي مبنى؟».

«إنه في قاعة ما حسبما أعتقد. لم أعد أذهب إلى هناك كما تعلم».

«أعلم هذا».

«إذاً، لا يهم فعلاً أين يقع، أليس كذلك؟ لماذا لا نركز على الأشياء التي تهمنا حقاً؟».

«إنني أحاول».

وأمسك بيدها، فوجدت يده أدفأ من يدها. وشعر هو بملمس يدها جميلاً جداً في يده. شاهدا إوزتين تخوضان داخل الماء الساكن. ولم يكن هناك أحد يسبح في النهر. ربما كانت المياه باردة على الأرجح بالنسبة إلى الناس.

«أما زلت تريدين أن تبقي هنا يا أليس؟».

وتجعد حاجباه بتقطيبة جادة، وبدت الخطوط المجاورة لعينيه أعمق من طبيعتها. فقد كان سؤاله هذا مهماً بالنسبة إليه. ابتسمت وهي مسرورة من نفسها، لأنها وجدت أخيراً جواباً واثقاً تقدمه له.

«نعم. فأنا أحب الجلوس هنا معك. ولم أنته بعد».

ورفعت له كوز المثلجات بالشوكولاتة لتريه إياه، فرأى أن المثلجات قد بدأت تذوب وتتقاطر على جانبي الكوز ثم على يدها.

سألته: «لماذا؟ هل يجب علينا المغادرة الآن؟».

«كلا، خذي وقتك».

حزيران 2005

جلست أليس قرب جهاز الكمبيوتر وهي تنتظر من الشاشة أن تنبض فيها الحياة. فقد اتصلت بها كاثي قبل قليل لتتفقد أمرها، وبدا عليها القلق. وقالت إن أليس لم ترد على رسائلها الإلكترونية منذ بعض الوقت، وإنها لم تدخل غرفة دردشة مرضى الخرف منذ أسابيع، وإنها فوتت اجتماع مجموعة الدعم بالأمس. ولم تعرف أليس من هي أصلاً كاثي القلقة التي حدثتها عبر الهاتف إلا بعد أن تحدثت هذه الأخيرة عن مجموعة الدعم. قالت كاثي إن هناك شخصين انضما إلى مجموعة الدعم عندما نصحهم بذلك أناس ممن حضروا مؤتمر دعم مرض الخرف بعد أن سمعوا خطاب أليس. فقالت لها أليس إن ذلك خبر رائع، واعتذرت منها لأنها سببت لها القلق، وطلبت منها أن تعلم الجميع بأنها على خير ما يرام.

ولكن الحقيقة هي أنها شعرت أنها أبعد ما تكون عن ما يرام. ورغم أنها ظلت قادرة على قراءة النصوص الصغيرة وفهمها، إلا أن حروف لوحة المفاتيح الخاصة بالكمبيوتر تحولت بالنسبة إليها إلى كمية مشوشة وغير مفهومة من الأحرف. وفي الواقع، لقد فقدت قدرتها على تشكيل الكلمات من الأحرف الأبجدية الموجودة على المفاتيح. وبدأت قدرتها على استخدام اللغة– تلك الخاصية التي تميّز الإنسان عن الحيوان– تخذلها، مما جعلها تشعر أنها تصبح أقل بشرية كلما ضعفت قدرتها اللغوية. وهكذا، ودّعتها حالتها الجيدة وداعاً باكياً ومحزناً قبل بعض الوقت.

ضغطت على زر بريد الوارد، فوجدت ثلاثاً وسبعين رسالة جديدة. هالها هذا العدد الضخم، وجعلها عاجزة عن الرد، فأغلقت تطبيق الإيميل من دون أن تفتح أية رسالة، وراحت تحدق إلى الشاشة التي قضت معظم حياتها المهنية جالسة أمامها. وجدت ثلاثة مجلدات على سطح المكتب مرتبة في صف عمودي. «القرص الصلب» و«أليس» و«الفراشة». فضغطت على مجلد «أليس».

وجدت في الداخل المزيد من المجلدات بعناوين مختلفة: «الملخصات» و«الإدارية» و«الصفوف» و«المؤتمرات» و«الشخصيات» و«العروض الكبيرة» و«البيت» و«جون» و«الأولاد» و«حلقات البحث» و«الطلاب».كل حياتها بدت منظمة في هذه الأيقونات الصغيرة المرتبة. لم تستطع أن تتحمل النظر إلى داخل هذه المجلدات مخافة ألا تتذكر أو تفهم شيئاً، فضغطت على مجلد «الفراشة» بدلاً من ذلك.

عزيزتي أليس،

لقد كتبت هذه الرسالة لنفسك عندما كنت تتمتعين بكامل قواك العقلية. وإن قرأت هذا الكلام ولم تستطيعي الإجابة عن أي من الأسئلة التالية، فإذاً أنت لم تعودي تتمتعين بكامل الأهلية.

في أي شهر نحن؟

أين تعيشين؟

أين يقع مكتبك؟

متى تحين ذكرى ميلاد آنا؟

كم ولداً لديك؟

إنك تعانين من مرض الألزهايمر. لقد فقدت الكثير من نفسك والكثير مما تحبينه. ولم تعودي تعيشين الحياة التي تريدين أن تعيشيها. ليس هناك أمل في الشفاء من هذا المرض، ولكنك اخترت نتيجة هي الأكثر كرامة وعدلاً واحتراماً لك ولعائلتك. لم يعد بإمكانك أن تثقي بحكمك الخاص، ولكن يمكنك أن تثقي بحكمي أنا؛ أي نفسك السابقة، قبل أن يسلب منك الألزهايمر الكثير.

لقد عشت حياة استثنائية تستحق أن تعاش، ولديك ولدى زوجك جون ثلاثة أولاد أصحاء ومدهشون ومحبوبون وناجحون في هذا العالم. كما بنيت لنفسك في هارفرد مهنة مميزة مليئة بالتحدي والإبداع والشغف والإنجاز.

هذا الجزء الأخير من حياتك؛ الجزء الذي عشته وأنت مصابة بالألزهايمر، وهذه النهاية التي اخترتها بعناية أمر مأساوي، ولكنك لم تعيشي حياة مأساوية. إنني أحبك، وأفتخر بك وبالحياة التي عشتها وبكل ما حققته عندما كنت تتمتعين

بكامل قدراتك.

والآن، اذهبي إلى غرفة نومك، وتوجّهي إلى الطاولة السوداء بجانب السرير والتي عليها مصباح أزرق واحد. افتحي الدرج وستجدين في آخره علبة حبوب. وعلى العلبة ملصق أبيض اللون كتب عليه «لأليس» بأحرف سوداء. هناك الكثير من الحبوب في تلك العلبة. ابتلعيها كلها بكأس ماء كبيرة. واحرصي على أن تبتلعيها كلها ولا تتركي منها ولا واحدة، ثم اذهبي إلى سريرك واخلدي إلى النوم.

اذهبي الآن قبل أن تنسي. ولا تخبري أحداً بما تقومين به. من فضلك، ثقي بي.

مع حبي،

أليس هولاند

قرأت الرسالة مرة أخرى، ولكنها لم تتذكر أنها كتبتها. ولم تعرف الإجابة عن أي من الأسئلة المذكورة، باستثناء سؤال واحد يتعلق بعدد أولادها، ولكنها لم تكن واثقة من أسمائهم. ربما آنا وتشارلي، ولم تستطع أن تتذكر الاسم المتبقي.

قرأتها مرة أخرى، ولكنّها فعلت ذلك هذه المرة ببطء أكثر، لو كان من الممكن ذلك أصلاً. فالقراءة من شاشة الكمبيوتر أصبحت أصعب من القراءة عن الورق؛ حيث يمكنها أن تستخدم قلم التخطيط لتحديد الكلمات، وأن تأخذ الورقة معها إلى السرير وتقرأها هناك. فكرت في أن تطبعها، ولكنها لم تستطع أن تكتشف كيف تفعل هذا. فتمنت لو أن نفسها السابقة قبل أن يأخذ منها الألزهايمر الكثير كلّفت نفسها عناء كتابة الإرشادات لطباعة الرسالة.

قرأتها مرة ثالثة، فوجدتها ساحرة وشبه خيالية؛ وكأنها تقرأ دفتر مذكرات كتبتها وهي مراهقة. وبدت لها مليئة بكلمات سرية وعاطفية كتبتها فتاة لم تعد الآن تتذكر إلا النزر اليسير من ملامح شخصيتها. تمنت لو أنها كتبت المزيد، فقد جعلتها كلماتها تشعر بالحزن والفخر والقوة والراحة. أخذت نفساً عميقاً، ثم تنهدت وصعدت إلى الطابق العلوي.

وصلت إلى أعلى الدَّرَج، ثم نسيت سبب صعودها إلى هناك وما أرادت فعله، ولكنها شعرت بأن ما أرادته يحمل إحساساً بالأهمية والإلحاح من دون أن تتذكر

أي شيء آخر. فعادت إلى الطابق السفلي مرة أخرى، وبحثت عن دليل يشير إلى ما كانت تفعله للتو، فوجدت الكمبيوتر والرسالة المعروضة على الشاشة. فقرأتها مرة أخرى، وعاودت الصعود إلى الطابق الأعلى.

فتحت درج الطاولة المجاورة للسرير، وأخرجت منه علب مناديل ورقية وأقلاماً ورزمة من الورق اللاصق وعلبة مرطب للبشرة وبضع شمعات وخيطاً لتنظيف الأسنان وبضع قطع من العملة المعدنية. فردت كل شيء على السرير، وراحت تلمس كل واحد على حدة. مناديل ورقية، وقلم، وورق لاصق، وقطع عملات معدنية، وشمعات، وخيط أسنان، ومرطب بشرة.

«أليس؟».

«ماذا؟».

التفتت إلى الوراء، ووجدت جون واقفاً قرب مدخل الباب.

سألها: «ما الذي تفعلينه هنا؟».

نظرت إلى الأشياء الموجودة على السرير وقالت: «إنني أبحث عن شيء ما».

«يجب علي أن أعود إلى المكتب لأحضر ورقة نسيتها. سأذهب بالسيارة، لذا لن أتأخر أكثر من بضع دقائق».

«حسناً».

«خذي هذه، فقد حان وقتها. خذيها قبل أن أنسى».

وأعطاها كأساً من الماء وبعض الحبوب، فشربتها كل واحدة على حدة.

وقالت: «شكراً لك».

فأجابها قائلاً: «على الرحب والسعة. سأعود في الحال».

وأخذ الكأس الفارغة من يدها وغادر الغرفة، فاستلقت على السرير بجانب الأغراض التي أخرجتها من الدرج، وأغمضت عينيها وهي تشعر أثناء انتظارها بأنها حزينة وفخورة وقوية ومستريحة.

«من فضلك يا أليس، ارتدي معطفك، وضعي قبعتك ووشاحك. يجب علينا أن نغادر».

فقالت أليس: «إلى أين نحن ذاهبان؟».
«إلى بداية هارفرد».
تفحصت الزي مرة أخرى، ولم تفهم المقصود من قوله.
«ماذا تقصد ببداية هارفرد؟».
«إنه يوم التخرج في هارفرد».
البداية. التخرج من هارفرد. بداية. قلّبت الكلمة في رأسها. إن التخرج من هارفرد يعني البداية؛ بداية سن النضج وبداية الحياة المهنية؛ حياة ما بعد الدراسة. البداية! أحبت تلك الكلمة وأرادت أن تتذكرها.
مشيا على طول رصيف مزدحم، مرتديين زييهما الزهريين الداكنين وقبعتيهما السوداوين المصنوعتين من المخمل. ظلت خلال الدقائق الأولى من طريقهما يعتريها شعور بالسخف والاستغراب من اختيار جون للملابس. وبعد ذلك، فوجئت بأعداد هائلة من الناس في كل مكان يرتدون الملابس والقبعات نفسها، ولكن بألوان متعددة، ويأتون من الاتجاهات كافة إلى الرصيف الذي يتجهان إليه. وسرعان ما وجدا نفسيهما يسيران في استعراض يشبه ألوان قوس قزح.
دخلا ساحة معشوشبة تظلّلها أشجار باسقة، وتحيط بها مبانٍ كبيرة وقديمة، وسمعا صوت مزامير احتفالية. ارتعشت أليس وانتابتها القشعريرة، فقد تذكرت أنها فعلت هذا من قبل. والآن، قادهم الموكب إلى صف من الكراسي حيث جلسا.
قالت أليس: «هذا حفل تخرج هارفرد».
«نعم».
«البداية».
«نعم».
بعد قليل، بدأ المتحدثون يلقون كلماتهم. وكان حفل تخرج هارفرد قد شهد من قبل حضور الكثير من الشخصيات المشهورة والقوية؛ معظمهم من الزعماء السياسيين.
قالت أليس: «لقد تحدث ملك إسبانيا هنا ذات مرة».
فقال جون: «نعم». وضحك وهو يبدو مستمتعاً.

سألت أليس مشيرة إلى الرجل الواقف عند المنصة: «من هذا الرجل؟».
أجاب جون: «إنه ممثل».
والآن، ضحكت أليس وبدت مستمتعة.
وقالت: «أظن أنهم لم يتمكنوا من إحضار ملك هذه السنة».
فقال جون: «إن ابنتك ممثلة أيضاً. وقد تأتي وتتكلم هنا ذات يوم».
أصغت أليس إلى حديث الممثل، ووجدته متحدثاً سلساً وديناميكياً. وكان يتحدث عن قصة رحلات.
فقالت أليس: «ما هي قصة الرحلات؟».
«إنها مغامرة طويلة تعلم بطلها الكثير من الدروس».
تحدّث الممثل عن مغامرة حياته، وأخبرهم أنه أتى إلى هنا اليوم ليقص عليهم– أي أولئك الطلبة الذين يوشكون على البدء بمغامراتهم الخاصة– الدروس التي تعلمها في حياته. فأعطاهم خمس نصائح: كن مبدعاً، ومفيداً، وعملياً، وكريماً، واختم حياتك بإنجاز كبير.
لقد حققت كل هذه الأشياء، ولكن أعتقد باستثناء أنني لم أنته بعد. فأنا لم أختم حياتي بإنجاز كبير.
قالت أليس: «هذه نصيحة جيدة».
فقال جون: «نعم، هذا صحيح».
جلسوا واستمعوا وصفقوا، ثم استمعوا وصفقوا مرة أخرى لمدة أطول مما اكترثت له أليس. وبعد ذلك، نهض الجميع ومشوا جميعاً في استعراض أقل تنظيماً من سابقه. ودخل كل من جون وأليس وبعض الآخرين مبنى قريباً. فبعث المدخل المدهش بسقفه الخشبي الداكن شديد الارتفاع وجداره المزين بالزجاج الملون والمضاء بالشمس الرهبة في نفس أليس. ولاحت من فوق رؤوسهم شمعدانات ضخمة وقديمة تبدو ثقيلة الوزن.
سألت أليس: «ما هذا المكان؟».
«إنها قاعة ميموريـال، وهي جزء من هارفرد».
لم يقضيا وقتاً طويلاً في المدخل المدهش؛ مما سبب لها خيبة أمل، بل انتقلا

مباشرة إلى غرفة مسرح أصغر مساحة تبدو غير مثيرة للإعجاب بالنسبة إليها، ثم جلسا.

«سيتسلم طلاب كلية الفنون والعلوم شهادات الدكتوراة. ونحن هنا لنحضر تخرج دان؛ تلميذك».

جالت ببصرها في أنحاء الغرفة، وتأملت وجوه الناس الذين يرتدون الأزياء الزهرية الداكنة، ولكنها لم تعرف من يكون دان. ولم تستطع في الواقع أن تميز أياً من الوجوه، ولكنها استطاعت بالفعل أن تشعر بالمشاعر والطاقة التي تملأ المكان. فقد بدوا جميعاً سعداء ومفعمين بالأمل، وفخورين وهم يستعدون بكل لهفة للتحديات الجديدة وللاكتشاف والإبداع والتعليم، وليكونوا أبطالاً في مغامراتهم الخاصة.

كل ما رأته فيهم ميزته في نفسها. فهذا حدث شهدته من قبل في حياتها؛ هذا المكان وهذه البهجة والاستعداد وهذه البداية. فهنا بدأت مغامرتها؛ رغم أنها لم تستطع أن تتذكر التفاصيل بالطبع، ولكنها أيقنت في قرارة نفسها أنها كانت بداية غنية وجديرة بالاهتمام.

قال جون: «ها هو الآن على المسرح».

«من؟».

«تلميذك دان».

«أي واحد؟».

«الأشقر».

أعلن أحدهم: «دانييل مالوني».

تقدم دان وصافح الرجل الواقف على المسرح، ثم تسلم منه مجلداً أحمر اللون. رفع دان المجلد فوق رأسه، وابتسم ابتسامة انتصار لفرحته ولكل ما أنجزه بكل تأكيد ليكون هنا، وللمغامرة التي سيباشرها عما قريب. صفقت أليس لتلميذها الذي لم تعد تتذكر عنه شيئاً.

وقفت أليس برفقة جون في الخارج تحت خيمة بيضاء كبيرة بين الطلاب

الذين يرتدون الأزياء الزهرية الداكنة والناس الذين يحتفلون بهم وانتظرا قليلاً. فاقترب شاب أشقر من أليس وهو يبتسم ابتسامة عريضة، وعانقها بلا تردد، وطبع قبلة على خدها.

«أنا دان مالوني؛ تلميذك».

فقالت أليس: «تهانينا يا دان. إنني مسرورة جداً من أجلك».

«شكراً جزيلاً لك. إنني مسرور جداً لأنك تمكنت من الحضور ورؤية حفل تخرجي. أشعر أنني موفور الحظ لأنني كنت تلميذك. وأريد منك أن تعرفي أنك السبب الذي جعلني أختار علم اللغويات كمجال لدراستي. فشغفك في فهم طبيعة عمل اللغة، وطريقتك الصارمة والتعاونية في البحث، وحبك للتدريس ألهمتني بطرائق عديدة. شكراً لك على كل إرشادك وحكمتك، ولأنك وضعت لي هدفاً أعلى بكثير مما ظننت أنني أستطيع تحقيقه، ولأنك منحتني مجالاً لأنشئ أفكاري الخاصة. كنت أفضل معلمة عرفتها في حياتي. ولو أنني أنجزت في حياتي ولو جزءاً بسيطاً مما أنجزته أنت في حياتك، فإنني سأعتبر نفسي عشت حياة ناجحة».

«على الرحب والسعة. شكراً لقولك هذا الكلام. تعرف أنني لم أعد أتذكر الكثير في هذه الأيام، ولكنني سعيدة لأنك ستتذكر هذه الأشياء عني».

سلّمها دان مغلفاً أبيض اللون.

«تفضلي. لقد كتبت كل شيء هنا؛ كل ما قلته لك للتو، لكي تتمكني من قراءته متى يحلو لك، ولتعرفي أنك منحتني الكثير؛ حتى لو لم تعودي تتذكرين من ذلك شيئاً».

«شكراً لك».

أمسك كل منهما بمغلفه- مغلفها أبيض ومغلفه أحمر- بفخر عارم واحترام.

اقترب منهم رجل يشبه دان ولكنه أكبر سناً وأثقل وزناً، وبصحبته امرأتان، إحداهما أكبر سناً بكثير من الأخرى. وكان الرجل يحمل صينية عليها كؤوس شراب، فسلمت الشابة كأساً لكل منهم.

قال الرجل الشبيه بدان وهو يرفع كأسه: «نخب دان».

فقال الجميع وهم ينقرون كؤوسهم ببعضها: «نخب دان».

وأضافت أليس قائلة: «نخب البدايات الميمونة والنهايات العظيمة».

بدآ يمشيان مبتعدين عن الخيم، وعن المباني القرميدية القديمة، والناس الذين يرتدون الأزياء والقبعات إلى مكان أقل ازدحاماً وضجيجاً. صاح شخص ما يرتدي رداء أسود واقترب من جون، فتوقف جون وترك يد أليس ليصافح ذلك الشخص. فظلت أليس تمشي وهي مستغرقة بأفكارها ولم تتوقف.

توقفت أليس للحظة وهي تنظر إلى عينَي امرأة. لم تكن واثقة من أنها تعرفها، ولكنها شعرت أن هناك معنى وراء تلك النظرة المتبادلة. كان للمرأة شعر أشقر، وهناك هاتف تحمله قرب أذنها، ونظارة أمام عينيها الزرقاوين الكبيرتين المندهشتين. وكانت تقود سيارة.

وفجأة، انشدت ياقة أليس من الخلف وضاقت حول عنقها، ووجدت نفسها تتراجع إلى الوراء بعنف، ثم سقطت بقوة على ظهرها وارتطم رأسها بالأرض. ولم يمنحها زيها أو قبعتها المخملية أية حماية ضد حجارة الرصيف الصلبة.

سألها رجل يرتدي زياً زهرياً داكناً وهو راكع بجانبها: «إنني آسف يا آلي. هل أنت بخير؟».

فقالت وهي تجلس وتفرك مؤخر رأسها: «كلا». توقعت أن ترى دماً على يدها، ولكنها لم تر شيئاً.

«إنني آسف، ولكنني رأيتك تمشين في وسط الشارع مباشرة، حتى كادت تلك السيارة تصدمك».

«هل هي بخير؟».

نظرت إلى الأعلى، فرأت المرأة نفسها التي كانت تقود السيارة، وعيناها لا تزالان تبدوان كبيرتين ومذهولتين.

فقال الرجل: «أظن ذلك».

«يا إلهي. كان من الممكن أن أقتلها. لو أنك لم تسحبها وتبعدها عن الطريق لصدمتها بلا شك».

«حسناً، لا بأس. لم تصدميها. أظن أنها على ما يرام».

ساعد الرجل أليس على الوقوف. وتحسس رأسها وتفحصه.

وقال: «أظن أنك بخير. سيؤلمك رأسك على الأرجح. هل تستطيعين المشي؟».

سألت المرأة: «هل يمكنني أن أوصلكما إلى مكان ما؟».

فقال الرجل: «كلا، لا بأس. نحن على ما يرام».

وضع ذراعه حول خصر أليس، ويده تحت مرفقها. فمشت إلى البيت برفقة ذلك الرجل الغريب الطيب الذي أنقذ حياتها.

صيف 2005

جلست أليس على كرسيها الأبيض الكبير المريح وهي تتأمل بحيرة الساعة المعلقة على الجدار. كانت الساعة من ذلك النوع الذي لديه عقربان وأرقام، وهو نوع قراءته أصعب من ذلك النوع الذي لديه مجرد أرقام. **إنها الساعة الخامسة ربما؟**

سألت الرجل الجالس على الكرسي الأبيض الآخر: «كم الساعة؟».

فنظر إلى معصمه وقال: «تكاد تبلغ الثالثة والنصف».

«أظن أن الوقت قد حان لأعود إلى البيت».

«أنت في البيت. فهذا بيتك في شبه جزيرة كيب».

نظرت حولها في أنحاء الغرفة، وتأملت الأثاث الأبيض، وصور المنارات والشواطئ على الجدران، والنوافذ الضخمة، والأشجار الصغيرة النحيلة في الخارج.

«كلا، هذا ليس منزلي. إنني لا أعيش هنا. أريد أن أعود إلى البيت الآن».

«سنعود إلى كامبريدج في غضون بضعة أسابيع. أما الآن، فنحن هنا في إجازة. وأنت تحبين هذا المكان».

واصل الرجل الجالس على الكرسي قراءة كتابه وارتشاف شرابه. كان الكتاب سميكاً، والشراب بنياً مصفراً كلون عينيها وفيه قطع من الثلج. بدا مستمتعاً ومستغرقاً في كل منهما؛ الكتاب والشراب.

الأثاث الأبيض، وصور المنارات والشواطئ على الجدران، والنوافذ العملاقة، والأشجار الصغيرة النحيلة في الخارج كلها لم تبدُ مألوفة لها. ولم تألف الأصوات التي سمعتها في هذا المكان على حد سواء. فقد سمعت صوت طيور من النوع الذي يعيش قرب المحيط، وصوت قطع الثلج وهي تدور وتصلصل في الكأس عندما راح الرجل الجالس على الكرسي يحتسي شرابه، وصوت أنفاسه وهو يتنفس

عبر أنفه ويقرأ كتابه، وصوت تكتكة الساعة.

«أظن أنني أمضيت وقتاً كافياً هنا. أود أن أعود إلى البيت الآن».

«أنت في البيت. فهذا هو البيت الذي تمضين فيه إجازتك. وهذا هو المكان الذي نأتي إليه لنسترخي ونستمتع بوقتنا».

لم تجد المكان شبيهاً ببيتها، أو الأصوات فيه شبيهة بالأصوات في بيتها. ولم تشعر بأي استرخاء. ولم يكن ذلك الرجل الجالس على الكرسي الأبيض الكبير يعرف ما يتحدث عنه، فربما أفرط في احتساء الشراب.

ظل الرجل يتنفس ويقرأ ويشرب بينما الساعة تتكتك بلا توقف. وجلست أليس على الكرسي الأبيض الكبير مصغية إلى صوت مضي الوقت، وهي تتمنى أن يأتي أحدهم ويأخذها إلى البيت.

جلست على أحد الكراسي الخشبية البيضاء، وهي تشرب الشاي المثلج وتصغي إلى صوت نقيق الضفادع وحشرات المساء التي لا تراها.

قال الرجل الذي يملك البيت: «مرحباً يا أليس، لقد عثرت على قلادة الفراشة الخاصة بك».

وأمسك بقلادة مرصعة عليها فراشة وذات سلسلة فضية ودلّاها أمام وجهها.

«هذه ليست قلادتي بل قلادة أمي. وهي مميزة جداً، لذا من الأفضل أن تعيدها إلى مكانها. فليس من المفترض بنا أن نلعب بها».

«لقد تحدثت إلى أمك وقالت إنه بوسعك أن تأخذيها، فهي تريد أن تعطيك إياها».

تفحصت عينيه وفمه ولغة جسده بحثاً عن أية إشارة قد تفصح عن هدفه. ولكن، قبل أن تتمكن من قراءة أي شيء يدل على صدقه، أغراها جمال الفراشة الزرقاء البراقة وتغلب على مخاوفها من عدم الالتزام بالقوانين.

«هل قالت إن بوسعي الاحتفاظ بها؟».

«نعم».

اقترب منها من الخلف وثبت القلادة حول عنقها، فمررت أصابعها على

الحجارة الكريمة التي ترصع الجناحين، والجسم الفضي، وقرني الاستشعار المرصعين بالألماس، وشعرت بإثارة تسري في جسدها. **لا بد أن آن ستشعر بالغيرة.**

جلست على الأرض أمام مرآتها في غرفة النوم التي تنام فيها، وراحت تتأمل انعكاس صورتها. فلاحظت أن للفتاة في المرآة هالتين سوداوين حول عينيها. وبدا جلدها رخواً ومليئاً بالبقع ومجعداً عند زاويتي عينيها وعلى جبينها. وشعرت أن حاجبيها السميكين المشعثين بحاجة إلى إزالة الشعر الزائد عنهما. وكان شعرها المجعد أسود اللون بمعظمه، ولكن من الواضح أن خصلات الشيب قد غزته. لقد بدت الفتاة الظاهرة على صفحة المرآة قبيحة ومسنة.

مررت أصابعها على خديها وجبينها، وشعرت بملمس وجهها على أصابعها وبملمس أصابعها على وجهها. **لا يمكن أن تكون هذه أنا. ما خطب وجهي؟** جعلتها الفتاة في المرآة تصاب بالغثيان.

عثرت على الحمام وأشعلت الضوء، فقابلتها الصورة نفسها في المرآة المعلقة فوق المغسلة، بعينيها البنيتين الذهبيتين وأنفها الجاد وشفتيها اللتين تشبهان شكل القلب، ولكنّ كل شيء آخر في ملامحها بدا غريباً إلى حد بشع ومثير للاشمئزاز. فمررت أصابعها على الزجاج الأملس البارد. **ما مشكلة هذه المرايا؟**

شمت رائحة غير مستحبة في الحمام. فالتفتت ووجدت كرسيين أبيضين لامعين، وفرشاة ودلو طلاء على الأرض فوق مجموعة من أوراق الصحف. جلست القرفصاء، وشمت رائحتها بأنفها الجاد، ثم نزعت الغطاء عن الدلو وغمست الفرشاة فيه، وراقبت الطلاء الأبيض وهو يقطر منها.

بدأت بتلك المرايا التي اعتبرتها معيوبة؛ المرآة التي في الحمام، ثم تلك التي في غرفة النوم. وعثرت على أربع أخرى قبل أن تنتهي، ودهنتها كلها باللون الأبيض.

جلست على كرسي أبيض كبير بينما جلس الرجل الذي يملك البيت على

كرسي آخر. وكان مالك البيت يقرأ كتاباً ويحتسي شراباً. وبدا الكتاب سميكاً والشراب بنياً مصفراً ويحتوي على قطع من الثلج.

أخذت عن طاولة القهوة كتاباً أثقل من الكتاب الذي يقرأه الرجل، وراحت تقلب صفحاته. فتوقف نظرها عند رسوم بيانية، فيها كلمات وأحرف مرتبطة بكلمات، وأحرف أخرى مرتبطة بأسهم وشرطات صغيرة. وعثرت وهي تتصفح الكتاب على عبارات مثل: التحلل من الكف، والجينات، وسرعة الزوال، والمورفيمات، وغيرها من المصطلحات اللغوية...

قالت أليس: «أظن أنني قرأت هذا الكتاب من قبل».

نظر الرجل إلى الكتاب الذي تحمله ثم نظر إليها.

وقال: «لقد فعلت أكثر من ذلك. في الواقع، لقد ألفت هذا الكتاب بنفسك. نحن ألفنا هذا الكتاب معاً».

ترددت في تصديق كلماته، وأغلقت الكتاب ونظرت إلى غلافه الأزرق اللامع. وقرأت عليه: من «الجزيئات إلى العقل» بقلم البروفسور جون هولاند والبروفسورة أليس هولاند. نظرت إلى الرجل الجالس على الكرسي. إنه جون! وعادت إلى الصفحات الأولى، وقرأت: «فهرس المحتويات. المزاج والعاطفة. التحفيز. الإثارة والانتباه. الذاكرة. اللغة». اللغة.

فتحت الكتاب عند قرابة نهايته، وقرأت: «مقدرة لا نهائية على التعبير يتم تعلمها رغم أنها فطرية...».شعرت أن الكلمات التي قرأتها بدأت تزيل الأعشاب الخانقة والوحل من عقلها إلى مكان يبدو أنه لا يزال أصلياً وسليماً.

قالت: «جون».

«نعم».

أنزل كتابه وجلس مستقيماً على حافة كرسيه الأبيض الكبير.

فقالت له: «أنا ألّفت هذا الكتاب معك».

«نعم».

«إنني أتذكر. إنني أتذكرك أنت، وأتذكر أنني كنت ذكية جداً».

«نعم، هذا صحيح. فقد كنت أذكى شخص قابلته في حياتي».

لقد مثّل هذا الكتاب السميك ذو الغلاف الأزرق اللامع الكثير مما اعتادت أن تكون عليه. **اعتدت أن أعرف كيف يتولى العقل استخدام اللغة، وأن أوصل للناس ما أعرفه من علم. اعتدت أن أكون شخصاً يعرف الكثير. لم يعد أحد يطلب رأيي أو نصيحتي بعد الآن. وأنا أفتقد ذلك. كنت فضولية واستقلالية وواثقة من نفسي. إنني أفتقد شعوري بالثقة حيال الأشياء. فأنا لا أنعم بأي سلام عندما أكون غير واثقة من كل شيء طوال الوقت. وأفتقد القيام بكل شيء بسهولة. وأفتقد مشاركتي في كل ما يجري من حولي. وأفتقد شعوري بأنني مطلوبة من الآخرين. وأفتقد حياتي وعائلتي؛ فقد أحببت حياتي وعائلتي.**

أرادت أن تخبره كل شيء تذكرته وعرفته، ولكنها لم تستطع أن ترسل كل هذه الذكريات والأفكار المكونة من عدد كبير من الكلمات والعبارات والجمل، وأن تجعلها تتجاوز الأعشاب والوحل التي تعيق طريقها لتحولها إلى صوت مسموع، فكبتتها، وصبت كل جهدها على ما هو جوهري أكثر من ذلك. أما ما تبقى، فقد كان سيتوجب عليه أن يبقى في المكان السليم صامداً.

«إنني أفتقد نفسي».

«وأنا أيضاً أفتقدك كثيراً يا أليس».

«لم أخطط قط لكي أصبح في هذه الحال».

«أعرف».

أيلول 2005

جلس جون إلى إحدى الطاولات، وأخذ رشفة كبيرة من فنجان قهوته السوداء، فوجد طعمها قوياً ومراً للغاية، ولكنه لم يأبه لذلك. كان سيشربها بشكل أسرع لو استطاع، ولكنه وجدها لا تزال تغلي. شعر أنه بحاجة إلى كوبين أو ثلاثة أكواب كبيرة من القهوة قبل أن يشعر أنه استعاد يقظته ونشاطه بالكامل.

معظم الناس الذين دخلوا المقهى أخذوا أكواب قهوتهم وأسرعوا في طريقهم للخروج. لم يكن لدى جون اجتماع في المختبر قبل ساعة من الزمن. لذا، لم يشعر بأن هناك ما يلح عليه للوصول إلى مكتبه في ساعة مبكرة اليوم. وشعر بالرضى لأنه سيتمكن من تناول كعكة القرفة وشرب الشاي وقراءة جريدة نيويورك تايمز بهدوء.

فتح قسم الصحة أولاً كما اعتاد أن يفعل في كل جريدة يقرأها منذ أكثر من سنة؛ وهي عادة حلت قبل وقت طويل محل معظم الأمل الذي ألهمه في الأصل للقيام بهذا التصرف. قرأ المقال الأول على الصفحة، ثم أجهش بالبكاء جهراً بينما راحت قهوته تبرد.

فشل تجربة عقار أميليكس

بناء على نتائج دراسة المرحلة الثالثة التي أجريت على المرضى الذين يعانون من حالات بسيطة إلى متوسطة من مرض الألزهايمر، والذين تناولوا عقار أميليكس خلال التجربة التي دامت خمسة عشر شهراً، فشل المرضى في إظهار أي استقرار ملحوظ في أعراض الخرف مقارنة بالدواء الوهمي.

أما أميليكس، فهو عبارة عن عامل مخفض للمادة النشوانية. وكان الهدف من هذه التجربة إيقاف تطور المرض، وهذا مختلف عن العقارات المتاحة حالية

لمرضى الألزهايمر والتي يمكنها في أفضل الحالات تأخير مسار المرض النهائي فقط.

تم تحمل العقار بشكل جيد خلال المرحلتين الأولى والثانية، ولكن بعد أكثر من سنة بقليل من تعاطي الدواء فشلت الوظائف الإدراكية للمرضى– حتى الذين يأخذون أعلى جرعات أميليكس– في إظهار أي تحسن أو استقرار حسب الاختبارات التي تجرى على مرضى الألزهايمر، وتراجعت قدراتهم بمعدل واضح ومتوقع.

الخاتمة

جلست أليس على مقعد مع تلك السيدة، وراحت تراقب الأطفال الذين يمرون بهما. لم يكونوا أطفالاً في الواقع، فهم ليسوا من نوع الأطفال الذين يعيشون في البيوت مع أمهاتهم. من هم يا ترى؟ أهم أطفال متوسطين.

تفحصت وجوه الأطفال المتوسطين وهم يمرون بها؛ إنها وجوه جادة، ويبدو عليها الانشغال وكثرة الأفكار التي تشغلهم وهم يتوجهون في طريقهم إلى مكان ما. كانت هناك مقاعد أخرى بالقرب منها، ولكنّ أياً من الأطفال المتوسطين لم يتوقف ليجلس عليها. فالجميع ظلوا يمشون وهم يبدون مشغولين في طريقهم إلى حيث يجب عليهم الذهاب.

لم يتوجب عليها الذهاب إلى أي مكان، فشعرت بأنها محظوظة لهذا السبب. أصغت هي والمرأة الجالسة بجانبها إلى فتاة ذات شعر طويل تعزف الموسيقى وتغني. وكان للفتاة صوت جميل وأسنان كبيرة، وكانت مبتسمة، وترتدي تنورة طويلة عليها زهور أعجبت بها أليس.

أخذت أليس تدندن مع الموسيقى، فأعجبها صوتها الممتزج مع صوت الفتاة المغنية.

سألت المرأة: «حسناً يا أليس. ستصل ليديا إلى البيت في أية لحظة. هل تودين أن تدفعي لسونيا قبل أن نذهب؟».

كانت المرأة واقفة وهي تمسك بالمال وتبتسم، فشعرت أليس أنها مدعوة للانضمام إليها، لذا نهضت. سلّمتها المرأة النقود، فوضعتها أليس في القبعة السوداء على الأرضية القرميدية بجانب قدمي الفتاة المغنية. واصلت الفتاة عزف موسيقاها، ولكنها توقفت عن الغناء للحظة لتتحدث إليهما.

وقالت: «شكراً لكما يا أليس وكارول. أراكما لاحقاً!».

بينما مشت أليس مع المرأة بين الأطفال المتوسطين، أصبحت الموسيقى أخفت صوتاً خلفهما. لم تشعر أليس فعلاً بالرغبة في المغادرة، ولكن المرأة أرادت أن تذهب، وأدركت أليس أنه ينبغي لها البقاء معها. كانت المرأة بشوشة ولطيفة، ودائماً تعرف ما تفعله، وهذا صنيع قدّرته لها أليس؛ لأنها عادة لم تكن تعرف ما يجدر بها فعله.

بعد المشي لبعض الوقت، لاحظت أليس وجود سيارة المهرج الحمراء وسيارة طلاء الأظفار الكبيرة مركونتين في مدخل السيارات.

فقالت المرأة عندما لاحظت السيارتين نفسيهما: «إنهما كلتيهما هنا».

ابتهجت أليس لدى رؤيتهما، فأسرعت إلى داخل البيت، ووجدت الأم واقفة في المدخل.

قالت الأم: «لقد انتهى اجتماعي في وقت أبكر مما كنت أظن، لذا عدت إلى هنا. شكراً لك لأنك حللت مكاني».

قالت المرأة: «لا داعي للشكر. لقد نزعت الملاءات عن سريرها، ولكن لم تتسنَّ لي الفرصة لإعادة ترتيبه. لا يزال كل شيء في آلة التجفيف».

«حسناً، شكراً لك. سأقوم بهذا».

«لقد أمضت يوماً آخر جيداً».

«لا تجوال؟».

«كلا، إنها الآن ظلي الموثوق وشريكتي في الجريمة. أليس كذلك يا أليس؟».

ابتسمت المرأة وهي تومئ برأسها بحماسة، فابتسمت لها أليس وأومأت برأسها بدورها. ولم تكن لديها أية فكرة عما تتفق معها بالرأي حوله، ولكنها فكرت في أنه أمر جيد على الأرجح إن ظنت المرأة ذلك.

بدأت المرأة بجمع الكتب والحقائب أمام الباب الأمامي.

سألت المرأة قائلة: «هل سيأتي جون غداً؟».

أجهش طفل بالبكاء في مكان ما، فتوارت الأم عن الأنظار في غرفة أخرى.

قال صوت الأم من بعيد: «كلا، ولكننا غطينا غيابه».

عادت الأم بعد ذلك حاملة طفلاً يرتدي ملابس زرقاء وهي تقبله بشكل

متكرر على عنقه. وظل الطفل يبكي، ولكن قلبه لم يعد يطاوعه على القيام بذلك بعد الآن؛ فقد بدأت قبلات الأم السريعة تحدث مفعولها. وضعت الأم شيئاً للمص في فم الطفل.

«أنت بخير، أيها الإوزة الصغيرة. شكراً جزيلاً لك يا كارول. إنك رائعة. أتمنى لك عطلة أسبوعية سعيدة. أراك يوم الاثنين».

صاحت المرأة قائلة: «أراك يوم الاثنين. إلى اللقاء يا ليديا».

صاح صوت آخر من مكان آخر من البيت: «إلى اللقاء. شكراً لك يا كارول».

التقت عينا الطفل الكبيرتان والمستديرتان عينَي أليس، فابتسم لها من خلف ذلك الشيء الذي يمصه. ردت له أليس الابتسامة بمثلها، فبادلها الطفل ضحكة كبيرة، وسقط الشيء الذي كان يمصه على الأرض. عندها، جلست الأم القرفصاء على الأرض والتقطته.

«هلا تمسكينه لي من فضلك يا أمي».

أعطت الأم الطفل إلى أليس، فانزلق بكل راحة بين ذراعيها وعلى وركها، وبدأ يلامس وجهها بإحدى يديه الرطبتين. لطالما أحب أن يفعل هذا، ولطالما أحبت أليس أن تسمح له بذلك. أمسك بشفتها السفلى، فتظاهرت أنها تعض يده وتأكلها محدثة أصوات حيوانات برية. فضحك وانتقل إلى أنفها، فراحت تتنشق وتتنشق متظاهرة أنها ستعطس، فانتقل إلى عينيها. عندها، أغمضتهما لكي لا يؤذيها، وراحت ترمش بهما محاولة أن تدغدغ يده برموشها، فنقل يده إلى جبينها نحو شعرها، ثم ضيق قبضة يده الصغيرة وشد شعرها، فأبعدت يده بلطف، ووضعت إصبعها بدلاً من شعرها في يده. عندها، عثر على قلادتها.

«أترى الفراشة الجميلة؟».

نادت عليها الأم التي راحت تراقبها من الغرفة الأخرى قائلة: «لا تدعيه يضعها في فمه!».

لم تكن أليس توشك أن تدع الطفل يضع قلادتها في فمه، فشعرت أنها اتهمت ظلماً. دخلت الغرفة التي تجلس فيها الأم، وكانت تعج بأنواع كراسي الأطفال الملونة كافة، من النوع الذي يصدر موسيقى ونغمات عندما يطرق الطفل عليها.

وكانت أليس قد نسيت أن هذه الغرفة تحتوي كل هذه الكراسي الصاخبة، فأرادت أن تخرج قبل أن تقترح عليها الأم أن تضع الطفل في أحدها. ولكنها وجدت الممثلة هناك أيضاً، وأرادت أن تكون بصحبتها.

سألت الممثلة: «هل سيأتي أبي في هذه العطلة الأسبوعية؟».

«كلا، ليس بوسعه ذلك، ولكنه قال إنه سيأتي في الأسبوع القادم. هل يمكنني أن أتركك معهما ومع أمي لبعض الوقت؟ إذ يجب علي الذهاب إلى المتجر. ينبغي أن تظل أليسون نائمة ساعة أخرى».

«بالطبع».

قالت الأم وهي تخرج من الغرفة: «سأعود بسرعة. هل تحتاجين إلى أي شيء؟».

فصاحت الممثلة: «المزيد من المثلجات بالشوكولاتة».

عثرت أليس على دمية لا تحتوي على أية أزرار تصدر ضجة، وجلست بينما أخذ الطفل يستكشفها في حضنها. شمت رائحة رأسه شبه الأصلع، وراقبت الممثلة وهي تقرأ. رفعت الممثلة نظرها إليها.

«أمي، هلا تصغين إليّ وأنا أؤدي هذه المناجاة الذاتية. فأنا أعمل عليها من أجل الصف. وأخبريني عمّا تتحدث. لا أعني القصة، فهي طويلة بعض الشيء. وليس عليك أن تتذكري الكلمات. أخبريني فقط بما تتحدث عنه من الناحية العاطفية. وعندما أنتهي، أخبريني بما جعلتك تشعرين به. اتفقنا؟».

أومأت أليس برأسها، فبدأت الممثلة بأدائها. راقبتها أليس، وأصغت وركزت على ما وراء الكلمات التي تفوهت بها الممثلة. رأت عينيها تصبحان يائستين وباحثتين ومتوسلتين للحصول على الحقيقة، ورأتهما تنظران إليها بنعومة وبامتنان. وبدا صوتها في البداية متردداً وخائفاً. وشيئاً فشيئاً، من دون حتى أن ترتفع نبرته، ازداد ثقة ثم بهجة، وراح يعزف في بعض الأحيان كالأغنية، وانفرجت أساريرها، واستقامت كتفاها، وأصبحت يداها أكثر ليونة وهي تطلب التقبل وتمنح الغفران. وبث صوتها وجسدها طاقة ملأت أليس، وحركت فيها الرغبة في البكاء، فضغطت على الطفل الجميل الجالس في حضنها، وقبلت رأسه ذا الرائحة الحلوة العذبة.

توقفت الممثلة عن التمثيل، وعادت إلى طبيعتها، ونظرت إلى أليس وانتظرت رد فعلها.

«حسناً، بماذا تشعرين؟».

«أشعر بالحب. إنه عن الحب».

هللت الممثلة، وأسرعت نحو أليس وقبلتها على خدها، وابتسمت وكل خط من خطوط وجهها مفعم بالسعادة.

فسألتها أليس: «هل قلت الجواب الصحيح؟».

«نعم، يا أمي. هذا هو الجواب الصحيح بكل تأكيد».

النهاية

***

ملحق

إن العقار التجريبي الموصوف في هذا الكتاب، وهو أميليكس، مجرد اسم من محض الخيال. ومع ذلك، فهو مشابه لمركبات حقيقية في التطور العيادي تهدف إلى القيام بشكل انتقائي بخفض مستويات المادة النشوانية بيتا 42. وعلى عكس العقاقير المتوفرة حالياً، والتي يمكنها فقط تأخير تطور المرض النهائي، فإنه يؤمل أن تنجح هذه العقاقير في إيقاف تطور مرض الألزهايمر. كل العقاقير الأخرى حقيقية، ووصف استخدامها وفعاليتها في معالجة مرض الألزهايمر أمر دقيق كما هو مكتوب في هذه القصة.

للمزيد من المعلومات حول مرض الألزهايمر والتجارب العيادية، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني: http: / /www.alz.org /alzheimers_disease_clinical_ .studies.asp

في رواية ليزا جينوڤا الاستثنائية هذه والتي تتصدر قائمة نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعاً، تكتشف أُستاذة جامعية بارعة – ولكنها مصابة بداء الزهايمر – أن أهميتها تفوق قُدرات ذاكرتها.

تفتخر أليس هاولاند بالإنجازات التي جاهدت طوال حياتها لتحقيقها. وفي عمر الخمسين، تعمل أُستاذة لمادة علم النفس المعرفي في جامعة هارڤارد، إلى جانب كونها خبيرة في علم اللغات، وذات شهرة عالمية. كما أنها تعيش حياة هانئة في كنف زوجها وأولادها البالغين. ولكن، عندما تتحول إلى شخصية مشوشة وكثيرة النسيان، يُغيّر تشخيص مأساوي مجرى حياتها وعلاقتها بأفراد عائلتها والعالم من حولها إلى الأبد.

«لا تزال أليس» تعكس صورة واقعية ومؤثرة لما تحمله الحياة من صدمات لدى الإصابة بداء الزهايمر، مما يستحضر إلى الذهن أعمالاً مؤثرة ولا تُنسى مثل «عقل جميل» و«الناس العاديون».

تحوّلت هذه الرواية إلى فيلم سينمائي بالعنوان نفسه وبدأ عرضه في صالات السينما في مختلف أنحاء العالم في بداية العام 2015؛ وقد أخرج الفيلم كلّ من ريتشارد غلاتزر وواش ويستمورلاند، ولعبت دور البطولة فيه، إلى جانب الممثل أليك بالدوين، الممثلة القديرة جوليان مور، حيث فازت على دورها فيه بالعديد من الجوائز، كان آخرها جائزة الأوسكار.



تخرّجت **ليزا جينوڤا** من جامعة بايتس بمرتبة التميز الأكاديمي، وقد حصلت على شهادة بعلم النفس العضوي، كما أنها تحمل دكتوراه في علم الأعصاب من جامعة هارڤارد. ومن أعمالها الأدبية إلى جانب «لا تزال أليس»، «تُركِتْ وحيدة» و«أُحب أنتوني».

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic

ISBN 978-614-01-1608-5

9 786140 116085

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com